جامعة الأزهر
كلية الشريعة والقانون

إمارة الجيش في الإسلام

رسالة مقدمة إلى كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر
لنيل درجة الماجستير في السياسة الشرعية

إعداد
صبري أحمد عبد النبي خضر

إشراف
فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد أنيس عبادة

1398هـ - 1978م

بسم الله الرحمن الرحيم

عليه توكلت وإليه أنيب، وهو رب العرش العظيم

أحمد الله سبحانه وتعالى على ما أولاني من نعم لا تحصى، ومهما قلت فلست بموفٍ له من شكر على ما تفضل ويسر، ولكنها حيلة العبد لدى سيده، وقولة المخلوق بين يدي خالقه، لا يملك سواها، ولا يقدر على غيرها، فـللّهالمنة والفضل على ما حباني من قوّة، وجلد، وبحث، وفكر في سبيل إنجاز هذه الرسالة على هذا الشكل، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن عند نفسي، والله على كل شيء قدير.

وبالتالي أتقدم بالشكر الجزيل إلى فضيلة الأستاذ الشيخ الدكتور محمد أنيس عبادة لتفضله بالإشراف على هذه الرسالة وتحمّل متابعتها ومشاقّ دراستها وتوجيهها، وأشكر كلّ من ساهم من قريب أو بعيد ناصحاً، أو موجّهاً معيناً، أو منبّهاً، والله يهدي إلى سواء السبيل.

صبري أحمد عبد النبيّ خضر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على القائد الأمين محمد بن عبدالله الرسول الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنّ قيادة الجيش على مدار التاريخ الإنساني كانت من الأهمية في المكان الأول، بحيث كان اختيارُ القائد الناجح الصالح لهذه القيادة هو بداية النّصر في كلِّ معركة، والتاريخ على طوله وترامیه قد حفظ لنا في كلِّ عصر اسْماً لقائد عسكريٍّ حقّق انتصارات باهرة جعلت أمته تملك المساحات الشاسعة من أراضي الغير وتسيطر عليهم.

وقد كان جلة زعماء العالم القديم والأوسط إنما هم قادة عسكريون يخوضون المعارك الطاحنة فيحققون النصر بأية وسيلة بلا نظر إلى الأمم المغلوبة ومصالحها أو في سبيل مصلحة أو عقيدة يراد حملهم عليها.

ثم بدأ هناك نوع من الفرق بين قائد الدّولة وقائد الجيش، وأصبح اختيار قائد الجيش يخضع لشروط واعتبارات تختلف على مر التاريخ من أمّـة إلى أخرى، ولكن يكاد جميعها يتفق على تفتح الذهن، وسرعة البديهة، والحزم في معالجة الأمور وخاصة في مساحة الحرب -بالإضافة إلى سجل عسكري نظيف يعطي القناعة بخبرة القائد وانتصاراته المتلاحقة الساحقة- شروطاً لاختيار قائد الجيش.

والأمة الإسلامية بتاريخها الطويل قد قاست وعاشت ردحاً طويلاً من الزمان على

وجه الأرض، وستظلّ تعيش إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد مارست تحركات الجيش وقياداتها، تحركات الدفاع عن الإنسان في الأرض، وكلّ ما يتعلق بشؤون الحرب، وكان لها من زمان الأرض قروناً متطاولة (استحوذت) فيها على الحياة العسكرية القيادية في العالم المعروف حينذاك.

إنّ هذه القيادة العسكرية كانت بوحي من الله، وإرشاد من الرسول وتخطيط من خلفائه الراشدين، وقد تمّ بناء على ذلك وضع قواعد، وأسس تختلف في جوهرها[2] عن اعتبارات الأرض التي يبنى عليها اختيار قادة الجيش، مما ترتب عليه بالتالي أن تكون الحروب الإسلامية بقادتها صفحة متميزة في التاريخ بإنسانيتها ورسالتها ونتائجها العامة، وبالتالي لتشكل مدرسة إسلامية عسكرية مستقلة.

وهذا التمييز الذي لا يوجد إلا في الإسلام دين الله وشريعته، وعند المسلمين عباد الله، هو الذي دعاني لأن أحاول الكتابة في هذا البحث الذي هو إمارة الجيش في الإسلام، هذا ما كتبته يوم أن استجمعت فكري لكتابة هذه الرسالة، وقدمته للأستاذ المشرف وكنت يومها أعتقد أنّ الأمر من السهولة بحيث لا يكلفني من العناء سوى الجلوس إلى المكتب، وتلقى الوحي في هذا الأمر.

ولكن ما إن جلست وبدأت حتى رأيت أنّ الأمر أصعب جداً مما فكرت وتخيلت، وإن الأمر من الوعورة بحيث لا يطاق على إنسان مثلي لم يمارس شيئاً من الإمارة وشؤونها، وخاصةً إن كانت عسكرية لها شروط ومؤهلات أنا خالي الوفاض منها تماماً، فأنا لم أمارس في حياتي شيئاً من الأمور العسكرية قليلةً كانت أو كثيرة على أي وجه من الوجوه، وخضت هذا

الغمار وليس معي من أسلحته سوى ما أرجوه من الله من عون، زد على ذلك أن هذا الموضوع قد كتب عن بعض جوانبه الكثير من العسكريين الذين مارسوا هذا الفنّ فعلاً، وأنّى لمثلي أن يجاريهم في هذا.

ولكن مالي ولهذا، فلعل الله أن يعينني بفضله، وبما أطلع عليه من كتاباتهم في القديم والحديث من تقديم بحث يلقى القبول لدى القائمين على الأمر، ولن أقف أردد مع الشاعر:

هل غادر الشعراء من متردم؟ أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

وأنا الآن بكل ما ذكرت أحاول أن أقيم من هذه الفكرة منهج رسالة بدأتها بمقدمة تاريخية عن إمارة الجيش، وقسمت البحث كله إلى ثلاثة أبوابٍ وخاتمة، فالباب الأول وهو بعنوان: إمارة الجيش عبر التاريخ، فيه ثلاثة فصول: الفصل الأول: وهو التعريف بإمارة الجيش لغةً واصطلاحاً، والفصل الثاني: ويشتمل على بحثين أولهما إمارة الجيش في الأمم قبل الإسلام، وثانيهما إمارة الجيش في بداية[3] التاريخ الإسلامي، والفصل الثالث: وهو بعنوان موازنة وتقدير لقواعد إمارة الجيش فيما قبل الإسلام وبعده، ويتضمن أربعة مباحث أولاها: شروط اختيار القائد، وثانيها: الاعتبارات في الاختيار ومدى نجاحها، وثالثها: القبلية والعشائرية في اختيار قادة الجيش، ورابعها: من هم قادة الجيش في الجاهلية التي جاء عليها الإسلام.

أما في الباب الثاني، وهو بعنوان إمارة الجيش في عهد الرسول والخلفاء الراشدين، ففيه أربعة فصول، أولاها: إمارة النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها بحثان: أولاهما إمارته الدينية للجيش، وثانيهما: إمارته الدينية للجيش، أما ثاني الفصول فهو إمارة الخلفاء الراشدين

من بعد الرسول للجيش، وأما ثالث الفصول فهو صلاحيات أمير الجيش الإسلامي كما أصبحت واضحة خلال هذه الفترة، وأما رابع فصول هذا الباب فهو عن مواقف الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين من أمراء الجيش.

وأما الباب الثالث، وهو بعنوان المدرسة العسكرية الإسلامية ففيه خمسة فصول، أولاها ما أضافته العسكرية الإسلامية للتاريخ العسكري في موضوع القيادة، وثانيهما: بحث تاريخي في كيفية اختيار القادة وما يتعلق بكافة شؤونها، وثالثها أمراء الجيش الإسلامي في السلم والحرب، ورابعها أمراء الجيش الإسلامي وعلاقتهم بالجند، أما الفصل الخامس: فهو صفحات مشوقة وشخصيات نادرة من قادة الجيش الإسلامي.

وأخيراً هناك الخاتمة التي تتضمن تلخيصاً قصيراً لهذا البحث أسجل فيه بعض ما يخطر بذهني من ملاحظات حول هذا الموضوع، وما أراه من إمكانيات في أمتنا في عهدها الحاضرتستطيع بها أن تواصل حمل موكب المجد الذي بناه الأوائل سيراً حثيثاً يمكّن لرسالة الله لهذه الأمة في أن تأخذ طريقها (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد)[1].

وبهذا تكون أمتنا قد حققت وعد الله سبحانه وتعالى في قوله: (كنتم خير أمة

---

(1) سورة إبراهيم: 2-3.

أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[1]، لأنّ هذا الإيمان يحتاج إلى حملة عسكريين وقادة فاتحين يرجون وجه الله لا غير، والله أسأل أن يجعله جهداً خالصاً لوجهه نافعاً لخلقه، وأن يبقى هذا العمل لي بعد انقطاع عملي في حياتي هذه، مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له) إنه سميع مجيب.

(1) سورة آل عمران: 110.

مقدمة تاريخية عن إمارة الجيش

القيادة المتميزة ترفع المعنويات والقيادة الضعيفة تحطم المعنويات ولا تقتصر القيادة على الناحية العسكرية فقط، ولو أن هذه القيادة لها (القدح المعلى) في الحرب، بل تشمل القيادة بالإضافة إلى القيادة العسكرية القيادة السياسية والقيادة الصناعية والقيادة الفكرية والقيادة العائلية، فإذا كان كل أولئك الرعاة موضع ثقة رعيتهم، فإن معنويات تلك الرعايا بخير، وإلا فاقرأ على المعنويات الفاتحة.

ولكن كيف يصبح القائد موضع ثقة رجاله؟

يجب أن ينسى نفسه لأجلهم، ويجب أن يفعل ما يقول، وينفذ أوامره على نفسه، قبل أن يطالب غيره بتنفيذها، ويجب أن يكون عالماً بواجباته، نزيهاً كل النزاهة، متمسكاً بأهداب الخلق الرفيع، حريصاً على أداء أعماله كل الحرص بأمانة وشرف، حريصاً على مصير الذين هم تحت قيادته، سريع القرار، صائبه، يتحمل المسؤولية، ولا نحاول إلقاء تبعاتها على الآخرين، يبادل رجاله حباً بحب وثقة بثقة، يعرف مزاياهم فيولي الرجل المناسب العمل المناسب، دون تحيز أو أو انحراف، له مبادئ معروفة سليمة، يؤمن بها كل الإيمان، ليست له شخصية مزدوجة يضحي بمصالحه من أجل رجاله، ولا يضحي برجاله من أجل مصالحه، لا يكلّ ولا يملّ من العمل، يساوي نفسه برجاله في حياته الشخصية ولا يستأثر دونهم بالغنم ويلقي بالغرم عليهم، له شخصية قوية نافذة، ورأي واضح سليم، وله ماضٍ مشرف مجيد، مثل هذا

القائد يسير رجاله معه حتى الموت عن طيبة خاطر ودون تردّد، ومثل هذا القائد يرفع المعنويات إلى عنان السماء، ويقود رجاله إلى النصر بسهولة ويُسر.

كان رجال خالد بن الوليد يفعلون الأعاجيب في ميدان القتال تحت رايته، ذلك لأنه كان "لا ينام ولا ينيم"، بالإضافة إلى مزاياه القيادية الأخرى وصدق الله العظيم: (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور)[1] صدق الله العظيم.

في هذه الآية الكريمة صفات القائد المنتصر، بأسلوب رائع معجز، ولكنه شامل كامل، وأشهد أنني لم أقرأ حتى في الكتب المعتمدة الحديثة بحثاً عن صفات القائد المنتصر فيه كل هذه الروعة والدقة والإيجاز والشمول[2].

هذه الصفات الأساسية الجامعة التي يجب أن تتوفر في أمير الجيش في كل زمان ومكان والتي لا غنى عنها لقائد يريد أن يكون السجل الأول للفخر والنصر لأمته ولنفسه ما مدى توافقها وانطباقها على أمراء الجيش عبر عصور التاريخ المتطاولة من يوم أن بدأ الإنسان يسجل لنفسه ويؤرخ ويبني دولة ونظاماً ويؤسس مدارس عسكرية لها ميزاتها النوعية التي تميزها عن غيرها من لدن الرومان في القديم واليونان في سحيق الأزمان إلى الفرس وأكاسرتهم والروم وقياصرتهم إلى المصريين القدماء وأسرهم بل إلى ذي القرنين الذي يذكره

---

(1) الحج:40-41

(2) محمود شيت خطاب، الاسلام والنصر، ص22-23، الطبعة الأولى، دار الفكر1972.

كتاب الله الكريم وإلى قادة بني إسرائيل في دولتهم حين طلبوا من ربهم أن يكون لهم ملك في قتالهم إلى أن كان العرب قبائل شتى اجتمعت على الحروب والمنافرة إلى أن أذن الله للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير.. إلى أن تم قيام دولة الإسلام الزاهرة بصفحاتها البيض التي لا تزال تشرق على دنيا الناس اليوم بنورها ونظمها وسمعتها واتصالها بالله رب العالمين حين يتفرق الناس اليوم في ضلالاتهم فيتيهون في وديان مجهولة لا يعودون بعدها إلى الضياء.

لقد كان الناس في أوائل أدوار تمدنهم قبائل يدافع عنها القادرون على حمل السلاح من رجالها، فإذا تهدد القبيلة خطر عسكري اجتمع رجالها بلا ترتيب ولا نظام، ثم ينال كل واحد من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة شكيمته، فلما تحضر الناس وتقاسموا الأعمال ونشأت الدول كان من أقدم المهن عندهم الكهانة والجندية.

وأول دولة نظمت الجند هي الدولة الفرعونية في مصر، فقد جندت جنداً من الزنوج والأحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد، أخضعت بهم سكان سواحل البحر الأحمر، ثم انتشر أمر التجنيد في الدول القديمة: الأشورية، والبابلية، والفينيقية، واليونانية، والرومانية، والفارسية وغيرهم.

لقد كان الفراعنة أسبق الأمم إلى تنظيم الجند، وكان نظامه عندهم هو نظام الصفوف المتعاقبة المتراصّة، والمشهور أن رمسيس الثاني هو منظم الجند المصري على النظام المعروف، أما اليونان فقد اقتبسوا نظام الجند المصري ونوعوه، فأنشأوا الكتائب، وهو أن تتراصّ الجنود صفوفاً متعاقبة، وكانت الكتيبة تتألف من أربعة آلاف رجل يصطف رجالها الواحد بجانب

الآخر على على بضعة أقدام في صفوف متعاقبة الواحد وراء الآخر، فجعلها (فيليب المقدوني) ضعفي ذلك، ثم جعلها ابنه الأسكندر أربعة أضعاف، وقارب ما بين الرجال حتى كادت تتماسّ أكتافهم وتترابط تروسهم، واصطنع لهم رماحاً طول بعضها أربعة وعشرون قدماً وفي هذا النظام تكون رماح الصفّ الأمامي قصيرة ورماح ما ورائهم أطول فأطول حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة أقدام نحو الأمام، وكان فيليب قد نظم فرقة من الفرسان، فأضاف ابنه الإسكندر إليها آلات الحرب ومن جملتها المنجنيق، وبهذا النظام تغلب الإسكندر على العالم في القرن الرابع قبل الميلاد(1).

والإسكندر هذا كان أبوه أحد ملوك اليونان، ويقال له (فيلبس) أيضاَ وكان اليونان طوائف فلما ملك الإسكندر غزاهم واجتمع له ملكهم ثم غزا (دارا) ملك الفرس وقتله ثم غزا الهند وتناول أطراف العين، ثم انصرف الإسكندر يريد الإسكندرية وهو الذي بناها فهلك في ناحية السداد، وقيل بشهرزور وكان عمره ستاً وثلاثين سنة، وقد قيل عنه أنه انصرف من المشرق إلى جهة الشمال وبنى السد على يأجوج ومأجوج، والصحيح أن الإسكندر المذكور لم يكن منه ذلك، بل ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن الكريم وهو ملك قديم كان على زمن ابراهيم الخليل عليه السلام، قيل إنه أفريذون، وقيل غيره، وقد غلط من ظن أن باني السد هو الإسكندر الرومي، وكذلك قد استفاض على ألسنة الناس أن لقب الإسكندر المذكور ذو القرنين، وهو أبضاً غلط فإن لفظة ذو لفظة عربية محضة وذو القرنين من

---

(1) قادة فتح الشام ومصر، محمود شيت خطاب، دار الفكر، ص20-21.

ألقاب الحرب ملوك اليمن، وكان منهم ذو جدن وذو كلاع وذو نواس وذو شناتر وذو القرنين الصعب ابن الرائش واسم الرائش الحرث بن ذي سجج بن عاد ابن الماطاطا ابن سبأ، وقد قيل إن ذا القرنين الصعب المذكور هو الذي مكن الله له في الأرض وعظم ملكه وبنى السدّ على يأجوج ومأجوج، وما نقله ابن سعيد المغربي أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن ذي القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز، فقال: هو من حمير[1].

ولما نشأت دولة الروم اقتبست نظام الكتائب عن اليونان وأدخلته في جندها، وكان الجيش الروماني في إبان الدولة مؤلفاً من فرق عدد رجال كل منها ستة آلاف رجل تتألف من ثلاث طبقات من المقاتلين: الشباب، ومنهم يتألف الصف الأول من الكتيبة في الحرب، والكهول في الصف الثاني، وأهل الدربة والحنكة ويتألف منهم الصف الثالث.

ولما ظهر الإسلام كانت جنود الروم يقود كل عشرة آلاف منها قائد يغلب أن يكون بطريقاً، وبإمرة البطريق ضابطان يسمى (طومرخان) يتولى قيادة خمسة آلاف جندي، ويأمر كل (طومرخان) خمسة ضباط مرؤوسين (طرنجاريه) كل واحد يقود ألف رجل وبإمرة كل ضابط من هؤلاء خمسة ضباط مرؤوس أيضاً (قومس) يتولى كل واحد منهم قيادة مئتي جندي وبإمرة كل ضابط من هؤلاء ضباط صفّ (قمطرح) وبإمرة كل واحد منهم عشرة رجال.

ولقد كان الجيش الروماني مرتكزاً على الحكم الإقطاعي، وذلك أن كل بطريق (نبيل) يعد قائداً لجماعته، وكان هؤلاء النبلاء يمنحون الأراضي والعقارات الشاسعة للقيام بإعاشة

(1) تاريخ أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، الجزء الأول، ص45، طبعة دار المعرفة بيروت.

أتباعهم، وقد أدى ذلك إلى حروب داخلية بين النبلاء الذين هم قادة الجيش، ويؤخذ من رسالة (فيجيتيوس) في علم الحرب أن نظام الجيش الرماني في الغرب والشرق كان قد تعاوره الخلل قبل ظهور الإسلام بأكثر من قرنين، فقد قال: "إن الجيش الروماني قد وهن واضمحل"، ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله "أن مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وقفاً على الكفاءة والخدمة الطويلة".

أمّا في فارس، فقد كان الجيش خاضعاً لقائد عام واحد، ولكن سيطرة هذا القائد كانت أوسع من سيطرة قائد الجيش بالمعنى الحديث، فقد كانت وظيفته تشمل أعباء ثلاثة: وزارة الحرب وقيادة الجيش العليا، والقيام بمفاوضات الصلح، وكان من مزايا القواد أن يدخلوا المعسكرات على صوت الطبل.

ولقد كان أكبر الألقاب العسكرية وهو لقب (أرجبذ) وراثياً في الأسرة المالكة، وأن وظيفتين عسكريتين أخريين، وهما رئيس شؤون الجيش وقائد الفرسان، كانتا كذلك وراثتين في أسرتين من الأسر الكبيرة.

وفي المعركة إذا لم يكن الملك حاضراً، وكان قاد الجيش هو الذي يتولى المعركة فإنه يجلس على العرش ويوضع وسط الجيش ويلتف حول العرش الخدم والحاشية وفرقة من الجند وقد رفعت الأعلام في أركان العرش وخلف هذه الأعلام يقف حرس من الرماة والرجل، ومن فوق عرش كهذا قاد رستم معركة القادسية.

ولقد كان يشترط في القائد أن تتوفر فيه المزايا الضرورية لإدارة القتال والقدرة على وضع الخطط والنظرة السليمة والإلمام بحالة جيشه ودقة سلوكه، وعليه أن يعرف مزايا

وحدات جيشه، وقابلية كل واحدة منها، وعليه ألا يبدي غضبه يوم المعركة، ولا يتخذ عملاً يوقع الخوف في نفوس جنده، ويجب أن يرتبط الجندي بأخيه بميثاق المحبة، ويجب أن يطيع الجنود قائدهم طاعة عمياء، وعلى القائد أن يشجع جنده يوم المعركة حتى لا يبالوا بالموت وعلى القائد أن ينصح عدوه قبل المعركة بأن يخضع للشاهنشاه وأن يؤمن بدين زرادشت، وأن يدعو اللحرب بالمبارزة بين رجل ورجل.

على كل حال فقد كان هذا الجيش مرتكزاً على الحكم الإقطاعي فكان المرازبة والدهاقين يتولون قيادته يتحكمون في الأراضي والعقارات الشاسعة للقيام بإعاشة رجالهم وكانت قيادته وراثية غالباً، وكان قادته يعتمدون على حسبهم ونسبهم وحظوتهم لدى الأكاسرة لا على مواهبهم العسكرية وكفائتهم في القتال[1].

وهكذا، فإنّ التاريخ القديم كلّه على اختلاف جهاته وأزمانه يشهد كلّه على أن قيادة الجيوش في كلّ الأزمان لم تكن بذات قاعدة ثابتة مرسومة يسير على هديها العالمون، بل كانت خاضعة في أكثر الأحيان لتدخل الملوك والرؤساء إذا لم يكونوا هم القادة بالفعل، وذلك كي يحققوا هدفاً من أهدافهم الشخصية في أشخاص أقربائهم أو من يقدمون لهم خدمة في مجال معين.

وإن الحروب الكثيرة التي قامت قبل الإسلام تؤكد اعتماد القيادات في معاركها على الكثافة في الجند والعتاد، فالإسكندر المكدوني خرج من بلاده في أول غزوة له تحت قيادته

---

(1) قادة فتح بلاد فارس، محمود شيت خطاب، دار الفكر، الطبعة الثالثة 1974، ص50.

أربعون ألفاً من المقاتلين، ويشكلون الكتائب المتراصّة المسمّاة (فلانكس) وكانوا مسلحين والدروع على أذرعهم، ويحملون رماحاً طول الواحد ستة عشر قدماً، وفي رؤوسها حراب من حديد، وحين قرر هانيبال الزحف إلى روما وصل جيشه إلى خمسين ألفاً من الرجال وأربعين فيلاً، وكانت هذه هي أول مرة تجتمع فيه بصعيد واحد هذه الجموع الزاحفة كجيش، حتى إن خصومه اعترفوا بعظمة جيشه قائلين: لقد ظل ستة عشر عاماً محتفظاً بقواته فلم يسرحها أو يبعدها عن (...)، وبالرغم من تجميعه لهذه القوات فقد وفق في أن يسيطر على هذا الجيش اللجب العرمرم، ومن أجل أن يكون جيشه كثيراً جداً حشد أكبر عدد من المقاتلين من شعوب متعددة وأجناس مختلفة، وقد ذكر المؤرخ (هارولد لامب) أن ضباط هانيبال كانوا يطوفون برسالة منه يقرؤونها على الناس يقول فيها: ستحصل كافة العشائر التي تشترك في هذا الجيش على الميزات نفسها التي ينعم بها القرطاجيون، وسيسترد العبيد الذين يصحبون سادتهم حريتهم، وسيدفع هانيبال ثمن هذه الحرية لسادتهم.

وعلى هذا الدرب سار القادة في جميع الأزمنة، فكان همهم الأول بل الأكبر هو حشد أكبر عدد من المقاتلين يخوضون بهم غمار المعارك، ويواجهون بهم أعداءهم[1].

وربما يتبادر إلى الأذهان أن القيادة في العصور الغابرة كانت سهلة التكاليف بالنسبة للقيادة في الحرب الحديثة لقلة عدد القوات حينذاك بالنسبة إلى ضخامة عددها وكثرة أسلحتها ووسائلها في الجيوش الحديثة، ولكن العكس هو الصحيح.

---

(1) المدرسة العسكرية، الإسلامية، محمد فرد، دار االفكر العربي، ص32.

إنّ مهمة القائد في العصور السابقة (الغابرة) كانت أصعب من مهمته في العصر الحديث، لأن سيطرة القائد ومزاياه الشخصية كانت العامل الحاسم في الحروب القديمة، بينما يسيطر القائد في الحرب الحديثة على قواته الكبيرة بمعاونة عدد ضخم من ضباط الركن الذين يعاونونه في مهمته ويراقبون تنفيذ أوامره في الوقت والمكان المطلوبين، كما يسيطر القائد على قواته بوسائل المواصلات الداخلية الدقيقة من أجهزة لاسلكية وسلكية، ورادار وطائرات، وأقمار صناعية ووسائل آلية، بل إن هيئات الركن مسؤولة حتى عن تهيئة خطط القتال قبل الوقت المناسب، ولا يقوم القائد إلا بمهمة الإشراف على التنفيذ، إن القائد في الحرب الحديثة يحتاج إلى العقل وحده، والقائد في الحرب القديمة يحتاج العقل والشجاعة[1].

ولقد ظلّ الحال في الجيوش القديمة وقياداته في اعتمادها في معاركها على الكثرة العددية حتى قامت المدرسة العسكرية الإسلامية، فنظرت إلى الحرب نظرة جديدة، وجاء القائد الرسول عليه الصلاة والسلام فاهتم بالفرد كمحارب ومن هذا قامت النظرية الجديدة التي تعتمد على الكيف دون الكمّ، أعني على نوع الرجال لا على عددهم.

وحيث إن القيادة ظاهرة اجتماعية ذات جذور عميقة تتصل بطبيعة الإنسان وتراثه الثقافي ومشاركته لمن حوله في مجتمعه، فالوجود المشترك لشخصين أو أكثر يخلق نوعاً من الحاجة إلى من ينظم العلاقات القائمة بينهم وفي هذه الحالة يتولى أحدهم القيادة وهكذا يرى علم النفس أن طبيعة الحياة تجعل من حاجتها إلى قادة أمراً لا بد منه، وأنه لا تكون جماعة إلا

---

(1) الرسول القائد، محمود شيت خطاب، دار الفكر، الطبعة الخامسة، ص10-11.

ويجب أن يكون لها قائد.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائد جيش الإسلام الأول قد قرر هذا المبدأ محدداً واضحاً حين قرر ضرورة وجود قائد للجماعة حتى ولو كانت صغيرة جداً، فقال عليه الصلاة والسلام: "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم".

وليس الأمر هنا بحثاً في وجوب الإمارة أو عدمه، فإن وجوبها أمر لا يتجادل فيه اثنان، ولا تتناطح فيه عنزان، وقد عقد الإمام الماوردي فصلاً واسعاً فصيحاً في الإمامة التي هي موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع، وإن شذّ عنهم الأصم، ثم يستطرد فيقول: واختلفوا في وجوبها هل وجبت بالعقل أو بالشرع؟ فقالت طائفة: وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولولا الولاة لكانوا فوضى مهملين وهمجاً مضاعين، وقد قال الأفوه الأودي وهو شاعر جاهلي (من البسيط):

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم	ولا سراة إذا جهلوا سادوا

وقالت طائفة أخرى: بل وجبت بالشرع دون العقل، لأن الإمام يقوم بأمور شرعية قد كان مجوزاً في العقل أن لايرد التعبد بها، فلم يكن العقل موجباً لها، وإنما أوجب العقل أن يمنع كل واحد نفسه من العقلاء عن التظالم والتقاطع ويأخذ بمقتضى العدل في التناصف والتواصل فيتدبر بعقله لا بعقل غيره، ولكن جاء الشرع بتفويض الأمر إلى وليه في الدين قال الله عز وجل:

"يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"[1].

ففرض الله علينا طاعة أولي الأمر فينا وهم الأئمة المتأمرون علينا، وروى هشام بن عروة عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "سيليكم بعدي ولاة فيليكم البر ببره ويليكم الفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق، فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساءوا فلكم وعليهم"[2].

ثمّ يعقد فصلاً يقول فيه: وإذا تمّهد ما وصفناه من أحكام الإمامة وعموم نظرها في مصالح الملة وتدبير الأمة، فإذا استقرّ عقدها للإمام انقسم ما صدر عنه من ولايات خلفائه أربعة أقسام، فالقسم الأول من تكون ولايته عامة في الأعمال العامة وهم الوزراء، لأنهم يستنابون في جميع الأمور من غير تخصيص، والقسم الثاني من تكون ولايته عامة في أعمال خاصة وهم أمراء الأقاليم والبلدان، لأن النظر فيما خصوا به من الأعمال علم في جميع الأمور، والقسم الثالث من تكون ولايته خاصة في الاعمال العمة وهم كقاضي القضاة ونقيب الجيوش[3]، وحامي الثغور ومستوفي الخراج وجابي الصدقات، لأن كل واحد منهم مقصور على نظر خاصّ في جميع الأعمال، وهذا القسم الثالث هو الذي يدخل فيه موضوعنا إمارة الجيش.

إذن، فلا مجال للمشاحنة في أمر وجوبها، والتاريخ يتحدث لنا في كل صفحاته عن

---

(1) النساء، 59.

(2) الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي- الطبعة الثالثة- الحلبي، ص5.

(3) االأحكام السلطانية للماوردي، ص21.

الجيوش المحاربة والمدافعة في أشخاص قادتها فقط فكأنهم هم الجيش بكليته وكأنهم هم سبب النصر والهزيمة، لذلك فإن ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا في الحرب العالمية الثانية كان يقول: "إن شخصية القائد في نظري هي كل شيء في الحرب وهي الروح التي تحارب بها الجنود، وهي السلاح الذي يضربون به، وهي المنهج الذي يستمدون منه قوتهم وإيمانهم بالنصر"[1].

وعلى ذلك كله، فتاريخ الحرب في العالم هو سيرة لقادة الحرب في كل النواحي، وإنما الذي تغير هو الكثير من الصفات المؤهلة للقادة وأنواعهم ومقدار تمرسهم على التطبيق الجيد للعقيدة الإسلامية التي غدت هداهم الذي به يهتدون في تعاملهم مع الأمم المغلوبة ومع مصالح أنفسهم ومع من تحت إمرتهم من الجنود.

وبقي الحال في الغرب الأوروبي على نسق ما كان عليه الرومان من نظرتهم إلى القيادة، فقد كتب إيريك موريز في كتابه مدخل إلى التاريخ العسكري تعريب آدم ديري والمقدم الهيتم الأيوبي كتب يقول: "كتب كلاوز فيتز يقول": "إن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى، وبهذا الشكل نرى أن الحرب لا تغدو عملاً فحسب، بل إنها تغدو أداة الساسة ذاتها، وإن هذه السياسة باستعانتها بهذه الأداة على الدوام لا تفعل شيئاً سوى متابعة أهدافها بوسائل أخرى، وبما أنه في هذه الشروط، لا تحتفظ الحرب أبداً إلا بالوسائل

---

(1) المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية، اللواء محمد جمال الدين محفوظ- البيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1976 ،هامش ص288.

الخاصة بها من طابعها الغريب. فالفنّ العسكري والقيادة العامة في كل حالة خاصة يملكان الحق في مطالبة السياسة بأن لا تناقض الاتجاه الذي تتبعه والنتائج التي تستهدف الحصول عليها مع وسائل الأداة التي تستخدمها.

وهذه المبادئ البسيطة تثير عدة مجموعات من المعضلات العسكرية السياسية ومعضلات خاصة بالظروف وتستند المعضلة العسكرية على تقسيم التكتيك والاستراتيجية ويحل نابليون هذه المعضلة كما يلي: لا يمكن تغطية القائد العام بأمر من وزير أو أمير بعيد عن ساحات العمليات ويعرف بصورة سيئة أو لا يعرف آخر وضع لقوات قائده.

1. فكل قائد عام أخذ على عاتقه تنفيذ خطة يرى أنها خطة سيئة أو تؤدي إلى نكبة من النكبات تنفيذاً لأوامر عليا تلقاها، عبارة عن مجرم من المجرمين، فعليه أن يسعى بكل الوسائل وبمزيد من الإلحاح والإصرار لتبديلها، فإن تعذر ذلك كان عليه في نهاية الأمر أن يقدم استقالته بدلاً من أن يكون أداة لتدمير رجاله.

2. إن القائد العام هو الضابط الأول في سلم التسلسل العسكري، فالوزير والأمير يعطيان تعليمات يترتب عيه التقيد بها روحاً وضميراً، إلا أن هذه التعليمات لا تشكل أبداً أوامر عسكرية ولا تتطلب طاعة سلبية إلا عندما تعطى من ضابط أعلى اطلع على الوضع الراهن، ثم أعطاها وهو يعيش لحظات هذا الأمر، ويستطيع بالتالي أن يسمع الاعتراضات عليه، وأن يعطي التفسيرات الضرورية لمن أوكلت إليهم مهمة تنفيذ هذا الأمر.

فالمسألة إذن هي معرفة الفرق ما بين التعليمات المخصصة لإدارة الحرب

والأوامر العسكرية، وفي حالة هذه التعليمات معرفة ما يجعل المعرفة بالوضع الراهن مطلوبة من السياسة، ويجب في النهاية أن نفهم معنى سخرية كليمنصو: "إن الحرب أمر كثير الجدية بشكل لا يسمح لنا بأن نتركه للعسكريين وحدهم"، وقد علق الجنرال ويقول على هذه الكلمة قائلاً: "إن الحرب شيء كثير الجدية بشكل لا يسمح لنا بأن نتركه للسياسيين وحدهم"[1].

وهكذا كانت إمارة الجيش على مدار التاريخ موضوعاً خاضعاً لتقلبات الزمان والسلطان ترتفع أحياناً وتسفل في الأخرى عندما تخرج عن حقائقها إلى حقائق الناس الآخرين.

---

(1) مدخل إلى التاريخ العسكري – ايريك موريز-رترجمة ديري وأيوبي.

الباب الأول

إمارة الجيش عبر التاريخ

الفصل الأول: التعريف بإمارة الجيش لغةً واصطلاحاً.

الفصل الثاني: إمارة الجيش في الأمم قبل الإسلام وفي بداية التاريخ الإسلامي.

الفصل الثالث: موازنة وتقدير لقواعد إمارة الجيش فيما قبل الإسلام وحده.

الباب الأول

إمارة الجيش عبر التاريخ

إنّ تاريخ البشر على هذه الأرض من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا لم يسجل كثيراً ولم يكترث بتقييد سوى حوادث قليلة وصغيرة تخرج عن صحفتي التاريخ المعروفتين فالصفحة الأولى كلها سجلات زعامة دنيوية (تبغي) فرض السلطان بالقوة على من حولها من البشر، وهذه هي الرئاسة الأولى التي يرى فيه فرعون أنه "ما علمت لكم من إله غيري" هكذا عملنا جهاراً نهاراً بلا مواربة ولا دوران، فكأن قول الفلاسفة القديم هو أن مشكلة الإنسان على ظهر هذه الأرض هو أن يقتنع ويعترف بأنه في المرتبة الثانية في الوجود، لكأن هذه المشكلة تبدو صحيحة وواقعية من حيث تصديق التاريخ لها، فكم خرج لنا من بين صفحات التاريخ من يدعي أنه في المرتبة الأولى وأن أمثاله من الشرّ دونه في المرتبة، حتى وإن حاول بعضهم أن يخفف من غلوائه فيدعي أن الدم الإلهي يسري في عروقه أو أنه من نسل الآلهة ليثبت أمام الرعاع أنه صاحب الحق الذي لا يناقش في أن يكون متعبداً له في الأرض.

هذه الصفحة التي تشغل نصف التاريخ كانت تستعمل كل الأدوات لإثبات حقها وشرعيته، وكانت أهم هذه الأدوات الأداة العسكرية التي كانت الفيصل النهائي في مناقشة الخصوم لتريح نفسها من عناء الناقشة وإظهار الدليل المقنع.

أما الصفحة الثانية من صفحات التاريخ، فكانت العسكرية وقياداتها بكل ما فيها من

(علوم) ودماء وعلو وهبوط والتزام بالإنسانية أو انعتاق من قيودها، فلقد كانت العسكرية البحتة تثير جدلاً دموياً في الأحيان الكثيرة من غير هدف معلوم او مصلحة يكون من آثارها نفع الإنسانية أو تقديم معونة لها على الاستمرار في تمتعها بمباهج الحياة، فعندما اجتاح الإسكندر بجحافله العالم المعروف حينذاك كان شاباً يافعاً لم يسترح ولم يرح ولم يغنم من انتصاراته راحة لبدنه أو مصلحة لشخصه يحققها، بل سرعان ما انطوى علمه وأفل نجمه دون أن (يمضي) السنين الطوال يتمطى متمتعاً بما تحقق له من مجد، وكذلك التتار حينما اجتاحوا الدولة الإسلامية فلست أتصورهم إلا لصوص ليل همهم تحصيل شيء في عتمة، ثم لا يمهلهم الليل حتى الصباح إلا وقد فاجأهم مفاجئ فوأدهم وما جمعوا ولم يبق من بطولاتهم - كما يدعونها – سوى صفحات من التاريخ ممزقة مغطاة بالدماء المهراقة على أصنام الشيطان.

من هذا يبدو أن إمارة الجيش عبر التاريخ كانت تمثل هذا النصف بكامله ونصف النصف الأول على أقل تقدير، فلا غرو إذن أن يمالئ التاريخ زبانيته فيهبهم صفحاته يسجلون فيها ما يشاؤون، بل يفرضون نوع التاريخ ولون صفحاته ونوع كتاباته بعيداً عن الحق الصحيح أو الحقيقة المطلقة التي ضاعت منذ بدأ التاريخ يدعي أنه يسعى لإظهارها وإثباتها.

ويقول أبو الفداء في المختصر في أخبار البشر: إنه ينبغي لمتأمل التواريخ القديمة أن يعلم أن الاختلاف فيها بين المؤرخين كثير جداً، قال ابن الأثير في ذكر ولادة المسيح: إن ولادته عليه السلام كانت بعد خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر عند المجوس، وأما عند النصارى فكانت ولادته بعد ثلاثمائة وثلاث سنين من غلبة الإسكندر، وهذا تفاوت فاحش،

وكذلك عند أبي معشر وكوشيار وغيرهما من المنجمين، إن بين الطوفان والهجرة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمساً وعشرين سنة، وهو الثابت في الزيجات مثل الزيج المأموني وغيره.

وأما المحققون من المؤرخين فيقولون إن بين الطوفان وبين الهجرة ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربعاً وسبعين سنة، فيكون التفاوت بينهما مائتين وتسعاً وأربعين سنة، وسبب هذا الاختلاف أن من هبوط آدم إلى وفاة موسى لا يعلم إلا من التوراة، والتوراة مختلفة على ثلاث نسخ، سنقف على ذلك إن شاء الله تعالى، وأما ما بين وفاة موسى عليه السلام إلى ابتداء ملك بختنصر، فيعلم من المنجمين إلى آخر ما ذكر، ثم يقول: وأما ما يؤرخ عن المؤرخين قبل الإسلام فهو أيضاً مضطرب، لأنهم كانوا يؤرخون من ابتداء ملك كل من يتملك منهم، فكثرت ابتداءات تواريخهم، قال حمزة الأصفهاني: وفسدت تواريخهم بسبب ذلك فساداً لا مطمع في إصلاحه.

مع ما انضم إلى ذلك من بعد العهد وتغير اللغات كقدم الكتب المؤلفة في هذا الفنّ، فصار تحقيق التواريخ القديمة بسبب ذلك متعذراً أو في غاية التعسر.

إنني وأنا أرتجف إجلالاً لما كتب أبو الفداء أكبر فيه هذه البراءة التامة والحياد الموضوعي إزاء موضوع كثرت فيه الأراجيف، وعميت فيه الدروب، فما يعرفها سالك ولا يميزها طارق، فأقول: إن التاريخ الذي تذكر من علل فساده ما ذكرت هو غير التاريخ الأرضي الذي كتب صفحاته الظالمون بالحقد والدماء والعذاب والألم والقسوة والفظاعة في كل صورها الهابطة، إن التاريخ القديم والوسيط والحديث وتاريخ الأمس القريب هو تزوير وتحريف وتقتيل لكل الحقائق البسيطة والحقوق الأصلية لبني الإنسان.

وعلل فساد هذا غير علل فساد ذاك، ولكم يستطيع الباحثون أن يجدوا في الأول مراغماً كثيراً وسعة قد يستطيعون من خلالها إظهار بعض النور، ولكن في (الثاني) هيهات أن يستطيع كاتب أو مؤرخ أو أديب أو إنسان على إطلاقه أن يفعل إزاءه أي شيء إنه مؤامرة محاكة مدبرة بكل خيوطها بعقول من حديد لا تعرف إلا التآكل والصدأ، هذه العقول قد طمست إنسانيتها وانبحثت من بين جوانحها بهيميتها، فما انساحت في الأرض حتى أتت على خيرها وبراءاتها وإنسانها من الجذور العميقة.

هذا التاريخ هو إفك الأفاكين وافتراء المفترين وفساد المفسدين ودمار العالمين ونسج الشياطين.

الفصل الأول

التعريف بإمارة الجيش لغةً واصطلاحاً

جاء في القاموس المحيط للفيروزابادي ما يلي:

الأمر: ضد النهي كالإمارة والإيمار بكسرهما والآمرة على فاعلة: أمره به وآمره فأتمر، والحادثة جمع أمور، وصدر أمر علينا مثلثة إذا ولى، والاسم الإمرة بالكسر، وقول الجوهري مصدر (وهم)، وله على أمره مطاعة بالفتح للمرة منه، والأمير الملك، وهي بهاء بين الإمارة وبفتح جمع أمراء، وقائد الأعمى والجار والمشاور والمؤمر كمعظم الملك والمحدد والموسوم، والقناة إذا جعلت فيها سناناً والمسلط، وأولو الأمر: الرؤساء والعلماء.

وجاء في أساس البلاغة للزمخشري:

أمر: إنه لأمور بالمعروف نهو عن المنكر، وأمرت فلاناً أمره: أي أمرته بما ينبغي له من الخير، قال بشر بن سلوه:

ولقد أمرت أخاك عمراً أمره   مفصى وضيعة بذات العجرم

وقال دريد بن الصمة:

أمرتهمو أمري بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا الرشد إلا في ضحى الغد

أي ما ينبغي لي أن أقوله، وأمر أمر أي عجيب، وأتمرت ما أمرتني به: امتثلت وفلان مؤتمر أي مستند، يقال فلان لا يأتمر رشداً، أي لا يأتي برشد من ذات نفسه، قال: ويعدو على

المرء ما يأتمر.

وتقول: أمرته فأتمر وأبى أن يأتمر، أي استبدّ ولم يمتثل، وبآمر القوم وائتمروا، مثل تشاوروا واشتوروا. ومرني بمعنى أشر عليّ، قال بعض فتاكهم:

ألا ترى أني لا أقول لصاحب　　إذا قال مرني ائت ما شئت فافعل

ولكنني أفري له فأريحه　　ببزلاء تنجيه من الشكّ فيصل

وتقول: فلان بعيد من المئمر قريب من المئبر، وهو المشورة مفعل من المؤامرة، والمئبر النميمة، وهو أميري: أي مؤامري، وفلانة مطيعة لأميرها: أي لزوجها ورجل أمره يقول لكل أحد مرني بأمرك، وأمر علينا فلان فنعم المؤمر ويتأمر علينا فحسنت إمرته.

وجاء في مختار الصحاح للرازي:

الأمير ذو الأمر، وقد أمر بأمر بالضم إمرة بالكسر: صار أميراً، والأنثى أميرة بالهاء وأمر أيضاً يأمر بضم الميم فيهما إمارة بالكسر أيضاَ وأمره تأميراً جعله أميراً، وتأمر عليهم تسلط.

وفي الجملة، فإنّ أصل الفعل وما اشتقّ منه وبني عليه يتضمن معنى التسلط والخروج عن المعنى البسيط المادي لما سواه من الأفعال، وهكذا الإمارة فإن فيها زيادة مؤهلات ومواهب من لدن خالق الناس لبعضهم يغذوها هذا البعض بشيء من العلم والحلم والحكمة فإذا هو شيء فريد نسيج وحده يستحق مثل هذا الموضع الشريف.

فالإمارة امتياز لنوع من الناس يستحقونه بجهد وموهبة وحقّ لهم ذلك، وفيما زور المؤرخون الكثير من الأمراء ممن لا كفاءة لهم ولا أهلية في شرع أو قانون ولكن غياب الشرع

والقانون واختلال الموازين حكم بأن يكون للغمر استعلاء وظهور، وهذا من مقدمات الساعة وأشراطها، والله أعلم.

وبهذا يكون معنى الإمارة في اللغة: الاستيلاء والتسلط والرئاسة.

أما المعنى الاصطلاحي لإمارة الجيش:

عرف الماوردي[1] بقوله: والإمارة على الجهاد مختصة بقتال المشركين.

وهي على ضربين: أحدهما أن تكون مقصورة على سياسة الجيش وتدبير الحرب، فيعتبر فيها شروط الإمارة الخاصة. والضرب الثاني: أن يفوض إلى الأمير فيه جميع أحكامها من قسم الغنائم وعقد الصلح، فيعتبر فيها شروط الإمارة العامة، وهي أكبر الولايات الخاصة أحكاماً وأوفرها فصولاً وأقساماً وحكمها إذا خصت داخل في حكمها إذا عمّت، فاقتصرنا عليه إيجازاً، والذي يتعلق بها من الأحكام إذا عمت ستة أقسام سيجري ذكرها في موضعها من البحث إن شاء الله.

وهذه الولاية هي إحدى الولايات المساعدة التي يعقدها الإمام لمن يراه أهلاً لها، وذلك لأنّ ما وكّل إلى الإمام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جميعه إلا باستنابة[2]، فلا بدّ لهم من أعوان ومساعدين يحملون معهم أعباء الحكم ويديرون معهم شؤون البلاد كالوزراء والأمراء وقادة الجيوش والعمال وأصحاب الدواوين وولاة القضاء من من المظالم والحسبة

---

(1) الأحكام السلطانية للماوردي، ص35.

(2) المرجع السابق، ص22.

وغير هؤلاء كثير وهم بلغة اليوم "الموظفون"، سيما أن مهام الحكم تحتاج إلى تخصص ودراية ولا بدّ من توزيعها على أهلها الأكفاء للقيام بها على وجهها الصحيح.

وفكرة حاجة الإمام إلى الأعوان والمساعدين لا تحتاج إلى برهان، ولكن العلماء المؤلفين بحثوها، فقال ابن خلدون(1): اعلم أنّ السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً، فلا بدّ له من الاستعانة بأبناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه، فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده، وهو محتاج إلى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم وإلى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم، بإمضاء الأحكام الوازعة فيهم وكف العدوان عليهم في أموالهم بإصلاح سابلتهم وحملهم على مصالحهم وما تعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم.

وقد ورد مثل هذا القول على لسان محمد ضياء الدين الريس(2)، فقال: ولا يتصور بل إن هذا من المستحيل عملياً أن يباشر الإمام ويتصرف في كل تلك الشؤون بنفسه، فلا معدى له إذن عن الإنابة، ولا بد له من أعوان وعمال يتعهد إليهم بتأدية الوظائف المتعددة التي أقيمت الدول من أجل أن تؤدى.

ومثل ذلك قال محمد يوسف موسى(3): المسؤول الأول أمام الله والأمة والتاريخ عن شؤون الأمة هو الخليفة باعتباره رئيس الدولة، ولكنه طبعاً ليس من الممكن أن يتولى بنفسه

---

(1) المقدمة، ص167، مطبعة عبد الرحمن محمد.

(2) النظريات السياسية الإسلامية، ص210.

(3) نظام الحكم في الإسلام، ص128،ط2/ 1964دار الحمامي للطباعة بالقاهرة.

كل أمر من أمورها، بل من الضروري أن يكون له نواب وولاة وقواد للجيش وقضاة إلى غير ذلك يعينونه على ما هو بسبيله من إدارة أمور الدولة والأمة على خير حال.

وأكد ذلك الدهلوي[1] بقوله: "لما كان الملك لا يستطيع إقامة هذه المصالح كلها بنفسه وجب أن يكون له بإزاء كل حاجة أعوان ومن شرط الأعوان الأمانة والقدرة عل إقامة ما أمروا به وانقيادهم للملك والنصح له ظاهراً وباطناً وكل من خالف هذه الشريطة فقد استحق العزل، فإن أهمل الملك عزله فقد خان المدينة وأفسد على نفسه أمره، وليس للأعوان حصر في عدد، لكنه يدور على دوران حاجات المدينة، فربما تقع الحاجة إلى اتخاذ عونين في حاجة واحدة، وربما كفى عون لحاجتين، غير أن رؤوس الأعوان خمسة: القاضي، وأمير الغزاة، وسائس المدينة، والعامل، والوكيل".

وقد دلت بعض آيات القرآن الكريم على ضرورة الأعوان ومشروعية الحاجة إليهم، فقال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: (واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً، قال قد أوتيت سؤلك يا موسى)[2] وقال سبحانه: (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً)[3].

وكذلك جاء في الحديث الشريف عن عروة بن الزبير بن العوام: "أن مروان بن

---

(1) حجة الله البالغة، ج1،ص96، طبعة دار الكتب.

(2) سورة طه،29 -37.

(3) الفرقان، 35.

الحكم والمسور بن مخرمة أخبراه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - حين أذن له المسلمون في عتق سبي هوازن – إني لا أدري من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم"[1]، وفي شرحه يقول القسطلاني: وفيه كما قال ابن بطال مشروعية إقامة العرفاء، لأن الإمام لا يمكنه أن يباشر جميع الأمور بنفسه، فيحتاج إلى إقامة من يعاونه ليكفيه ما يقيمه فيه.

---

(1) رواه البخاري – إرشاد الساري.

الفصل الثاني

إمارة الجيش في الأمم قبل الإسلام

إن التاريخ القديم في جملته لم يذكر لنا شيئاً واضحاً عن مفهوم إمارة الجيوش منفصلة عن الملكية والحكم، أي إن قائد الجيش في التاريخ القديم هو الإمبراطور أو الملك أو الحاكم يعاونه أناس آخرون ليس لهم في صفحة التاريخ هذه الميزة المنفردة التي تجعل من سلوكه تاريخاً منفصلاً عن الحاكم.

فممّا لا شكّ فيه أن كل قائد أو ملك أو إمبراطور في القديم سجله التاريخ وذكر لنا أطرافاً من حياته كان يستعين بقادة يعينونه على تحمل مسؤولية قيادة المعارك الصغيرة أو يتولون قيادة الكتائب في المعارك الكبيرة، ولكن المهمّ في هذا أن هؤلاء القادة لم يكونوا سواء في قياداتهم أو أفكارهم أو إيمانهم العسكري بمنفصلين عن رأي الملك، وذلك لأنه عنه وحده تصدر الأوامر وبرأيه وحده تنفذ، وإذا ما نجحت تلك الحملة العسكرية فله وحده يسجل انتصارها ولخزينته وحدها تجبى الغنائم والأموال، ثم هو يوزع ما يشاء ويمنح ما يشاء.

ففي التاريخ القديم ذكر لبني إسرائيل وحروبهم وفتوحهم البلدان، ولقد كان قادتهم هم الأنبياء المرسلين أو ملوكهم، أما قادة الجيش انفصالاً عن الملكية فهو مقطوع الذكر ولا يعرف في التاريخ إلا قليلاً.

وعندما عدد ابن الأمير في تاريخه الكامل أخبار بني إسرائيل كان الأنبياء والملوك هم

الذين يقودون الجيش ويعزى لهم النصر أو الهزيمة ولم يذكر قائد جيش واحد بتاريخ منفصل له مقومات القيادة فقط دون الملك، وليس أدل على ذلك من قول الله تعالى في سورة البقرة: "ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين"[1].

وقد ورد في تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل في تفسيره لذلك ما يلي: ألم تر إلى الملأ وهم القوم "الشارة والتجمع" من بني إسرائيل من بعد موسى، إذ قالوا لنبيّ لهم: "إنما نكر لعدم مقتض لتعريفه، وزعم الكتابيون أنه صموئيل "ابعث لنا ملكاً" أرى أقم لنا أميراً "نقاتل" أي معه عن أمره "في سبيل الله "وذلك حين ظهرت العمالقة قوم جالوت على كثير من أرضهم"[2].

ثم روى عن بعض مفسري الزيدية أن من ثمرات هذه الآية الكريمة أنها دلت على أحكام الأول: وجوب الجهاد، والثاني: أن الأمير يحتاج إليه في أمر الجهاد لتدبير أمورهم[3]، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية أمر عليها أميراً، والثالث وجوب طاعة الأمير في

---

(1) سورة البقرة، 246.

(2) محاسن التأويل للقاسمي – طبع محمد فؤاد وعبد الباقي- ص641-642.

(3) أخرجه أبو داود في 15 :كتاب الجهاد، 82 باب في دين المشركين حديث2162 وفي هذا الحديث وصيته عليه السلام القيمة لأمير.

أمر السياسة وتدبير الحرب.

أما الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ففي تفسيره لهذه الآية[1] لم يفسر معنى قوله ملكاً بالأمير صراحة، بل قال "ملكاً "، قيل هو شمويل بن بال بن علقمة ويعرف بابن العجوز، ويقال فيه شمعون قاله السدي، وقال مقاتل هو من نسل هارون عليه السلام، وقال قتادة هو يوشع بن نون: قال ابن عطية. وهذا ضعيف لأن مدة داود هي من بعد موسى بقرون من الناس، ويوشع هو فتى موسى، وهذه الآية هي خبر عن قوم من بني إسرائيل نالتهم ذلة وغلبة عدو فطلبوا الإذن في الجهاد وأن يؤمروا به، فلما أمروا كع أكثرهم وصبر الأقل فنصرهم الله، وفي الخبران هؤلاء المذكورين هم الذين أميتوا ثم أحيوا والله أعلم.

ولما فسر الآية الثانية " فلما فصل طالوت بالجنود..."، قال إن فيها إحدى عشر مسألة: أما الثانية منها: استدل من قال إن طالوت كان نبياً بقوله: "إن الله مبتليكم" وإن الله أوحى إليه بذلك وألهمه وجعل الإلهام ابتلاء من الله لهم، ومن قال لم يكن نبياً قال: أخبره نبيهم شمويل بالوحي حين أخبر طالوت قومه بهذا، وإنما وقع الابتلاء ليتميز الصادق من الكاذب. ثم وفى تفسيره لقوله تعالى: "وقتل داود جالوت" سماه الملك بقوله[2]، وذلك أن طالوت الملك اختار من بين قومه لقتال جالوت وروى في ذلك قصة طويلة.

أما الإمام الشوكاني[3] فيقول في تفسير هذه الآية " ابعث لنا ملكاً " أي أميراً نرجع

---

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي طبعة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر 196،ج3،ص243.

(2) صفحة 256.

(3) فتح القدير للشوكاني، الجزء الأول نشر دار المعرفة بيروت، صفر 264.

إليه ونعمل على رأيه".

أما سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن فيتحدث طويلاً عن ذلك، ويذكر هذه التجربة في حياة[1] بني إسرائيل من بعد موسى بعدما ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلّوا لأعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدى ربهم وتعاليم نبيهم، ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة، واستيقظت في قلوبهم العقيدة، واشتاقوا للقتال في سبيل الله، فقالوا "لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله"، ثم يقول[2] لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل من كبرائهم وأهل الرأي منهم إلى نبي لهم، ولم يرد في السياق ذكر اسمه، لأنه ليس المقصود بالقصة، وذكره هذه لا يزيد شيئاً في إيحاء القصة، وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون في تاريخهم الطويل.. لقد اجتمعوا إلى نبي لهم وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته في سبيل الله...

وهكذا كان، فإن بني إسرائيل لم يكن ينقصهم القائد، ولكن كان ينقصهم الإيمان، لأنه بعد طلبهم للأمير ووجود الأمير أخذوا يعترضون على شخصه ومؤهلاته حسب اعتقادهم، فلم يكن ذا سعة من المال، ولم يكن من أسرة مرموقة لها في الملك قدم، ولكن الله كان قد اختاره وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء، فالأمر أعظم وأعلى من أن يخضع لرأي أهل الأرض أو موافقتهم، وما أصعب أن يحصل المرء من أهل الأرض

---

(1) صفحة 383.

(2) صفحة 389.

على رضاهم وموافقتهم ولو كان من أفضلهم، وقديماً وحتى الآن رضا الناس غاية لا تدرك.

إذن فشروط بني إسرائيل التي يطلبونها للقائد لا تتفق وشيئاً مما أراده الله في القائد، فبينما كانوا يريدونه من سبط المملكة كان من عامة الناس وكان على ما قيل دباغاً[1]، وقيل كان سقاء يسقي الماء ويبيعه، فضلّ حماره فانطلق يطلبه فلما اجتاز بالمكان الذي فيه شمويل دخل يسأله أن يدعو له ليرد الله حماره فلما دخل فنش الدهن فقاسوه بالعصا فكان مثله، وكانوا يريدونه ذا سعة من المال وكان رقيق الحال من ناحية المال فكانت معجزة الله فيه أنه زاده بسطة في العلم والجسم، ثم طلبوا حتى بعد ذلك كله آية على ملكه فكان أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك يل موسى وآل هارون تحمله الملائكة.

أما عند الفرس فقد كانت الأمة عندهم طبقات ولكل طبقة من هذه الطبقات رئيس واتباعاً للتقاليد القديمة لديهم وفي أيام الساسانيين فإن بعض المناصب العامة كانت تورث فإن بعض الأسر كانت تتوارث شؤون الحرب وغيرها تتوارث الإدارات المدنية مع ملاحظة أن هذه الوظائف الوراثية كانت مهمة جداً، إلا أنها لم تكن أعلى وظائف الدولة وأهمها، فليس من المعقول أنت تكون الوظائف الأولى في الدولة، مثل وظائف رياسة الوزراء وقيادة الجيش وغيرها خاضعة لأن تنقل بالميراث من رجل لآخر، كذلك ليس معقولاً أن لا يكون للملك حق الخيار بين مستشاريه، بل أن يكون له إذا أراد أن يتخلص من موظف كبير أن يقتله لكي يخلفه ابنه الأكبر، وهذه الوظائف كانت وظائف شرف تبين مكانة شاغليها، وقد بقي لهذه

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ص122، جزء1.

الأسر مع مر التاريخ ذكر، وبقيت هذه البيوت تتساند زمناً طويلاً، وأصبحوا يسمون أهل البيوتات أو العظماء أو الأشراف ونجد في تاريخ الساسانيين الذي روى بعضه في تاريخ الطبري ذكراً لاصطلاح العظماء والأشراف فكلما ذكر ارتقاء ملك جديد للعرش قيل: إن العظماء وأهل البيوتات اجتمعوا ليقدموا له فروض الولاء وليستمعوا إلى الحديث الذي يتقدم به إلى الشعب وأحياناً نجد الإصطلاح المركب، العظماء والأشراف، والإصطلاح أهل البيوتات والعظماء والأشراف، وليس هناك أدنى شك في معرفة أي فريق من الناس يشار إليهم بهذا التعبير أنهم: الضباط الكبار للدولة وأعلى ممثلي الإدارة والوزراء[1] وعند الفرس أيضاً كان رئيس الوزراء يحصل على قيادة الجيش أحياناً، وكان الجيش خاضعاً لقائد عام واحد، وكانت سيطرة هذا القائد أوسع من سيطرة قائد الجيش بالمعنى الحديث، فقد كانت وظيفته تشمل أعباءً ثلاثة، وزارة الحرب وقيادة الجيش، والقيام بمفاوضات الصلح وبذلك كان لأمير الجيش هذا سلطة ساسية كبيرة، إذ إنه كان بين أعضاء مجلس الشورى الأرستقراطي (مجلس الشيوخ) الذي كان يحدد سلطة الملك، هذا ويعتبر ارتقاء كسرى الأول عرش إيران – وهو المعروف بلقب أنو شروان افتتاحاً لأزهى عصر من عصور الدولة الساسانية، فقد كان أنو شروان قائداً عسكرياً ناجحاً فقد أدخل على النظام العسكري إصلاحات جديدة، فقد كانت أسر النبلاء الفقيرة هي التي تتكون منها نواة الجيش وكانوا مجبرين على القيام بالجندية بلا أجر، ولكن كسرى هذا تفقدهم وأعان الضعيف منهم

(1) قادة فتح بلاد فارس، ص20.

بالدواب والعدة، وأجرى لهم ما يقويهم من مال وكان طابع الإصلاح العسكري أيام أنو شروان هو تحصين مدن الحدود واتخاذه منها مسالح لها حاميات خاصة مؤلفة من مقاتلي الأمم المغلوبة على أمرها الأشداء.

واستتبع النظام العسكري الجديد تغييراً في القيادة العليا، فألغى أنو شروان وظيفة القائد العام لإيران، وكانت له الرياسة على الجنود، ففرق كسرى سلطة هذا المنصب بين أربع قادة منهم واحد للمشرق وخراسان وما والاها والثاني من العراق حتى حدود الدولة البيزنطية والثالث لليمن والرابع لأذربيجان وما والاها وهو بلاد الجزيرة لقد أجرى كسرى إصلاحات عظيمة في الجيش، فجعل منه أداة عظيمة في الحرب وفي حفظ الأمن، فأعاد بهذا الجيش دولة الهياطلة وحارب دولة الروم وعقد معها صلحاً.

وفي زمن الأكاسرة بعده ثار القواد الفرس على كسرى الثاني، لأنهم سخطوا على إصراره على حرب لا أمل فيها، وهكذا بدأت قيادة الجيش تتدخل تدخلاً فعلياً في أمور السياسة مما يخرجها عن حقيقتها ويجعلها بعيدة كل البعد عن الشؤون العسكرية الخاصة.

ولعل من أسباب انتصار العرب المسلمين على الفرس تسلط القادة العسكريين ومحاولاتهم اغتصاب العرش وتسلط حكام الولايات واعتبارهم ولاياتهم كأنها إقطاع وراثي فكانوا شبه مستقلين عن الدولة المركزية.

وأخيراً، فإن المرازبة والدهاقين الذين كانوا يتولون قيادة الجيش ويتحكمون في الأراضي والعقارات الشاسعة لم يكونوا ذوي مواهب عسكرية وكفاءة قيادية حتى يكونوا في هذه المراكز، بل يكفيهم نسبهم وحسبهم وحظوتهم لدى الملوك ليتولوا هذه المراكز مما ترتب

عليه تردي معنويات الجيش وضعف تدريبه وضبطه ففقد بذلك إخلاصه لقضية بلاده.

في مثل هذا الحال الذي وصفنا وفي سنة 636م التقى الجيش الفارسي بقيادة رستم بجيش المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص الزهري في القادسية غير بعيد عن الجيزة، واستمر القتال ثلاثة أيام، وانتهى بهزيمة الفرس وقتل رستم.

أما لدى الروم فلم يكن الأمر ليختلف كثيراً عما ذكرنا عما كان متبعاً لدى الفرس ويكفينا في الدلالة على ذلك ما أورده الدكتور إسحق عبيد[1] حيث تحدث طويلاً وعقد فصلاً خاصاً عن الإمبراطور الروماني يوليانوس العاصي وهذا الإمبراطور هو الذي قاد جيشه عبر آسيا الصغرى لمحاربة الفرس حتى وصل إلى الدجلة وهناك انهزم انهزاماً منكراً أمام سابور وجيوشه.

وقد ألّف هذا القيصر رواية بعنوان "القياصرة" في أسلوب يفيض روعة وسخرية، ففي هذه الرواية نجد أن روميلوس قد أقام وليمة لأحبائه من آلهة (الأولب)، ودعا إليها أيضاً حكام روما الذين خلفوه تباعاً، وجلس الخالدون في نظام عروشهم السمائية، في حين أن مائدة القياصرة قد بسطت تحت القمر، أما الطغاة الذين كانت زمرتهم تثير اشمئزاز الآلهة والبشر فقد ألقى بهم إلى نيمييز ليقبعوا في الهاوية.

بعد هذا تقدم القياصرة كل إلى مقعده المعد له، وفيما هم يتقدمون إلى أماكنهم كان سيلينيوس العجوز – ذاك الأخلاقي الضاحك الثمل- يرصد كل على سوءاته ورذائله.

---

(1) الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، دار المعارف، ص70.

وبعد انتهاء الوليمة انطلق صوت ميركوري ليعلن إرادة جوبيتر في عقد تحكيم بين القياصرة لاختيار سيد المكرمات من بينهم ليمنح من الآلهة تاجاً سمائياً، ونوديت أسماء يوليوس قيصر وأغسطس وتراجان وماركوس انطونيوس، ولم يحرم قسطنطين المخنث من شرف الترشيح لهذه الجائزة العلوية، كما دعي الإسكندر ذو القرنين ليشارك السادة الرومان في مسابقة الخلود هاتيك، وسمحت الآلهة لكل من هؤلاء القياصرة بأن يعدد مكرماته، فتحدثوا تباعاً وراح كل منهم يعدد انتصاراته الرائعة، وكانت كلماتهم ترن فخاراً وبطولة، غير أن مجمع الآلهة كان مستعظماً، إذ رأوا في صمت ماركوس أنطونيوس وتأملاته حكمة تضاءلت أمامها بلاغة القياصرة جميعاً وأمجادهم العسكرية.

ولما حان الوقت للقضاة من الآلهة ليعلنوا قرارهم كان الإكليل السماوي من نصيب ماركوس انطونيوس الإمبراطور الفيلسوف الروائي.

وهنا فاق إسكندر وقيصر وأغسطس وتراجان وقسطنطين من غفلة المجد الحربي، واعترفوا في خجل زائد بأن السلطان والشهرة والمتعة كانت تمثل هدفهم الأعلى، وأيقنوا وقتها أنه لا يصبوا لمثال الرضى في عيني الآلهة سوى الفضيلة والوقار وحب الحكمة – في جهد جهيد للتحلي بالسمات الخلقية للأرباب ذاتهم.

إن يوليان هذا الذي قاد جيوش روما لحرب الفرس قد خدعه أحد نبلاء الفرس وأقنعه أنه متمرد على الملك سابور وأنه سيرشده وجيشه إلى طريق النصر، ونجح هذا في التغرير بيوليان، ثم أقدم يوليان على حرق سفن جيشه جميعاً ليقنع جنده أنه ماضٍ لإذلال الفرس في عقر دارهم، وبعد أن ضل يوليان الطريق بفعل خيانة النبيل الفارسي أشعل

الأهلون النار في الحرث والزرع وهربوا إلى الجبال، وهنا لم يجد يوليان بداً من التراجع، فانقض سابور عليه فقتل خيرة ضباط يوليان وأحداً بعد الآخر، ولكن يوليان لقن جنده درساً بطولياً، إذ كان يقال بجوارهم في بسالة فائقة، فكانت همته سبباً في تحويل الهزيمة والعار إلى ما يشبه بوادر الصمود، ولكن سهماً انسل ليستقر في كبده وينهى بذلك حياته.

وفي أيام هرقل في مستهل القرن السابع الميلادي نشب الصراع العنيف بين أعظم قوتين في العالم يومذاك، دولة الفرس ودولة الروم وبلغ هذا الصراع ذروته بسبب أطماع أكاسرة الفرس التوسعية، فأوغلت جيوش الفرس في بعض أقاليم آسيا الصغرى حتى وصلت إلى مشارف القسطنطينية على الشاطئ الآسيوي، كما وصلت قوات فارسية أخرى إلى أرجاء الشام، وعندها رأى هرقل أن الأمر يحتاج إلى إعداد وتطهير أجهزة جيوشه قبل مواجهة الفرس، فأدخل تغييراً جذرياً في قادة جيوش الروم في الميدان الفارسي، وأخذ يعد الجيوش لملاقاة الفرس في جبهتين إذا بعث جيشاً إلى أرمينية على حين نصب نفسه قائداً عاماً لجيوش الميدان الثاني في أرض الشام..

ولكن اتساع الخطر الفارسي وابتلاعه ولايات الروم وتهديده للعاصمة أثار شعور الروم، ووقفت الكنيسة على رأس هذه الحركة تشد أزر الإمبراطور لتخليص الأراضي المقدسة من الفرس وأضفت على مشروعات هرقل صبغة دينية، وانكب هرقل على إعداد خطته الحربية التي انتهى منها سنة 621 ميلادية، وحارب الفرس ثلاث سنين حتى اضطر إبرديز لسحب جنده للدفاع عن قلب مملكته، ومما لا شك فيه أن جيش الروم قد تطور بالتدريج أسوة بالجيوش العالمية الأخرى سواء بأنظمته الحربية أو تشكيل قياداته، ولكن هذا

التطور وهذا التنظيم لم يكن ليستمر طويلاً، فإنه بزوال الإمبراطور القائد الأعلى للجيش تزول أكثر الأنظمة ومتابعتها وعظمة هذا الجيش إنما تبقى بعظمة المنظم والقائد وبمجرد أن ينتهي هذا فإن ما بناه جميعه يتسلل إليه الإنهيار ويصيبه الفساد ذلك أنهم كانوا يتخذون بعضاً أرباباً من دون الله ويعبد بعضهم بعضاً.

وعلى كل حال، فإن مثل هذا الجيش بقيادته التي وصفنا وارتكازها على الحكم الإقطاعي وتوارث قيادته بلا مؤهلات سوى الحسب والنسب أدى كل ذلك إلى حروب داخلية بين هؤلاء الوارثين وخاصة عندما يضعف سلطان القيادة المركزية في القسطنطينية، ولقد استنفدت الحرب الفارسية قوى الجيش الروماني في المال والسلاح كما أهمل القادة إدامة الحصون وتعزيز القوات وتجديدها وأبطلوا الجراية التي كانت توزع على قبائل الحدود كما تضعضع الضبط داخل ضفوف الجيش، وكذلك اشترك قادة الجيش في الجدل البيزنطي الذي ضرب به المثل في التاريخ القديم والحديث من جراء الخلاف على المذاهب الدينية في الدولة الرومانية الشرقية، وكان رد الفعل في محنة العقيدة والجدل فيها ومحنة اختلال الملك والسلطان ظاهراً غاية الظهور في الجيش الروماني وقادته، فارتبكت هذه واضطربت أهدافها وفسدت قضاياها فما عادت تصلح للعسكرية النقية.

على مثل هذه الأوضاع التي وصفنا أخذ يفوح شذى الدعوة الإسلامية بالكتب التي بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل والمقوقس وغيرهما من قادة العالم فلم تقدر دولة الروم تلك الدعوة التي وصلتها ولم تدرك ما انطوت عليه من عقيدة جديدة سوف تزلزل أركانه، كما لم تعر موطن العقيدة الإسلامية اهتماماً، لأنها لم تتصور أن بلاد العرب سوف

تصبح بفضل هذه العقيدة وحدة لها خطرها ونفوذها.

هذه أشهر الأمم قبل الإسلام التي كانت تتعاقب الجلوس على عالمية القيادة كلها فلم يكن في التاريخ المعروف ما يثير الانتباه إلى أمم أخرى في الشرق والغرب كرمسيس وتحتمس اللذين قادا الجيوش واحتلا بلاد الشام في معارك مجدد وغيرها، وأما بعد ذلك وزوال هذين فقد بقيت بلاد مصر بلا تاريخ عسكري تخضع تارة للروم وتارة للفرس ويتميز تاريخها العسكري بطابع المحتلين حتى جاء الإسلام فأصبحت مصر حصناً إسلامياً له في تاريخ الإسلام وقيادة جيوشه تاريخ حافل لا ينسى على مر الدهور وكرّ العصور.

وهناك في التاريخ القديم اليوناني، فلقد كانت لهم حقبة غير مذكورة وحروب طروادة وحصنها الخشبي وما سجلت الملاحم والقصص الحربية في يونان تذكر حتى اليوم وأشدها ذكراً الإلياذة والأود يسه.

وقد جعل هوميروس واضع الإلياذة موضوع ملحمته هو مجريات الحرب الطروادية، وذلك أن نفراً من اليونان جفت عليهم أخلاف الرزق في أرضهم، وكانوا يسكنون "بيلوبونيز" وجزءاً من اليونان الوسطى فنزحوا قبل اثني عشر قرناً من الميلاد عن ديارهم هاربين من جور الوطن، فكانت وجهتهم الشمال الشرقي من آسيا الوسطى، فنزلوا على شعب قوي الشكيمة صعب المراس هو "الدرونيون" أو "الطرواديون" فحاصروه وراء أسوار مدينته العصماء طروادة لقد جعل هوميروس موضوع ملحمته هؤلاء الفاتحين ومن نزلوا بساحتهم وأدار حوادث هذه الحرب بين أبطال أقدام من كلا الجانبين، فكان من الدهاة المناجيد في فريق اليونان أغاممنون وآشيل وعولس وديوميد وأجاكس وهيلين وفي أبطال

الطرواديين بريام وولده هكتور وباريس وهيكوب وأندروماك.

واصطرع هؤلاء أيما صراع وتساقط الكثير من القادة المشهورين وفي نهاية الإلياذة يروي هوميروس كيف اتخذ اليونان الخديعة وسيلة إلى فتح الحصون بجواد هيكل هائل من (مغصب) فقتلوا بريام ملك طروادة واسترقوا زوجته ونهبوا البلد، ثم أحرقوها وانكفؤوا إلى بلادهم ضالين تائهين في عرض البحر.

إذن فهذه الأمة اليونانية كان لها قادة مؤهلاتهم الحسب والنسب الرفيع فيقومون في فورة من فوراتهم يقتلون الإنسان وينهبونه بلا هدف سام ولا رسالة مقدسة لاصلاح الإنسان ورعاية واقعة المر.

هذا التاريخ المؤلم الذي يقوم على الصراع المتوحش بين وحشين لا هدف لهما إلا الولوغ في الدماء واقتناص الفرائس وحوز الغنائم أما كان له أن ينتهي؟ وأن تقف هذه الأنهار المتدفقة من نجيع الإنسان بغير طائل ولا فائدة.

نعم لقد آن لها أن تنتهي وبالفعل قد انتهت بظهور الإسلام وتعاليه إلى قياداته بأن تكون على مستوى يرفق بالإنسان ويسعى لاستخراجه من وهدة للفساد والتعبد إلى فسحة العبادة لله وحده وفسحة المساواة في العيش الكريم مع خلق الله جميعهم بلا نقص ولا استعباد.

وأخيراً ماذا كان العرب في جاهليتهم قبل الإسلام من هذا البحث، وما مدى وجود هذه الأمور بين قبائلهم المتفرقة في صحراء الجزيرة، وما مدى النظام القيادي للعسكر والجيش في غزواتهم التي ما تكاد تنقطع على مر الأيام فيما بينهم وفيما بين جيرانهم؟

فلو نظر الناظر على الشعر الجاهلي في جملته وتفصيله وبخاصة ما كان في الفخر والحماسة والرثاء والهجاء، فإننا نجده قد ارتبط بما سمي في التاريخ بأيام العرب في الجاهلية، فبينما كان الفوارس يناضلون بسيوفهم ورماحهم ويجودون بنفوسهم رخيصة في سبيل أقوامهم كان الشعراء من ورائهم يدفعون عن الأحساب بقصائدهم ويطلقون ألسنتهم في خصومهم وأعدائهم، ويندبون بقوانينهم صرعاهم والقتلى من أشرافهم وزعمائهم، وما تحدث به الرواة من أخبار مساعير الحرب وما امتلأت به الكتب من ذكر المغاوير من أبطال الوقائع هذه الأيام هي مورد قصصهم، وساحة بطولتهم وسرد حوادثهم فبسطام بن قيس شيبان، وربيعة بن مكدم فارس كنانة ودريد بن الصمة قائد جشم، وجساس بن مرة قاتل كليب، وهاشم بن حرملة صاحب الشماء، هؤلاء وغيرهم من قروم الحرب وأحلاس الخيل قد سجلوا في هذه الأيام مواقف ومغاورات تملأ القلوب دهشة وإعجاباً.

ولم تخل هذه الحروب من زعماء قبائل ورؤساء عشائر كانوا في زعامتهم وقيادتهم مثلاً علياً في فصاحة الرأي وإصابة (العجز) والتهدي إلى مواطن الصواب كأكثم بن صيفي وقيس بن عاصم المنقري، والحرث بن عباد البكري وعبدالله بن جدعان القرشي.

وعلى هذه، فإنه من الجائز أن نقول: إن تاريخ العرب العسكري فيما قبل الإسلام إنما كان هو هذه الأيام الحربية التي خلدها لنا الشعراء بكل ما فيها من فتك وقتل وسفك للدماء وصهيل للخيل وهرير للكلاب وعويل للنساء، ثم ارتفاع بالأخلاق العربية إلى مستوى التسامح والجود والعفو والكرم والإيثار.

لقد كان للعرب قبل الإسلام مع الفرس يوما الصفقة وذي قار؛ في الأول أخذت

العرب كيداً وحيلة، وفي الثاني كان اليوم المشهود لهانئ بن مسعود الشيباني وكان سيداً منيعاً فأجار النعمان بن المنذر ثم استودع هذا هانئاً حلقته وأهله وولده وألف شكة وقد أراد كسرى استعادتها من هانئ فأبى هذا فكانت وقعة ذي قار المشهورة وكان نصراً لهانئ وبكر بن وائل جميعاً.

وكذلك كانت هناك أيام للعرب بين بعضهم البعض كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء وكحروب الفجار وشعب وجبلة ويوم بعاث.

ويقول أبو عبيدة معمر بن المثنى: "يوم جبلة أعظم أيام العرب"، ولعل أبا عبيدة يقصد واقعة ذلك اليوم وما كاد فيها جانب من الخصمين وما لقي فيها من الهول الجانب الآخر، لأن من أيام العرب ما دام سنين متطاولة، وكان أروع من هذا اليوم بأساً وأفدح خطباً ولكن ما اتخذ في هذا اليوم من الحنكة والحكمة وسداد الرأي والحيلة وحسن التنفيذ كان لا نظير له على قرب مأخذه بين سائر الأيام الجاهلية وكان حدوثه قبل أربعين سنة من الإسلام[1].

وما دام هذا هو التاريخ العسكري للعرب في جاهليتهم، أفكان هذا التاريخ يخلو من النظم الدقيقة التي كان يقوم بها أهل الجيوش المجيشة عن سابق تدبير وتنظيم؟

إن المتتبع لأيامهم وحياتهم في جزيرتهم لا يرى أنه كان لهم جيش منظم تنطبق عليه أنظمة الجيوش من قيادة موحدة مسلطة لها مؤهلاتها القيادية وخططها الموضوعة وترتيباتها

---

(1) شعر الحرب في أدب العرب، الدكتور زكي المحاسني، دار المعارف، ص35.

العسكرية، بل كان كل أفراد القبيلة مقاتلة يجتمعون إذا دعى داعي القتال وينصرفون إلى أعمالهم بعد ذلك، ومع ذلك فإن قادتهم ورؤساء القبائل كانوا دوماً على جانب عظيم من المعرفة بشؤون الحرب وفنونها وممارستها فليس فيهم من لم يمارسها فعلاً ولم تسجل له انتصارات في الإغارات والأيام حتى اكتسب هذه الشهرة، واستحق بذلك هذا المنزل الذي أكرمه به أهله وعشيرته.

فقد قيل لأكثم بن صيفي(1): صف لنا العمل في الحرب، فقال: أقلوا الخلاف على أمرائكم فلا جماعة لمن اختلف عليه، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل فتثبتوا، فإن أحزم الفريقين: الركين ورب عجلة تهب رثياً وادرعوا العمل فإنه أخفى للويل وتحفظوا من البيات.

وسئل بعض الملوك عن دقائق الحزم في القتال فقال: مخاتلة العدو عن الريف، وإعداد العيون على الرصد، وإعطاء المباغين على الصدق، ومعاقبة المتوصلين بالكذب، وألا تحرج هارباً إلى قتال ولا تضيق أماناً على مستأمن ولا تشدهنك الغنيمة عن المحاذرة.

ولقد كان فرس العرب في الجاهلية ربيعة بن مكدم من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة وكان يعقر على قبره في الجاهلية ولم يعقر على قبر أحد غيره.

ومن فرسانهم في الجاهلية أيضاً عنترة الفوارس وعتيبة بن الحارث بن شهاب وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبسطام بن قيس، والأحيمر السعدي، وعامر بن الطفيل وعمرة بن عبد ود، وعمرو بن معد يكرب.

---

(1) العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، ج1، ص97.

من هؤلاء الرجال الذين كانوا مساعير حرب في الجاهلية يخوضونها بكل أوجاعها دون خوف أو وجل كان قادة الفتح الإسلامي فيما بعد، فأهل الجاهلية من العرب لم يعدموا فن الحرب، بل مارسوه فعلاً قيادة وتنفيذاً، ثم جاء الإسلام فهذب عقائدهم وأبدلهم بدل النوح على قتلهم الدعاء لهم بفوزهم بجنة الرضوان وأبدلهم بدل مطامع الدنيا من حرث وأنعام بجنة عرضها السماوات والأرض، ولم تعد هناك في قاموسهم الإسلامي أي مكان لمعاني الإنهزام فعلى كل حال هو الكاسب وهو الغالب وما عند الله خير للأبرار.

هذه الفئة المتفاعلة مع هذه التيارات بجميعها هي التي قام على أكتافها بناء الدولة الإسلامية وهدمت إيوان كسرى عرش قيصر وأقامت مكانهما مجتمعاً إسلامياً واحداً منهجه في الحياة أن تبقى كلمة التوحيد مشعلاً يضيء الطريق للإنسانية إذا ضلت وتطاولت عليها شياطين الإنس والجن، فتخرجها من الظلمات إلى النور بإذن ربها إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

إمارة الجيش في بداية التاريخ الإسلامي

مما لا يماري فيه أحد أن الشؤون العسكرية وقيادة المقاتلين على فن دقيق ومعرفة مدروسة كانت عند العرب في جاهليتهم، فحروبهم الصغيرة فيما بينهم كانت ميدان التدريب الذي يمارس فيه كل واحد فنه ويمتحن قدراته ويطبق قواعده، ولا أدلّ على ذلك من يوم شعب جبلة وما حصل فيه من تخطيط سليم لمعركة يطلب فيها النصر، فعندما استشار الأحوص بن جعفر قيس بن زهير العبسي قائلاً: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: فإذ قد رجعتم إلى

رأيي فأدخلوا نعمكم شعب جبلة، ثم أظمؤها عشرة أيام ولا توردوها الماء، فإذا جاء القوم أخرجوا عليهم الإبل وانخسوها بالسيوف والرماح فتخرج مذاعير عطاشاً، فتشغلهم وتفرق جمعهم واخرجوا أنتم في آثارها واعفوا نفوسكم، ففعلوا ما أشار به فخرجت الإبل مذاعير عطاشاً وهم في أعراضها وأدبارها فخبطت خبطاً ومن معها وقطمتهم وكانوا في الشعب وأبرزتهم إلى الصحراء على غير تعبية وشغلوا عن الاجتماع إلى ألويتهم، وحملت عليهم عبس وعامر فاقتتلوا قتالاً شديداً وكثرت القتلى في تميم.

وأنا أسائل التاريخ أليس هذا الحرب؟ أليست هذه هي الخطط الحربية؟ أليست هذه هي القيادة الحكيمة التي تحسن اختيار موقع المعركة والتخطيط لها ثم تنفيذها تنفيذاً دقيقاً؟ ترى ما هي معاني الاستراتيجية والخطط التعبوية والحرب الدفاعية والانقضاض والضربة الصاعقة إذا لم تكن كما حصل في يوم شعب جبلة، إن هذه الألفاظ الحربية على مالها من جرس موسيقي وما تحمل في طياتها من تهويل وتدجيل وتضليل كانت في يوم شعب جبلة في أبسط قواعدها وأيسر خطوبها، فما هي إلا جلسة بسيطة بين مستشار وأمير، وتم وضع الاستراتيجية والخطط الحربية وتنفيذها من غير تهويل ولا دعاية ولا إعلان ولا مجالس أركان وغير ذلك. جملة من أعظم أيام العرب وأشدها وكان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة[1].

ولا شك في أن الكثير ممن اشتركوا في مثل هذا اليوم قد أدركوا الإسلام ودخلوا فيه

---

(1) أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم هامش ص349.

وهم من هم في حذقهم وفنهم ومعرفتهم بالحروب وقيادتها.

وكان من أخريات أيام العرب أيام الفجار وقد كانت بين كنانة وقيس وقد سميت الفجار لأنها كانت في الأشهر الحرم وهي الشهور التي يحرمونها ففجروا فيها وهي فجارات الفجار الأول ثلاثة أيام والفجار الثاني خمسة أيام في أربع سنين، وقد حضر النبي صلى الله علية وسلم يوم عكاظ مع أعمامه وكان يناولهم النبل وانتهت سنة 589م وقد كانت بعثته صلى الله عليه وسلم سنة 610 للميلاد وسنة يومئذ أربعون سنة.

وبعد أن جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام أنزل المشركون به وبأصحابه أشد الأذى واضطهدوهم أمر الاضطهاد فكان المؤمنون يشكون لنبيهم ما يلقون ويسألونه الترخيص لهم برد العدوان ورسول الله لا يزيد عن أن يقول لهم "كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة".

وما من ريب في أن الرسول الكريم قد آنس الحاجة – منذ أول غزوة غزاها- إلى جنود يحمون الدعوة المباركة ويردون عنها كيد المعتدين، بيد أن وقائع سيرته الطاهرة لا تشير إلى إلزامه نفراً من أصحابه بالتجنيد، فقد كان يكتفي بحض المؤمنين على القتال.

ولا شكّ أنّ إمارة الجيش قد أصابت حظاً من التنظيم الرسمي أكبر من حظ التجنيد في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، فقد كان عليه الصلاة والسلام يؤمر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه، لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب، وبهذا نفسر اختياره حمزة بن

---

(1) النظم الإسلامية، الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ص487.

عبدالمطلب وسعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وأمثالهم لقيادة السرايا، كما نفسر في الوقت نفسه سراً من أسرار الفوز في جلّ المعارك التي خاضها المسلمون في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد تأسّى أبو بكر برسول الله صلى الله عليه وسلم بندب الناس إلى القتال عند الحاجة إليه، وظلّ يستنفر الراغبين ولا يكره المتخلفين.

إنّ ما أحبّ أن أتحدث فيه هو هذه الفترة المكية من حياة القائد محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه الفترة امتدت ثلاثة عشر عاماً متوالية لقي فيها عليه الصلاة والسلام وأصحابه من الأذى ما لا قبل لأحد بتحمله ممن يرتبطون بأسباب الأرض والتراب وفي خلال هذه الفترة بطولها لم تحدثنا كتب السيرة عن شيء من المعارك وجلبتها وقعقعة السلاح وصهيل الخيل ولم يقد عليه الصلاة والسلام سرية أو غزوة لا هو ولا أحد من أصحابه حتى إذا ما انقضت هذه المدة بطولها وهاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة كان هناك الإذن بالجهاد والقتال.

لقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين في مكة كثير الأذى وعظيم الشدة[1]، خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، وكان من أعظم أذى الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين وأشدهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي وأبو لهب بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعقبة بن أبي معيط

---

(1) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الخضري، ص39.

والعاص بن وائل السهمي والأسود بن عبد يغوث الزهري والأسود بن عبد المطلب الأسدي والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث العبدري، وكان أذاهم له أنهم أغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهائهم[1] فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون.

قال ابن إسحاق: فحدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عبدالله بن عمرو بن العاصي قال: قلت له ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرون من عداوة قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا فبينما هم في ذلك إذ طلع الرسول الكريم فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: عرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمّ مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح، قال فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طير واقع حتى إن أشدهم فيه وصاةً قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول: انصرف أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام، ص308، تحقيق ابراهيم الأبياري ورفاقه.

طلع عليهم عليه الصلاة والسلام فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول عليه الصلاة والسلام: نعم أنا الذي أقول ذلك، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه قال: فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإنّ ذلك لأشدّ ما رأيت قريشاً نالوا منه قط.

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أن أشدّ ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش أنه رجع يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه، لا حرّ ولا عبدّ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه[1].

يقول السهيلي[2]: ذكر ابن اسحق والواقدي والتيمي وابن عقبة وغيرهم في هذا الباب أموراً كثيرة تتقارب ألفاظها ومعانيها، وبعضهم يزيد على بعض، فمنها حثو سفهائهم التراب على رأسه، ومنها أنهم كانوا ينضدون الفرث والأفحاث والدماء على بابه ويطرحون رحم الشاة برمته، ومنها بصق أمية بن خلف في وجهه، ومنها وطء عقبة بن أبي معيط على رقبته وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان ومنها أخذهم بمخنقه حين اجتمعوا له عند الحجر وقد ذكره ابن إسحق وزاد عليه الخبر أنهم خنقوه خنقاً شديداً، وقام أبو بكر دونه فجبذوا رأسه ولحيته حتى سقط أكثر شعره، وأما السبّ والهجر والتلقيب وتعذيب أصحابه

(1) السيرة النبوية لابن هشام، ص310.

(2) الروض الأنف للسهيلي، طبع عباس شقرون، ص48.

وأحبائه وهو ينظر، فقد ذكر من ذلك ابن إسحق في الكتاب، وقد قال أبو جهل لسمية أم عمار بن ياسر: ما آمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله، ثم طعنها بالحربة في قبلها حتى قتلها والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

قال ابن إسحق: ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش برمضاء مكة إذا اشتدّ الحرّ من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم.

وكان أشدهم في العذاب بلال بن رباح من أمية بن خلف وعمار بن ياسر وأمه وأبيه من بني مخزوم حتى اضطر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يقول لأصحابه، لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.

إنّ هذا التعذيب والتنكيل الذي كان يلاقيه عليه الصلاة والسلام هو وأصحابه كان رب العالمين يقول له: "فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم" وكثيراً ما كان يقص الله عليه أنباء إخوانه من المرسلين قبله ليثبت فؤاده.

ترى لماذا لم يحاول القائد ولو مرة واحدة أن يقود جمعاً يقاتل أئمة الكفر الذين لا أيمان لهم في العهد المكي، لماذا تأخر كل ذلك إلى ما بعد الهجرة؟ لماذا كان ينهى عليه الصلاة والسلام أصحابه عن القتال في أشد لحظات التعذيب ورغبة المؤمن منهم تكاد تكون كاملة في أن يدفع عن نفسه الأذى وهو يستطيع؟

روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوسّد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون".

إنه عليه الصلاة والسلام هو القائد الرسول وهو صاحب الأمر وهؤلاء الصحابة الذين يقلقلهم ما يقع بهم وما يرون، يتحاشدون حوله عليه السلام يطلبون منه حلاً لهذا الأمر أو إذناً بدفع الأذى على الأقل، أليس بينهم من هو أهل للحرب؟ أليس فيهم من تأبى عليه عزته وكرامته أن يسكت لإهانة توجه إليه من أي مخلوق آخر أليس فيهم من يحسن قيادة العسكر والمقاتلين، أليس فيهم من تتوق نفسه إلى أن تشفى من هؤلاء الفجرة، ولكنه عليه الصلاة والسلام يقول: ولكنكم تستعجلون هذه الفترة التزم المسلمون بأمر القائد التزاماً كاملاً، احتسب كل واحد منهم ما لاقاه عند الله يرجو به الثواب وهو نعم المثيب، وبقيت تتحفز نفوسهم إلى ذلك اليوم الذي يؤذن لهم فيه بالقتال ويتقدمهم ذلك القائد الرسول حتى يكونوا في جنان الله أسرع.

إن القائد كان يخطط لأمر عظيم، وشتان بين فكر القائد المخطط وفكر الجندي المنفذ فهذا بعيد النظرة واسع الفكرة عميق الغور وذاك يرى عمله في سيفه ورمحه ليس إلا، لذلك بقي هؤلاء الصحابة يتقلبون على جمر الصبر والتصبر إلى أن حانت الفرصة فانطلقوا من

عقالهم فدكوا عروش القياصرة وإيوان الأكاسرة وهزموا جموع الأرض بما جمعت تحت قيادة صحابة أمرهم على هذا جهدهم وجهادهم وتقواهم وحبهم لله، فما مضى نصف قرن من الزمان حتى كانت خيولهم تقف على شاطئ الأطلسي غرباً وتخوم الصين شرقاً، ناشرين بذلك دين الله في المعمورة حينذاك.

ومما لا شكّ فيه أنّ أمر الحرب والقتال وقيادة الجيوش تحتاج إلى نوع معين من الرجال يتميز بقدرات خاصة تأتي نتيجة إعداد خاص من ناحية البدن والفن ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبني أمته المسلمة ويوجهها نحو الله كان يقوم بالإعداد ليوم ستقوم فيه المعركة وسيخوض هؤلاء غمارها، فهل من الممكن أن يخوضوها وهم لا يدرون عنها شيئاً وليست لديهم أهبة لها أو استعداد، وإنني لأشهد أن الانتصارات العظيمة التي حققها المسلمون بقيادته عليه الصلاة والسلام وتلك السرايا والغزوات التي كان يقود بعضها ويولي بعض الصحابة بعضها الآخر لهي خير دليل على تميز القادة والجند بقدرات عجيبة.

أليسوا هم الذين عاشوا حياتهم الأولى في البيئة العربية التي كانت ذات ميزات وخصائص أثرت تأثيراً مباشراً على سلوكهم وعاداتهم وصفاتهم فلقد كانوا أقوياء جداً لهم بنية سليمة عندهم من المروءة وكرم الأخلاق ما يسع كل سفاسف الأمور ولقد نشأوا على تمجيد الشرف والوفاء بالوعد وحماية الضعيف وإغاثة الملهوف كما عرفت عنهم صفات حميدة كالعفو والإتزان وقوة الاحتمال والحلم.

إنّ هذه البيئة الصحراوية التي عاشوا فيها فرضت عليهم أخلاقاً خاصة وألزمتهم بتقاليد محدّدة أصبحت على مرّ السنين جبلة وطبيعة وفطرة وصارت عنواناً لهم في العالمين.

فالصحراء تمثل نوعاً من الطبيعة الخشنة، رمال مختلفة الألوان وجبال جرداء وصخور صمّ وشمس قوية محرقة ورياح هوج دائمة وسيول متدفقة كل هذه انعكست على نفس العربي قوة وصلابة وجلداً، فأصبح لا يخشى الليل ولا يفزع من سفر ولا يزعجه عصف الريح أو بخل السماء، ولقد أفادته الصحراء حدة ظاهرة في البصر وقوة في السمع وقدرة على الشمّ كانت موضع فخاره فهو يشمّ الخطر قبل وقوعه.

وهذا البدوي الذي لا توجد دولة أو حكومة أو شرطة تؤمن له الحماية والأمان والذي يعيش دائماَ في بيوت من الشعر والوبر تهزها الريح إذا قويت ويجرفها السيل إذا تدفق لم يكن له من حارس إلا مقابض السيوف وأسنة الرماح ولم يكن له حمى إلا ظهور الخيل وشجاعة القلب وعظمة النفس.

ولقد تدرب شباب هذه القبائل على أعمال البطولة والإقدام، وكان الأب يوحي إلى أبنائه معاني القوة والشدة ويصطحبهم معه في حلّه وترحاله وحتى في معاركه القاسية عندما لا يكون بد من اصطحابهم، وكانت الأم كذلك لا تدلل أولادها دلالاً يضعف شخصيتهم، بل كانت هي الأخرى تدفع بهم إلى طريق الشرف والاحتذاء آثار الأبطال وهذا النوع من التربية العملية أوجد شخصيات عظيمة بارزة اشتهرت في الإسلام يوم انفلتت الجحافل تدك العالم بدوي التوحيد.

وظهرت على مسرح التاريخ شخصيات فاقت في قيادة الجيوش والقضاء والخلافة كل ما يربيه التدريب الطويل والتمرين المتواصل لإيجاد أمثالهم، ولا شك أن هذه النشأة الأولى هي الأرضية الصالحة التي يتم من فوقها تكملة البناء وإعداد القادة.

إن الصلات القبلية في كل الجزيرة العربية قد أسست على الحروب والغزوات المتوالية وعلى المحالفة والنصرة فتأهلت نفوسهم جميعاً للحرب والنزال، فقد كانوا يتنازعون على المرعى، وعلى الماء، وعلى الرئاسة، وعلى كلمة صغيرة لا تساوي شيئاً، وعلى الشيء الهين لا يلقي له أحد بالاً، وقد تكون المنازعات رغبة في السلب والإغارة أو نصر الغريب ظالماً كان أو مظلوماً، ويستتبع هذا أخذ بالثارات المتبادلة المتطاولة.

ولذلك كانوا يفضلون الذكور على الإناث، لأن الذكر يغني حيث لا تغني الأنثى، فكانوا يختارون للذكور الأسماء التي تحمل معنى القوة والرهبة والشدة، مثل أسد وفهد وثور وصخر، وسئل في ذلك أبو العرفيش: "لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح، فأجاب: إننا نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا".

هذه الطبيعة البدوية داءها الإسلام ليوجهها ويربيها ويتعهدها ويعدها لرسالة جليلة هي هداية العالم والدفاع عن الدين الكريم والمبدأ الشريف فألف بين هذه القلوب المتباعدة وجعلها وحدة قوية متحدة الجهة والغرض فقال تعالى: " لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم"[1].

على هذه الجموع التي وصفت وقف أمير الجيش محمد صلى الله عليه وسلم يخرج منهم الجنود والقادة والخلفاء ومن يستمرون في حمل هذه الأمانة العظيمة أمانة تبليغ الإسلام

(1) سورة الأنفال، الآية 63.

لأهل الأرض جميعاً.

فكيف عمل عليه السلام لتدريب جنده وإعداد قادته وتسليمهم الزمام؟

هذا ما سنبدأ في بحثه تالياً إن شاء الله وهو المعين.

الفصل الثالث

موازنة وتقدير لقواعد إمارة الجيش فيما قبل الإسلام وبعده

ويتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: شروط اختيار القائد.

المبحث الثاني: الاعتبارات في الاختيار ومدى نجاحها.

المبحث الثالث: القبلية والعشائرية في اختيار قادة الجيش.

المبحث الرابع: من هم قادة الجيش في الجاهلية التي جاء عليها الإسلام.

المبحث الأول

شروط اختيار القائد

إن الفرق شاسع وبعيد جداً بين شروط اختيار القائد في عصر ما قبل الإسلام وفي عصر الإسلام، فعندما كانت إمارة الجيش فيما قبل الإسلام تقوم على الاعتبارات الشخصية والرغبات الفردية التي يريدها ملك أو إمبراطور أو حاكم معين جاء الإسلام ليهدم هذه القاعدة من أساسها.

فالإسلام لم يجعل القيادة وقفاً على أشخاص، ولا خاصة بقبائل معينة، وإنما كان الرسول عليه السلام أول الأمر هو القائد الأعلى، يقود قواته بنفسه إذا خرج معهم ويؤمر من يراه صالحاً للإمارة إذا غاب عنهم، غير متقيد في ذلك بعامل الأقدمية في السنّ فقد سلم عليه السلام رأيه المهاجرين في بدر إلى علي وهو في العشرين[1] من عمره، ثم سلمها له في غزوة حمراء الأسد وغزوة خيبر ومن الصحابة من هو أسن منه ومن أصحابة من فعل كذلك فعل مع أسامة بن زيد بن حارثة، فقد روى ابن سيد الناس في عيون الأثر أنه في يوم الإثنين لأربع ليالٍ بقين من صفر سنة إحدى عشرة من مهاجره أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالتهيؤ لغزو الروم فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد، فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فأغر صباحاً على أهل ابني وحرق عليهم وأسرع السير

(1) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس،ص246، طبعة دار الجيل- بيروت.

تسبق الأخبار، فإن ظفرك الله فأقلل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك فلما كان يوم الأربعاء بدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه فحم وصدع، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده، ثم قال: أغز باسم الله وفي سبيل الله فقتل من كفر بالله، فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بريده بن الحصيب الأسلمي وعسكرا بالجرف فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة، منهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن يزيد وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم ابن حريس فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين والأنصار فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد: أيها الناس فمقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم إمارة أسامة، لقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وأيم الله إنه كان لخليقاً للإمارة وإن ابنه من بعده لخلق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي وإنهما لمخيلان لكل خير – أي لمظنة لكل خير- فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم، ثم نزل، فدخل بيته وذلك في يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة.

إنّ هذا القول من المنافقين والاعتراض على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهم شأن من شؤونه وهو توليته إمارة الجيش لم يكن له وجه من الشرع يؤيده، بل هو كيد المنافقين يحتجون بعامل السنّ فقط، ولكنه عليه الصلاة والسلام صرف أصحابه عن تقدير عامل السن في الإمارة إلى تقدير الذكاء، وحسن قيادة الجند في كل قائد، وأخذ عنه خلفاؤه ذلك، فعملوا به وقدموا الخبرة الحربية على كل اعتبار، فأبو بكر رفض عزل أسامة عن القيادة عندما

تجدد الكلام فيه عقب وفاة الرسول، فقالوا يوجهون الكلام إلى أبي بكر: "إن هؤلاء جل المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق جماعة المسلمين، قال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته"[1]، وقيل أن أسامة لما رأى ما عليه الناس طلب إلى عمر بن الخطاب أن يرجع إلى أبي بكر فيستأذنه في أن يعود بالجيش ليكون عونه على المشركين فلا يتخطفون المسلمين، وقالت الأنصار لعمر: "فإن أبى إلا أن نمضي، فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة"، وأبلغ ابن الخطاب أبا بكر رسالة أسامة، فلم يلبث حين سمعها أن ثارت ثائرته، وقال: لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما رسالة الأنصار أن يولي عليهم رجلاً أقدم سناً من أسامة فقد وثب له أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر وقال مغضباً: "ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب: استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه، ورجع عمر إلى الناس فسألوه عما صنع فقال: "امضوا ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت في سبيلكم من خليفة[2] رسول الله، وكذلك فإن أبا بكر الصديق ولي يزيد ابن أبي سفيان قيادة جيش موجه إلى الشام، وفيه من هو أسنّ منه من الصحابة ولم يعبأ بنقد الناقدين.

(1) الصديق أبو بكر، محمد حسين هيكل، طبعة دار المعارف، ص89.

(2) المصدر السابق.

إذن فما هي الشروط التي كانت تراعى في القائد:

يقول عبد الرؤوف عون في كتابه الفن الحربي في صدر الإسلام طبع دار المعارف بمصر أن المؤرخ جوستاف لوبون – في كتابه حضارة العرب- يجمل شروطها في التقوى والشجاعة. ورقة الشمائل والقريحة الشعرية، والفصاحة، والقوة والمهارة في ركوب الخيل، والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب، ومعنى هذا أن يكون القائد مستوفياً كل خلال الفروسية والزعامة، وما هذا بميسور لكل إنسان.

أما محمود شيت خطاب؛ فيقول في كتابه الرسول القائد: مزايا القائد الشخصية المثالية، كما ينص عليها كتاب (نظامات الخدمة السفرية)، وهو كتاب عسكري رسمي وهو من أوثق المصادر العسكرية الحربية: (ينحصر أهم واجب للقائد في إصدار القرارات)، ولكي تكون قراراته صحيحة لا تكفيه الشجاعة الشخصية ولا الإرادة القوية الثابتة ولا تحمل المسؤولية بلا تردد، بل فضلاً عن ذلك عليه أن يكون واقفاً وقوفاً تاماً على مبادئ الحرب وقادراً على إبداء الحكم السريع الواضح، وذا مخيلة بمزاج لا تأخذه نشوة الفوز ولا تثبط عزيمته كارثة الخيبة، وأن يكون سابراً غور الطبع البشري، ويتمكن القائد من المحافظة على معنويات قوته وتنفيذ أوامره بالثقة والولاء اللذين يبعثهما في نفوس رجاله بقدر ما تمكن من ذلك بوساطة الضبط فالشخصية القوية، ومعرفة الطبع البشري، وأصالة الرأي الموزون، والتفاهم مع المرؤوسين عوامل أدبية جوهرية في تنشئة الكفاية العسكرية، فعلى القائد أن يغتنم كل فرصة سانحة للاتصال بمرؤوسيه الآخرين وقطاعاته للوقوف على صفاتهم وما فيهم من جدارة.

وتضيف إلى كل ذلك بعض المصادر العسكرية الحديثة ضرورة تحلي القائد بالقابلية البدنية ليستطيع مشاركة قواته في تحمل مشاق القتال، وهناك من يضيف إلى كل تلك المزايا الماضي الناصع المجيد، وهذه الصفات المذكورة هي نتيجة لدراسة شخصيات أبرز القادة في التاريخ لذلك فهي مجموعة من مزايا شخصيات كثيرة لا شخصية واحدة، فليس من الممكن أن تتوفر في شخص واحد كما هو معروف.

ثم يضيف قائلاً: ولكن كل هذه الصفات المثالية قليلة جداً بالنسبة لصفات الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ هناك صفات أخرى يتحلى بها عليه السلام لم تتطرق إليها الكتب العسكرية، لأنها صفات يصعب على القادة الإعتياديين التحلي بها، بل هي فوق طاقة البشر بصورة خاصة.

إنّ الرسول القائد بعد أن أذن له بالقتال قاد خلال حياته بنفسه سبعاً وعشرين غزوة[1]، ويقول محمود شبت خطاب: قاد الرسول صلى الله عليه وسلم ثمانياً وعشرين غزوة خلال سبع سنين بعد هجرته إلى المدينة وفي سيرة ابن هشام لم يذكر غزوة بني قينقاع مع غزواته.

وكانت بعوثه صلى الله عليه وسلم وسراياه ثمانياً وثلاثين.

وبعد هذا يمكن إجمال شروط القيادة أو اختيارالقائد عند المسلمين فيما يلي:

1. السبق في الإسلام والفناء في العقيدة، ولا يستطيع أحد أن يماري في وزن هذا

(1) سيرة ابن هشام، ص256، ج4، طبعة دار إحياء التراث العربي.

الشرط في اختيار القادة عند المسلمين، وذلك لأنّ السابقين في الإسلام هم أهل الجهاد والعمل الطويل في سبيل الله، وهم الذين أوذوا وتحملوا الأذى، وقد تربت نفوسهم على حب الله والفناء في خدمة دينه حتى إن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هما أحب إليهما مما سواهما، فهم أهل الفضل وأحباء الله ورسوله، والله سبحانه وتعالى يقول فيهم: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهارخالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) [1]، ويقول جل وعلا أيضاً: (وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله، ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) [2]، هذا إذا توافرت في السابق الشجاعة والخبرة والحربية التي لابدّ منها في مثل هذا الأمر، ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمر على سراياه السابقين في الإسلام من أصحابه كعلي بن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة وزيد بن ثابت أبطال مؤتة وقادتها.

ويظن عبد الرؤوف عون في كتابه الفن الحربي في صدر الإسلام أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يؤمر خالد بن الوليد يوم مؤتة مع درايته الحربية مراعاة لهذا العامل، ولأنه كان

---

(1) سورة التوبة، آية 101.

(2) سورة الحديد، آية 10.

أحدث عهداً بالإسلام من زيد وصاحبيه ولو قد كان سابقاً مثلهم لكان أولى بها منهم من الوجهة الفنية[1].

وعلى كل فليس المجال مجال ظن، وليس لنا أن نقف من اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم لقادته ما وقفه قوم من اختياره لأسامة بن زيد، ولكننا نقول إن درايته عليه السلام بالرجال كانت أكبر من أن نعلق عليها أو نطعن فيها، ولكن ما دام الأمر مطلقاً فليبحث الباحث وليقل ما يراه صواباً فلعل فيه خيراً.

والسابقون جميعهم قد أنفقوا أموالهم في سبيل الله ومن أنفق ماله في سبيل الله فما عليه أن ينفق نفسه أيضاً، فالمال قرين الروح ومن يوق شح نفسه فأولئك هم الفائزون، ويترتب عليه أن يكون بذولاً بروحه في سبيل الله من غير تردد أو مراجعة.

وعمر بن الخطاب عندما دون الدواوين وفرض العطاء نظر هذا الأمر، فلم يفرض للسابقين في الإسلام كما فرض للمتأخرين، وقال قولته المشهورة: "لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه"، فالسابقة في الإسلام خطّ عظيم لا يناله إلا من رضيه الله لذلك.

وكما نظر عليه السلام في القائد إلى سابقته وعمق إيمانه وقوة روحه المعنوية التي يفيض منها على جنده، قدر ذلك أيضاً أصحابه فكانت القيادة في عهودهم للمهاجرين السابقين والأنصار، فكان المسلمون يؤلفون الجيش وهؤلاء السابقون هم ضباطه، ولذا حرم شرف الإمارة كل من مسته شائبة من شوائب الردة حتى لقد كان من رأى أبا بكر عدم

---

(1) الفن الحربي في صدر الإسلام، عبد الرؤوف عون، ص77.

الاستعانة بهم في الحروب الإسلامية إطلاقاً.

وقد سار من بعدهم من الخلفاء الأمويين على هذا المنهج، ولكن نظروا في سابقته لخدمة دولتهم او أسرتهم، وسار كذلك على هذا النهج العباسيون وغيرهم.

2. ويمكن أن يكون شرطاً ثانياً في اختيار القادة المسلمين الحنكة الحربية والممارسة، فإن الزمن قصير بين هدوء حروب الجاهلية وبداية الحروب الإسلامية، فالسابقون من المسلمين قد تدربوا في ميادين الجاهلية على خوض المعارك وذاقوا نيرانها، واللاحقون كانوا لا يزالون في استمرار في حرب المسلمين أنفسهم قبل أن يسلموا، فهذا خالد بن الوليد على ما كان منه في معركة أحد وما هي ببعيدة، وكثير غيره خاضوا هذا الغمار وعرفوه حق المعرفة، فهذه الميزة لا بد منظور إليها عند تعيين القائد، لأنها فيه من البديهيات المطلوبة حتى يستطيع أن يقدم جهداُ نافعاً وغير ضار لقومه ودينه، والحرب خدعة كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذا وجب أن يختار إليها مساعيرها، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: إني لأؤمر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه، لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب[1]، وقد طبق الرسول هذا كثيراً وبخاصة فيما يتعلق بخالد وعمرو، وقد بعث عمراً على سرية فيها أبو بكر وعمر، فلما وصلوا إلى مكان الحرب نهاهم أن يوقدوا ناراً فغضب عمر، فنهاه أبو بكر وأفهمه أن الرسول عليه السلام لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب، فهدأ عنه واقتنع

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص41، طبعة مصر.

بوجهة نظره، وتاريخ الفتح الإسلامي الحافل خير شاهد على براعة القادة المسلمين وخبرتهم بمكائد الحروب.

فالرسول القائد عليه الصلاة والسلام خبر الحرب يوم الفجار يوم كان ينبل لأعمامه، ولقد اكتسب منذ صغره دراية وخبرة ناهيك عن باقي الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

3. التدين، وأعني بهذه الكلمة تقوى الله والخوف منه وحده، وهذا يترتب عليه أن يكون شجاعاً مقداماً، وأن القادة الناجحين في التاريخ كله كانوا ممن عرفوا بجرأة الجنان والشجاعة، فإن ذلك منهم يجعل الجندي الجبان شجاعاً، وقوة اندفاعهم تجر الجند وراءه فيأتون بالأعاجيب والمؤمن التقي لا يخاف إلا الله ولا يعمل إلا له، فما أهون عليه أمر الدنيا كلها في جانب أمر الله وما دام يحيا لله ويموت لله، فسيان هما غير أن الموت لله فيه غفران كامل وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين يدخلونها برفقة الأنبياء والصديقين والصاحين وحسن أولئك رفيقاً.

وليس يخفى على أحد ما كان يوصي به الرسول عليه السلام وخلفاؤه قادتهم على الجيوش وجندهم من تقوى الله وضرورة التمسك الشديد بأهداب الدين، وقد كانوا لا يخافون عليهم كثرة الأعداء كما كانوا يخافون عليهم كثرة الذنوب أي أن تقل تقوى الله في قلوبهم.

لقد كان انتصار هؤلاء الأتقياء أيام الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام وفي أيام الفتح الإسلامي انتصار عقيدة لأمراء، فلم ينتصروا بكثرة العدد، وقد كان أعداؤهم متفوقين عليهم بالعدة والعدد، ولكنهم انتصروا بالعقيدة والتدين والتقوى مع الإعداد

السليم ومعارك الإسلام جميعها تتفق على أن العدة والعدد لم تكن في يوم ما في جانب المسلمين أكثر مما كانت في جانب محاربيهم، بل كان العكس دائماً هو الصحيح.

ويتحدى محمود شيت خطاب كل من يستطيع أن يذكر قائداً عربياً واحداً منتصراً لم يكن يتحلى بالتدين العميق، ولم يكن يؤمن بالمثل العليا النابعة من صميم تعاليم الدين الحنيف.

لن يستطيع أحد أن يذكر قائداً عربياً واحداً كان له في ميدان النصر تاريخ إلا وهو متدين إلى أبعد الحدود سيد القادات وقائد السادات الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام وهو نبي الإسلام ولا أزيد، وقادة الفتح الإسلامي العظيم كلهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن التابعين عليهم رضوان الله، لقد أحصيت عدد القادة الفاتحين فكانوا (256) قائداً عربيا مسلماً منهم (216) من الصحابة و (40) من التابعين عليهم الرضوان.

وتوقف الفتح الإسلامي العظيم عام اثنين وتسعين للهجرة، وكانت خطط المسلمين العسكرية قبل هذا التاريخ هجومية، فأصبحت بعده دفاعية، تصد هجوم المعتدين وتدافع عن دار الإسلام، ومع ذلك فكل القادة الذين نجحوا في صد المعتدين كانوا متدينين إلى أبعد الحدود، وكانوا أمثلة شخصية لرجالهم في التدين والعمل الصالح يكفي أن أذكر منهم نور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي، ويصح الاكتفاء بما أورده لنا الهرثمي في كتابه[1] عن

(1) مختصر في سياسة الحروب، للهرثمي.

فضائل الرئيس، فإن كلامه يعد تلخيصاً لمؤهلات القيادة، قال في الباب الثالث: قالوا أفضل الرؤساء في الحرب أيمنهم نقيبة وأكملهم عقلاً وأطولهم تجربة، وأبعدهم صوتاً، وأبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايد، وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة، وتسييرهم أوان المسير، وإنزالهم أوان النزول، وإدخال الأمن عليهم، والخوف على عدوهم، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، وأن يكون حسن السيرة عفيفاً صارماً متيقظاً شجاعاً سخياً.

وقد تعرض الهرثمي لتقوى الله في الحرب وأفرد له الباب الأول من كتابه، ومما جاء فيه قوله: "فينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده، وكثرة ذكره والاستعانة به والتوكل عليه والفزع إليه ومسألته التأييد والنصر والسلامة والظفر".

4. وأخيراً؛ أليس في قول الله تعالى لبني إسرائيل: "إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم" ما يوحي بوجوب هذه الشروط في القائد فإن الإمام القرطبي يقول: أي أن الله اختاره وهو الحجة القاطعة"، وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت وهو بسطته في العلم الذي هو ملاك الإنسان، والجسم الذي هو معينة في الحروب وعدته عند اللقاء فتضمنت بين صفة الإمام وأحوال الإمامة، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة لا بالنسب، فلا حظ للنسب فيه مع العلم وفضائل النفس وأنها متقدمة عليه، لأنّ الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته، وإن كانوا أشرف منتسباً قال ابن عباس: كان طالوت يومئذ أعلم رجل في بني إسرائيل وأجمله وأتمه وزيادة الجسم مما يهيب العدو وفي محاسن التأويل: بأن ملاك الأمر هو

اصطفاء الله تعالى، وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، وثانياً بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب[1].

وجامع كل ما ذكرنا هو قول الماوردي في أحكامه السلطانية، فهو يقول: والإمارة على الجهاد مختصة بقتال المشركين، وهي على ضربين: أحدها: أن تكون مقصورة على سياسة الجيش وتدبير الحرب فيعتبر فيها شروط الإمارة الخاصة، والضرب الثاني: أن يفوض إلى الأمير فيها جمع أحكامهامن قسمة الغنائم وعقد الصلح فيعتبر فيها شروط الإمارة العامة.

ولا شكّ أن إمارة الجيش في بحثنا هذا مقصورة على سياسة الجيش وتدبير الحرب، فيعتبر فيها شروط الإمارة الخاصة، وما دام حكمها إذا خصت داخل في حكمها إذا عمت، فلنذكر هذه الشروط كما ذكرها الماوردي بنفسه وشروط الإمارة العامة عنده هي الشروط المعتبرة في وزارة التفويض، لأن الفرق بينهما خصوص الولاية في الإمارة وعمومها في الوزارة وليس بين عموم الولاية وخصوصها فرق في الشروط المعتبرة فيها.

أما شروط وزارة التفويض فهي شروط الإمامة إلا النسب وحده، وشروط الإمامة هي: العدالة على شروطها الجامعة، والثاني العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام، والثالث سلامة الحواس من السمع والبصر وواللسان ليصحّ معها مباشرة ما يدرك بها، والرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض، والخامس:

---

(1) ص645.

الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح، والسادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

ثم يقول الإمام الماوردي ويحتاج فيها – أي وزارة التفويض- شرط زائد على شروط الإمامة، وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما فإنه مباشر لهما تارة ويستنيب فيهما أخرى، فلا يصل إلى استنابة الكفاة إلا أن يكون منهم، كما لا يقدر على المباشرة إذا قصر عنهم، وعلى هذا الشرط مدار الوزارة وبه تنتظم السياسة.

وعلى هذا تبقى الشروط سبعة، ذهب النسب منها وأضيف أن يكون من أهل الكفاية هذا إذا عمت أما إذا خصّت فتعتبر فيها شروط الإمارة الخاصة ويعتبر في ولاية هذه الإمارة الشروط المعبرة في وزارة التنفيذ التي هي: الأول: الأمانة حتى لا يخون فيما قد أؤتمن عليه ولا يغشّ فيما قد استنصح فيه، والثاني: صدق اللهجة حتى يوثق بخبره فيما يؤديه ويعمل على قوله فيما ينهيه، والثالث: قلة الطمع حتى لا يرتشي فيما يلي ولا ينخدع فيتساهل، والرابع: أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء فإن العداوة تصدّ عن التناصف وتمنع من التعاطف والخامس: أن يكون ذكوراً لما يؤديه إلى الخليفة وعنه لأنه شاهد له وعليه.

والسادس الذكاء والفطنة حتى لا تدلس عليه الأمور فتشتبه، ولا تموه عليه فتلتبس، فلا يصح مع اشتباهها عزم، ولا يصح مع التباسها حزم، وقد أفصح بهذا الوصف وزير المأمون محمد بن يزداد، حيث يقول من الطويل:

إصابة معنى المرء روح كلامه ... فإن أخطأ المعنى فذاك موات

إذا غاب قلب المرء عن حفظ لفظه فيقظته للعالمين سبات

والسابع: ألا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل ويتدلس عليه المحق من المبطل، فإن الهوى خادع الألباب وصارف له عن الصواب، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "حبك الشيء يعمي ويصم"، وإن كان هذا الوزير مشاركاً في الرأي وصواب التدبير، ولا يعتبر في المؤهل لها الحرية ولا العلم.

أما في الولاية الخاصة، فيضاف إلى هذه الشروط شرطان، وهما: الإسلام والحرية لما تضمنتها من الولاية أمور دينية لا تصح مع الكفر والرق ولا يعتبر فيها العلم والفقه، وأن كان فزيادة فضل.

وشروط الإمارة الخاصة تقصر عن شروط الإمارة العامة بشرط واحد وهو العلم، لأن لمن عمت إمارته أن يحكم وليس ذلك لمن خصت إمارته.

هذه هي الشروط المعتبرة في اختيار القائد، وهي على كل حال قلما تجتمع مرة واحدة في شخص واحد، لأن الكمال لله وحده، وهذه الشروط على وجه الإلزام لا يمكن تكملتها لمخلوق، بل من الممكن أن يكون له نصيب وافر أو متفاوت في الكثير من هذه الشروط وهذه الصفات.

وفيما قبل الإسلام لم تكن هذه الشروط مدار بحث، لأنّ الذي أوجد هذه الشروط هو الإسلام، لأنه يربي الإنسان المؤمن من يوم مولده على الكثير من هذه الصفات، ثمّ يدعه في قابل أيامه يكملها ويتمرّس عليها حتى يأخذ منها بنصيب كبير.

والتديّن الصحيح لم يكن موجوداً قبل الإسلام، لذلك لم يكن هذا الشرط موجوداً في

قواميس القادة جميعهم الذين ذكرهم التاريخ، وإن كان له ذكر عند بعضهم، فما هو إلا مظهر يبرقعون به على جنودهم وأتباعهم، وإلا فلو كانوا مع الله في سلام وخير فما هذه المجازر الرهيبة التي ارتكبوها، وما هذه المباذل والمفاسد التي كانت تستعلن فيهم وفي معسكرهم أينما حلوا وقعدوا؟

إذن فلا مجال للموازنة بين شروط الإسلام في اختيار القادة وشروط غيره، لأن الأساس الجامع لهما مفقود فكيف يقاس عليه، سوى ما يكون من دراية وخبرة بالحرب يكتسبها القائد بطول الممارسة والمران للشؤون الحربية العسكرية.

يقول ابن الطقطقي(1): قالوا: سياسة الرياسة أشد من الرياسة، كما أن سياسة الخدمة أشد من الخدمة، وكما أن التوقي بعد شرب الدواء أشد من شرب الدواء، كذلك رب الصنيعة أشد من الصنيعة، وعلى الرئيس أن يصبر على نغص الرياسة، وقد قال بعض حكماء الترك، ينبغي أن يكون في قائد الجيش عشر خصال من أخلاق الحيوان: جرأة الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وغارة الذئب، وحراسة الكركي، وسخاء الديك، وشفقة الدجاجة على الفراريج، وحذر الغراب، وسمن تعرو: وهي دابة تكون بخراسان تسمن على السفر والكد.

وعلى كل حال؛ فإن جامع الشروط هي ما ذكره الإمام الماوردي، ومن تزيد على ذلك أو أكثر أو جاء بشيء غير مذكور، فكلها لا بدّ مندرجة فيها، ولو أنصف الكاتبون لما زادوا

---

(1) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار حمادة، 57-58.

عليها وأكثروا، ولكنه سنة في الناس أن يقول كلّ واحد شيئاً يراه من صنع نفسه، فيعجب به فيحسبه فتحاً لا يعرفه الناس.

المبحث الثاني

الاعتبارات في الاختيار ومدى نجاحها

إن مجمل الاعتبارات في الاختيار لإمارة الجيش، كما قررتها المراجع العلمية تنحصر في شرطين رئيسيين هما:

1. كفاءته كقائد من حيث توفر صفات القيادة فيه وتوفر قدرته على التأثير في مرؤوسيه.
2. تمتعه بحب مرؤوسيه له[1]، ولقد انعكس هذان الشرطان انعكاساً تاماً على تعريف القيادة العسكرية في علم النفس العسكري، حيث تعرف بأنها "هي فن التأثير على الرجال وتوجيههم نحو هدف معين بطريقة تضمن بها طاعتهم وثقتهم واحترامهم وولاءهم وتعاونهم"، فمن هذا التعريف يلاحظ أن نوع الطاعة المقصود، وهو الطاعة المقترنة بالثقة والاحترام والولاء والتعاون، وهذا لا يتأتى للقائد الذي تنقصه الكفاءة والذي لا يحبه مرؤوسوه.

والمدرسة الإسلامية تقرر المعيار الأمثل لاختيار القائد وهو الكفاءة والحب، وهذا ما يتّضح من تحليل قول الرسول القائد عليه الصلاة والسلام: "أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس علم أنّ في العشرة أفضل ممن استعمل، فقد غشّ الله وغشّ رسوله وغشّ جماعة

(1) المدخل في العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية، محمد جمال الدين محفوظ 1976م.

المسلمين، وأيما رجل أَمَّ قوماً وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه" أي لم تتعدّ.

فهذا الحديث يضمّ الشرطين الرئيسيين للقائد، وهما الكفاءة والحب.

وقد ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة، وقد أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة الشرعية بألفاظه المختلفة، وقال رواة الحاكم في صحيحه، وروى بعضهم أنه من قول عمر لابن عمر روى ذلك عنه[1].

وعلى هذا؛ فهذه الاعتبارات في الاختيار تتفاوت، لأنه من غير الممكن أن تكون جميع الشروط متوفرة، فعليه أن يختار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه، وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام وأخذه للولاية بحقها فقد أدى الأمانة وقام بالواجب في هذا، وصار في هذا الموضع من أئمة العدل والمقسطين عند الله، وإن اختلّ بعض الأمور بسبب من غيره إذا لم يمكن إلا ذلك، فإن الله يقول: "فاتقوا الله ما استطعتم"[2]، ويقول: "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها"[3]، وقال في الجهاد: "فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين"[4]، فمن أدى الواجب المقدور عليه فقد اهتدى، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" أخرجاه في الصحيحين. إذن فهذه الاعتبارات وجب أن تكون في ذهن الإمام، لأن من واجبه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار من

---

(1) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، نشرها تقي محب الدين الخطيب.

(2) سورة التغابن، آية 16.

(3) سورة البقرة، آية 286.

(4) سورة النساء، آية 84.

الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان والقضاء، ومن أمراء الأجناد ومقدمي العساكر الصغار والكبار وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين، وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده وينتهي ذلك إلى كل من يكون له عمل عام أو خاص من أعمال المسلمين كحراس الحصون والحدادين ونقباء العساكر الكبار وعرفاء القبائل فيجب على كل من ولي شيئاً من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضوع أصلح من يقدر عليه.

ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق في الطلب، بل ذلك سبب المنع، فإن في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أن قوماً دخلوا عليه فسألوه ولاية، فقال: إنا لا نولي أمرنا هذا من طلبه، وقال لعبد الرحمن بن سمرة: "يا عبدالرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها" أخرجاه في الصحيحين، فإن عدل عن الأحق والأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقه أو صداقه أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون"[1].

(1) سورة الأنفال، آية 27.

وقد دلّت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن الولاية أمانة يجب أداؤها، فقد قال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر رضي الله عنه في الإمارة: "إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليها" رواه مسلم.

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا ضيعت الأمانة، انتظر الساعة، قيل: يا رسول الله وما إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة".

يقول ابن تيمية: وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب، فإنّ الولاية لها ركنان: القوة والأمانة. كما قال تعالى: "إن خير من استأجرت القوي الأمين"(1)، وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: "إنك اليوم لدنيا مكين أمين"(2)، وقال تعالى في صفة جبريل: "إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين"(3)، والقوة في كل ولاية بحسبها، فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، فإن الحرب خدعة وإلى القدرة على أنواع القتال من رمى وطعن وضرب وركوب وكر وفر، ونحو ذلك، كما قال تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"(4)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا، ومن تعلم الرمي ثم نسيه

(1) سورة القصص، آية 26.

(2) سورة يوسف، آية 54.

(3) الإنفطار، آية19-21.

(4) سورة الأنفال، 60.

فليس منا – وفي رواية- فهي نعمة جحدها" رواه مسلم.

واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي – الشجاع وإن كان فيه فجور- على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً، كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزى؟ فقال: أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوي الفاجر، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر"، وروى: "بأقوام لا خلاق لهم"، فإذا لم يكن فاجراً كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا لم يسد مسده".

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم وقال: "إن خالداً سيف سله الله على المشركين"، مع أنه احياناً كان يعمل ما ينكره النبي صلى الله عليه وسلم حتى أنه مرة رفع يديه إلى السماء، وقال " اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد" لما أرسله إلى بني جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة حتى وداهم النبي صلى الله عليه وسلم وضمن أموالهم، ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب، لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره وفعل ما فعل بنوع تأويل، وكان أبو ذر رضي الله عنه أصلح منه في الأمانة والصدق، ومع هذا فقال له النبي صلى

الله عليه وسلم "يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم"، نهاه عن الإمارة والولاية لأنه رآه ضعيفاً، مع أنه قد روى "ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر"، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاصي في غزوة ذات السلاسل استعطافاً لأقاربه الذين بعثه إليهم على من هم أفضل منه وأمر أسامة بن زيد لأجل طلب ثأر أبيه، وكذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة راجحة، مع أنه قد كان يكون مع الأمير من هو أفضل منه في العلم والإيمان.

وهكذا أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنه ما زال يستعمل خالداً في حرب أهل الردة وفي فتوح العراق والشام، وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل، وقد ذكر له عنه أنه كان له فيها هوى فلم يعزله من أجلها، بل عاتبه عليها لرجحان المصلحة على المفسدة في بقائه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه، لأن المتولي الكبير إذا كان خلقه يميل إلى اللين فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة، والعكس بالعكس، ولهذا كان أبو بكر يؤثر استنابة خالد، وعمر يؤثر استنابة أبي عبيدة بن الجراح، وهذه الاعتبارات ثبت نجاحها قطعاً بلا جدال في تاريخ المسلمين في صدر الدولة الإسلامية، فأخرجت لنا القادة الأتقياء الذين لا يعرف التاريخ أمثالهم، وذلك لأن من ولاهم هذه الولاية كان على علم تام بمقصود الولاية وبمعرفة أكيدة بطريق المقصود، لأنه إذا عرفت المقاصد والوسائل تم الأمر، وأولئك الأولون كانوا يقصدون الآخرة وما عند الله فكانت من هنا موازينهم واعتباراتهم فوضحت أمامهم الطريق فسلكوها فكانوا من أهل النجاة في الدنيا والآخرة.

فعلى هذا؛ يبدو واضحاً أن الهزائم المتكررة التي كانت تلحق الكثير من الجيوش

والقادة فيما قبل الإسلام، وحتى فيما بعده عندما ضيع الإسلام النقي الطاهر إنما كان سببها واضحاً جلياً، وهو تخلف الكثير من هذه الاعتبارات من أن تأخذ مكانها وثبوتها، وأهم ذلك أن يكون القصد في ذلك هو الدنيا وزخرفها، فلا يعين على هذه إلا أهل الدنيا، وأهل الدنيا إنما يعينون لمآربهم ومصالحهم وما أسرع ما تتلاقى هذه في صدام لا يبقي ولا يذر ويجر الويل على العباد أينما كانوا.

ولهذا لما غلب على أكثر الملوك قصد الدنيا دون الدين قدموا في ولايتهم من يعينهم على تلك المقاصد، وكان من يطلب رئاسة نفسه يؤثر تقديم من يقيم رئاسته، وقد كانت السنة أن الذي يصلي بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب فيهم هم أمراء الحرب الذين هم نواب ذي السلطان على الجند، ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر في الصلاة قدمه المسلمون في إمارة الحرب وغيرها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميراً على حرب كان هو الذي يؤمره للصلاة بأصحابه، وكذلك إذا استعمل رجلاً نائباً على مدينة كما استعمل عتاب بن أسيد على مكة وعثمان بن أبي العاص على الطائف وعلياً ومعاذاً وأبا موسى على اليمن وعمرو بن حزم على نجران، كان نائبه هو الذي يصلي بهم ويقيم فيهم الحدود وغيرها مما يفعله أمير الحرب، وذلك كان خلفاؤه بعده ومن بعدهم من الملوك الأمويين وبعض العباسيين، وذلك لأن أهم أمر في الدين الصلاة والجهاد، ولهذا كانت أكثر الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة والجهاد، وكان إذا عاد مريضاً يقول: "اللهم اشف عبدك يشهد لك صلاة، وينكأ لك عدواً"، ولما بعث عليه السلام معاذاً إلى اليمن قال: يا معاذ إن أهمّ أمرك عندي الصلاة، وكذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله: "إن

أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشدّ إضاعة".

والمقصود الواجب بالولايات: إصلاح دين الخلق الذي إن ضاع فإنهم خسروا خسراناً مبيناً ولم ينفعهم ما نعموا به، في الدنيا، ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول: " إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب الله وسنة نبيكم".

وابن قيم الجوزية يقول: وجميع الولاية الإسلامية مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومدار الولايات كلها على الصدق في الأخبار والعدل في الإنشاء، وهما قرينان في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، قال تعالى: "وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً".

ولهذا يجب على كل ولي أمر أن يستعين في ولايته بأهل الصدق والعدل والأمثل فالأمثل وإن كان فيه كذب وفجور، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم. قال عمر رضي الله عنه من قلد رجلاً على عصابة وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين "، والغالب أنه لا يوجد الكامل في ذلك فيجب تحري خير الخيرين ودفع شر الشرين"[1].

وما دامت هذه الاعتبارات قد سجلت نجاحها الباهر فلماذا لا يكون لها اليوم أثر واضح في توجيه سياسة الأمة وسيرها على المنهاج السوي الذي أراده الله لها.

ولكن ما لي أذهب بعيداً، فإن هذه الاعتبارات كانت في الأمة الإسلامية العاملة

---

(1) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، لابن قيم الجوزية، نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة 1971م.

بإسلامها والمجاهدة في سبيله والتي كان همها الآخرة دون الدنيا. أما أمة اليوم فليس لها هم إلا الدنيا، وهي ليست من الإسلام الصحيح في كثير أو قليل، لذلك فقد تلاحقت الهزائم وانحدرت الأمة من ذلة إلى ذلة، ولا يعلم إلا الله متى تعود هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ولله عاقبة الأمور.

المبحث الثالث

القبلية والعشائرية في اختيار قادة الجيش

لا نستطيع أن نقول شيئاً عن هذا الموضوع عن الأمة العربية قبل الإسلام، وذلك لأنه لم تكن لها دولة واحدة تجمعها، وهي بحاجة إلى ذلك الجيش وأنظمته وقادته التي يقوم عليها حفظ كيانها واستمرار بقائها، بل كانت الجزيرة العربية بأكملها قبائل متحررة مستقلة كل فرد فيها جندي منذ ولادته ويقودهم رئيس القوم أو شيخ القبيلة في معاركهم والذي يجب أن يكون على قدر من البطولة والشجاعة والسخاء والنخوة.

والدولة في حدّ ذاتها بحكومتها وعمالها نوع من التقدم في مضمار الحياة، لأنه خروج من طور بدوي بدائي تغلب في عناصر الانفرادية والعشائرية إلى دور أعلى وأكمل من ذلك حين تتخذ هذه العشائر في شكل دولة بحيث تتنازل كل عشيرة عن بعض عناصر الانفراد بينها لتكون مع الأخرى دولة.

والحياة البدوية في الجزيرة العربية التي كانت تقوم الحياة فيها على الماشية ورعايتها وحراسة التجارة ونقلها لم يكن من شأنها أن تساعد على الاستقرار والمكث الذي يترتب عليه قيام الدولة، لذلك بقيت هذه الفرقة ديناً يدين به الجميع ويتعاملون به.

لقد تأخر العرب عمن حولهم في الحضارة وغلبت عليهم البراءة وعاش أكثرهم عيشة قبائل رحل لا يقرون في مكان ولا يتصلون بالأراضي التي يسكنونها اتصالاً وثيقاً كما

يفعل الزراع، بل هم يتربصون مواسم الغيث، فيخرجون بكل ما لهم من نساء وإبل يتطلبون المرعى، لا يبذلون جهداً عقلياً في تنظيم بيئتهم الطبيعية كما يفعل أهل الحضر، إنما يعتمدون على ما تفعل الأرض والسماء فإن أمطروا رعوا، وإلا ارتقبوا القدر، وليس هذا النوع من المعيشة بالذي يرقى قومه ويسلمهم إلى الحضارة، وإنما يسلم إلى الحضارة عيشة القرار واستخدام العقل في تنظيم شؤون الحياة هذه المعيشة البدوية هي التي كانت سائدة في جزيرة العرب، وإن كانت هناك أصقاع متمدنة كصقع اليمن[1].

فكانوا بناء على ذلك يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة، وإنما يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم يأكلون لحومها بعد علاج بسيط ويشربون ألبانها، ويلبسون أصوافها ويتخذون منها مساكنهم وإذا اشتدّ بهم الضيق أكلوا الضب واليربوع والوبر ويتعاملون من طريق البدل بالماشية لما ليس عندهم ويحتاجونه كالتمر واللباس وغيره.

ونوع آخر اتخذوه أيضاً وسيلة للعيش وهو الغارة والسلب فيأخذون نعمهم ويسبون نساءهم وأولادهم، وتبادلهم القبيلة الأخرى نفس الغزو بل هو إذا لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا أنفسهم، ولعل خير ما يمثل ذلك قول القطامي:

فمن تكن الحضارة أعجبتـه ... فأي رجال باديــة ترانـــا

ومن ربط الجحاش فإن فينا ... قنا سلباً وأفراســاً حساناً

وكـــن إذا أغرن عـلى قبيـل ... فأوعزهن نهب حيث كانا

---

(1) فجر الإسلام، أحمد أمين، ص4، دار الكتاب العربي، بيروت.

أغرن من الضباب على حلال وضبة إنه من حان حانا

وأحيـــــاناً على بكر أخينـــا إذا لم نجــد إلا أخانـــا

هذه الحياة الصحراوية القاسية أثرت على نفوسهم فملأتها روعة وأكسبتها صفاء، فتحررت نفوسهم من قيود حكومة ونظام قيد دينهم الوثني وما يتطلبه من شعائر وتكاليف، وقيد تقاليد القبيلة وما يستلزمه من واجبات شاقة، وقد كانوا لتقاليد قبيلتهم أشد إخلاصاً وأقوى إيماناً.

وقد أفاض بعض الشعوبية في ذمّ العرب فيقول: "لم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض لها ملوك تحميها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعة مثل صنعة الديباج ولعب الشطرنج ورمانة القبان، ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون والإصطرلاب، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادهم ويضم قواصيها، ويقمع ظالمها وينهى سفيهها، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلا ما كان من الشعر، وقد شاركتها فيه العجم، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الأوزان والعروض"[1]، ويقول ابن خلدون في تاريخه[2]: "وهم إذا تغلبوا على أوطان عمران أسرع إليه الخراب، لأنهم أمة وحشية فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوه أثافي للقِدْر[3]، ويخربون السقف ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، وليس عندهم في

(1) العقد الفريد،ج3،ص405، طبعة 195، لجنة الترجمة والتأليف والنشر.

(2) ص125.

(3) للطهي.

أخذ أموال الناس حدّ ينتهون إليه، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مغرماً، فإذا توصّلوا إلى ذلك أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم، وهم متنافسون في الرياسة وقبل أن يسلم واحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل، فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرغبة في الجباية والأحكام فيفسد العمران وينتقض، وهم أصعب الأمم انقياداً وبعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم: من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك، لا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة".

إذن لم تكن هناك دولة بمفهومها الصحيح ترتب الجيش وتعين قادته ثم تضع القواعد لذلك، بل هناك قبائل متفرقة الحرب ديدنها وقادة حربها كثير ولا شك في ذلك ولكنهم محليون لانهم ليسوا قادة جيوش يبغون الخروج عن حدود قبيلتهم أو جزيرتهم لاحتلال أرض أخرى وإقامة ممالك أو دول.

ومع ذلك؛ فإن لهم في الحرب رأياًـ وهذه وصية أكثم بن صيفي في الحرب يقول فيها[1]: "لا تحضروا النساء الصفوف: فإن نجاة اللئيم في نفسه ترك الحريم، وأقلوا الخلاف على أمرائكم، ودعوا كثرة الصياح في الحرب فإنه من الفشل، والمرء يعجز لا محالة، فإن أحمق الحمق الفجور، وأكيس الكيس التقى، كونوا جميعاً في الرأي، فإن الجميع معزز للجميع،

(1) الكامل في التاريخ لا بن الأثير، ص380،ج1.

وإياكم والخلاف فإنه لا جماعة لمن اختلف، ولا تلبثوا ولا تسرعوا، فإن أحزم الفريقين الركين، ورب عجلة تهب ريثاً، وإذا عز أخوك فهُنْ، البسوا جلود النمور وابرزوا للحرب، وادرعوا الليل واتخذوه حملاً فإن الليل أخفى للويل، والثبات أفضل من القوة وأهنأ الظفر كثرة الأسرى، وخير الغنيمة المال، ولا تكرهوا الموت عند الحرب، فإن الموت من ورائكم، وحب الحياة لدى الحرب زلل، ومن خير أمرائكم النعمان بن مالك بن حارث بن جساس وهو من بني تميم بن عبد مناة بن أد فاقبلوا مشورته".

أما في الأمم الأخرى التي قبل الإسلام؛ فقد قلنا بأنه كانت هناك عند الفرس والرومان أمم أي أسر تتوارث قيادة العسكر وراثة مما جرّ على تلك الدولة سقوط المستوى العسكري في جيوشهم، لأن قياداته لا تقوم على الكفاءة، بل تقوم على الحسب والنسب.

أمّا في الإسلام؛ فإنّ المعايير قد تغيرت في اختيار القادة وأصبحت الكفاءة هي المقياس الأول لتولي هذه الأمور، وقد جاء الإسلام ليحارب كل الأخلاق الذميمة، وما لا يكون منسجماً مع منهجه في المساواة بين الناس، فقد هدم الإسلام الوحدة القبلية والوحدة الجنسية، وكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس. وعلم أن معتنقي الإسلام كلهم كتلة واحدة، لا تفاضل بين أفرادها إلا بطاعة الله وتنفيذ أوامره " إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وفي الحديث "ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية".

فأصبح من غير الممكن في ظل الإسلام أن يبقى للعصبية او العشائرية أثر في تولي الولايات أو الإمارات، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: "اعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة، وأن الله عنده أجر عظيم"، فإنّ الرجل لحبه لولده أو لعتيقه أو لقريبه قد يؤثره في بعض

الولايات أويعطيه ما لا يستحقه فيكون قد خان أمانته، وكذلك قد يؤثره زيادة في ماله أو حظه بأخذ ما لا يستحقه أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمته، ثمّ إنّ المؤدي للأمانة، مع مخالفة هواه يثبته الله فيحفظه في أهله وماله ويعده، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده، فيذل أهله ويذهب ماله، وفي ذلك الحكاية المشهورة أن بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك، فقال: أدركت عمر بن عبد العزيز قيل له: يا أمير المؤمنين، أفقرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شيء لهم، وكان في مرض موته فقال: أدخلوهم علي فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً ليس فيهم بالغ رآهم ذرفت عيناه ثم قال يا بني والله ما منعتكم حقا هو لكم، ولم أكن بالذي أخذ اموال الناس فأدفعها إليكم وإنما أنتم أحد رجلين؛ إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فلا أترك له ما يستعين على معصية الله. قوموا عني. قال: فلقد رأيت بعض ولده حمل على مائة فرس في سبيل الله يعني أعطاها لمن يغزو عليها.

وهذا عمر بن الخطاب عندما فرض العطاء للمسلمين، فقد فرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم، فقال عبدالله بن عمر: "فرضت لي ثلاثة آلاف، وفرضت لأسامة أربعة آلاف، وقد شهدت ما لم يشهد أسامة وأجابه عمر: زدته لأنه كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك، وكان أبوه أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك"[1].

وقد قال صلى الله عليه وسلم: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في

(1) الفاروق عمر: محمد حسين هيكل، دار المعارف، ط5.

بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والولد راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، والعبد راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. أخرجاه في الصحيحين.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من راع يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة" رواه مسلم.

وهذا عبد الرحمن بن عوف، وهو يحاول إنهاء أمر الخلافة بعد مقتل عمر بن الخطاب يقول للباقين: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم، ولكن عبد الرحن قال: فأنا أنخلع منها، قال عثمان: فأنا أول من رضي، وقال سعيد والزبير: رضينا، أما على بن أبي طالب فبقي ساكتاً فسأله عبد الرحمن: ما تقول يا أبا الحسن، وأجابه علي أعطني موثقاً لنؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة نصحاً إلى آخر الرواية.

أما ابن قتيبة الدينوري فيقول[1]: إن عبد الرحمن قال لعلي: أبايعك على شرط عمران لا تجعل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس. فقال علي عند ذلك: مالك ولهذا إذا قطعتها في عنقي، فإن علي الاجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها كان في بني هاشم أو غيرهم، قال عبد الرحمن: لا والله حتى تعطيني هذا الشرط، قال علي: والله لا أعطيكه أبداً فتركه. وهذا عمر قبل أن يموت قالوا له: يا أمير المؤمنين إن في ابنك عبدالله للخلافة موضعاً فاستخلفه فإنا راضون به، فقال: حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة، ليس له من

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص30،طه الزيني.

الأمر شيء.

هؤلاء الأخيار الأطهار من تلاميذ مدرسة محمد عليه السلام الذين تربوا على أسمى ما في الوجود من معاني الولاء لله والعمل لمرضاته وهم يسمعون رسولهم الكريم عليه السلام يقول لهم عن العصبية (دعوها فإنها منتنة) ما كان لهم أي يفكروا في لحظة من لحظات حياتهم أن للقبيلة أو العشائرية وزناً يذكر في تحميل الأمانة لأهلها من رقابهم إلى رقاب الآخرين، ولست أشك أدنى شكّ في أن غير التوقي ومخافة الله ومصلحة السلمين كان لها وزن في الاختيار؛ إذن لتغير وجه التاريخ من ذلك اليوم الذي انتقل فيه عليه الصلاة والسلام إلى بارئه وترك أمته من بعده، نعم من ذلك اليوم لثارت العصبيات والقبليات والعشائريات وجميع هذه الأسماء المترادفة التي لا تحمل من معان سوى احتقار الإنسان لبني الإنسان بدون سبب مشروع، ولكان لنا في التاريخ صفحات مشؤومة لا تدانيها صفحات داحس والغبراء وأيام الفجار وأيام العرب جميعها في جاهليتهم.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة"، إذن من هنا الانطلاق الصحيح، وهذا هو دين الله المستقيم وبغيره يكون الفساد.

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يستقيم إذا قومته الخشب

المبحث الرابع

من هم قادة الجيش في الجاهلية التي جاء عليه الإسلام

يقول الطبري في تاريخه(1): إن قصياً هو زيد وسمي قصياً لبعد داره عن دار قومه، فبينما قصي به كلاب بأرض قضاعة، وهي أرض زوج أمه ربيعة بن حرام لا ينتمي فيما يزعمون إلا إلى ربيعة بن حرام إذا كان بينه وبين رجل من قضاعة شيء، وقد بلغ قصي وكان رجلاً شاباً فأنبه القضاعي بالغربة: وقال له ألا تلحق بقومك ونسبك فإنك لست منا، فرجع قصي إلى أمه وقد وجد في نفسه مما قال له القضاعي فسألها عما قال له ذلك الرجل فقالت له: أنت والله يا بني أكرم منه نفساً ووالداً أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة القرشي وقومك بمكة عند البيت الحرام وفيما حوله فأجمع قصي الخروج إلى قومه فخرج وفي مكة خطب إلى حليل بن حبشية الخزاعي ابنته حبي فزوجه وحليل يومئذ فيما يزعمون يلي الكعبة وأمر مكة.

فأما ابن اسحاق، فإنه قال في خبره، فأقام قصي معه يعني مع حليل وولدت له ولده عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد بني قصي، فلما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل بن حبشية فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبني كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة فلما قبلوا منه ما دعاهم إليه وبايعوه عليه كتب إلى أخيه

---

(1) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص182، دار إحياء التراث العربي.

من أمه زراح بن ربيعة بن حرام وهو ببلاد قومة بدعوه إلى نصرته والقيام معه وقد قام زراح قومه بالنصرة وأخرجوا خزاعة من مكة.

وعلى كل فإنه في النهاية ولي قصي البيت وأمر مكة والحكم بها وجمع قبائل قريش فأنزلهم أبطح مكة وكان بعضهم في أشعاب ورؤوس الجبال.

وفي رواية أخرى أن صوفة كانت تلي الرمي والنفر فلما أراد الحاج النفر في إحدى السنوات أخذت صوفة بناحيتي العقبة فحبسوا الناس وقالوا أجيزي صوفة فلم يجز أحد من الناس حتى ينفروا فإذا نفرت صوفة ومضت خلي سبيل الناس فانطلقوا بعدهم فلما كان ذلك العام فعلت ذلك صوفة كما كانت تفعل قد عرفت لها ذلك العرب وهو دين في أنفسهم في عهد جرهم وخزاعة وولايتهم أتاهم قصي بن كلاب بمن معه من قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة، فقالوا: نحن أولى بهذا منكم فناكروه فناكرهم، فقاتلوه فاقتتل الناس قتالاً شديداً، ثم انهزمت صوفة وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم من ذلك، وفي رواية أن ذلك تم صلحاً، وأنهم حكموا يعمر بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناة من كنانة فقضي بينهم بأن قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة، فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاعة له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، فحاز شرف مكة كله، فكانوا بعد ذلك لا يعقدون لواء لحرب لقوم من غيرهم إلا في دارة يعقدها لهم بعض ولده.

ثم يروون أن قصياً جعل الحجابة واللواء والندوة والسقاية والرفادة لولده عبد الدار من بعده.

وهذه الروايات وردت كذلك في سيرة ابن هشام على هذا النسق تقريباً[1].

ثمّ إن بني عبد مناف بن قصي: عبد شمس وهاشماً والمطلب ونوفلاً أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي مما كان قصي جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف على رأيهم، يرون أنهم أحق، من بني عبد الدار لمكانتهم من قومهم وكانت طائفة مع بني عبد الدار يرون أن لا ينزع منهم ما كان قصي جعل إليهم.

فعقد كلّ قوم من هؤلاء على أمرهم حلفاً مؤكّداً على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ما بل بحر صوفة، فأما بنو عبد مناف فأخرجوا جفنة مملوءة طيباً فغمسوا أيديهم فيها ومسحوا الكعبة فسموا المطيبين، وأما بنو عبد الدار فتعاهدوا عند الكعبة وتحالفوا حلفاً مؤكداً فسموا الأحلاف.

ثم تصافّ القوم للقتال، وبينا هم على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت، ففعلوا ورضي كل واحد من الفريقين بذلك وتحاجز النادي عن الحرب، وثبت كلّ فريق مع من حالفهم، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما كان من حلف في الجاهلية فإنّ الإسلام لم يزده إلا

(1) سيرة ابن هشام، ج1، ص130-136.

شدّة"[1].

وزاد ابن الأثير قائلاً: وأما اللواء فلم يزل في ولده إلى أن جاء الإسلام، فقال بنو عبد الدار: يا رسول الله، اجعل اللواء فينا، فقال: الإسلام أوسع من ذلك فبطل[2].

ويقول علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي[3]: ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف، والحجابة واللواء لبني عبد الدار ودار الندوة بينهم بالإشتراك وتحالفوا على ذلك. وبعد ذلك يقول: وأما القيادة وهي إمارة الركب فقام بها بعد عبد مناف ولده عبد شمس، ثم كانت من بعده لابنه أمية، ثم لابنه حرب، ثم لابنه أبي سفيان، فكان يقود الناس في غزواتهم: قاد الناس يوم أحد ويوم الأحزاب، ومن ثم لما قال الوليد بن عبد الملك لخالد بن يزيد بن معاوية: لست في العير ولا في النفير قال له: ويحك: العير والنفير عيبتي أي وعائي، لأن العيبة ما يجعل في الثياب، جدي أبو سفيان صاحب العير، وجدي عتبة ابن ربيعة صاحب النفير.

ويقول بمثل هذا القول السيد أحمد زيني دحلان[4]: ثم اصطلحوا على أن تكون الرفادة والقيادة والسقاية لبني عبد مناف والحجابة واللواء لبني عبد الدار ودار الندوة بينهم بالاشتراك، ثم يقول: وأما القيادة وهي إمارة الركب فقام بها من أبناء عبد مناف عبد شمس،

---

(1) السيرة لابن هشام، ص140.

(2) الكامل في التاريخ، ص14.

(3) السيرة الحلبية، ص13-14.

(4) السيرة النبوية والآثار المحمدية،ص15-16.

ثم ابنه أمية، ثم ابنه حرب، ثمّ ابنه أبو سفيان، فكان يقود الناس عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، لأنه أكبر من أبي سفيان، إذ هو ابن عمّ أبيه، وأيضاً كان أبو سفيان مع العير ولم يكن حاضراً بمكة وقت خروج النفير.

ثم يقول: وأمّا اللواء فكان بيدهم – أي بني عبد الدار– فكانوا يحملون لواء قريش في حروبها، ولذلك قتل منهم جماعة يوم أحد كلما قتل واحد أخذ اللواء بعده واحد آخر منهم.

هذا هو تاريخ قيادة الجيش في قريش وهي أشرف العرب نسباً وأوسطهم حسباً، وقد كان له شأن يذكر عندهم يجري عليه الاختلاف إلى حدّ الاستعداد للقتال، وكان من شأن هذه الولاية عندهم أن تكون وراثية يتوارثها الابن الأكبر عن والده إن كان أهلاً لها، وإلا فأحد إخوته ممن يكون الاستعداد بادياً عليه لها.

أمّا بقية العرب، فقد ظهر الإسلام وقيادتها إلى مشايخها، فزعيم القبيلة أو رديفه الذي ينوب عنه في غيابه، ويجلس على يمينه في حضوره، هو الذي يتسلّم اللواء عند الحرب لتوافر مؤهّلات الرياسة فيه من كبر السنّ وسداد الرأي والشجاعة والنجدة والكرم والتضحية إلى غير ذلك من صفات الزعامة التي كانت انتخابية أكثر منها وراثية.

إذا عرفنا أنّ قبائل بذاتها كانت تحتكر اللواء كبني عبد الدار، وأن رتب الشرف والرياسة كانت موزعة على قبائل معينة، وأن الإسلام ظهر واللواء في آل حرب استطعنا أن ندرك أن اللواء كان يتوارثه بطون القبيلة الواحدة بحيث لا يخرج منها، أما صاحب اللواء من البطن أو القبيلة، فكان ينتخب إليه مستوفياً شروط الزعامة السابق ذكرها.

وقد وجدت في كتاب محمد حسين هيكل: الفاروق عمر ما يلي:

وقد تزوج الخطاب فيمن تزوج حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم وهي لخالد بن الوليد ابنة عم لخالد، فالمغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم جدّهما معاً، وكان المغيرة المخزومي سيداً من سادات قريش، وبطلاً من أبطالها، وكانت له إمارة الجند التي كانت لسيد بني مخزوم، وكان لذلك يلقب، صاحب الأعنة.

الباب الثاني

إمارة الجيش في عهد الرسول والخلفاء الراشدين

ويتضمن الفصول التالية:

الفصل الأول: إمارة النبي صلى الله عليه وسلم:

أ. إمارته الدينية للجيش.

ب. إمارته الدنيوية للجيش.

الفصل الثاني: إمارة الخلفاء الراشدين من بعد الرسول للجيش.

الفصل الثالث: صلاحيات أمير الجيش الإسلامي كما أصبحت واضحة خلال هذه الفترة.

الفصل الرابع: مواقف الرسول عيه السلام والخلفاء الراشدين من أمراء الجيش.

الفصل الأول

إمارة النبيّ صلى الله عليه وسلّم للجيش

محمد عليه الصلاة والسلام واحد من البشر دخل هذه الدنيا كما دخلتها أهلوه من قبل ولكن إرادة الله كانت تعده لقيادة أهل الأرض وفيهم أهلوه.

هذا الإعداد السماوي على وجه الأرض تميز بأشياء كثيرة ظهرت له عليه السلام فجعلت عنده هذه الميزة التي لا يتحصل عليها باقي البشر، وهذا الميزة هي الرسالة وليس من الحق في شيء أن تتعامل مع تاريخ حياة محمد عليه الصلاة والسلام من الناحية العسكرية والقيادية ونحن نغفل هذه الجهة الكريمة الصريحة الواضحة التي لا يتجادل فيها اثنان.

لقد أيد الله نبيه وثبت قدمه ونصره على أعدائه بالملائكة المنزلة، وفي ذلك يقول الله تعالى: "ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم"[1].

ووعده بالنصر حين أذن له في القتال دفاعاً عن النفس وردّاً لمادية المعتدين: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير"[2]، ولكن الخوارق وحدها لم تكن

---

(1) سورة آل عمران، 122-126.

(2) سورة الحج،39 .

أداة النصر والعامل الذي غلب به الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنَّ الذين يذهبون هذا المذهب إنما يسلبون الرسول الكريم قوته كقائد حربي، عنده فكره المستقل وملكاته الممتازة في إدارة شؤون المعارك والحرب، ثم أليس الله سبحانه وتعالى يقول: "ولكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً"، فكيف تتمّ الأسوة به عليه الصلاة والسلام إذا لم يكن لفنه الحربيّ الأصيل، ومواهبه العسكرية النادرة وقيادته الصحيحة الأثر العظيم في ظفره ونصره.

إن الخوارق والمعجزات كانت إيذاناً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله معه لا يتخلى عنه حتى يشحذ همته ويثير عزيمته وينبهه بكل ما فيه من حواس اليقظة والحذر إلى أعدائه المحاربين.

ثمّ ألا يوحي هذا في أن في محمد عليه الصلاة والسلام شيئاً آخر غير القيادة العسكرية المعزولة عن أي شيء آخر، سوى الأوامر الصارمة والتنفيذ الأعمى والحركة الآلية التي لا ارتباط لها فيما قبل المعركة ولا بعدها.

إنني أريد من ذلك أن أجعل له عليه الصلاة والسلام قيادتين وإمارتين، فالقيادة العامة الواسعة التي تشمل كلّ الأرض وكل المخلوقات هي قيادته كرسول ونبي لهذه الأمة ولأهل الأرض أجمع، وهناك قيادته العسكرية في هذا المجال فقط اختصاصاً من المجالات الأخرى العامة وفي كل قيادة من هذه القيادات كانت له عليه السلام هداية ونور ووعظ وإرشاد وتوجيه وأمر، عرفه المسلمون الأوائل فتعاملوا معه على هذا الأساس، فكان سراً من أسرار نجاحهم ونصرهم من عند الله العزيز الحكيم.

إمارة الرسول الكريم عليه السلام الدينية للجيش

"قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم"[1].

هذا نصّ قاطع من كتاب الله نرى فيه أنّ متابعته عليه الصلاة والسلام هي الفيصل بين النجاح والفساد والفوز والخسران، كما أنه بحسب متابعته تكون الهداية والصلاح والنجاح، فالله سبحانه وتعالى علق سعادة الدارين في متابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة.

وقد أقسم صلى الله عليه وسلم: بأن لا يؤمن أحد حتى يكون هو أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين، وأقسم الله سبحانه بأن لا يؤمن من لا يحكمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره ثم يرضى بحكمه ولا يجد في نفسه حرجاً مما حكم به ثم يسلم له تسليماً. وينقاد له انقياداً، وقال تعالى: "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم"، فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره صلى الله عليه وسلم، بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا أخفى أمره وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قولاً غيره سائغ الاتباع

(1) سورة آل عمران، 31.

لا واجب الاتباع[1]، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه بل غايته أن يسوغ له اتباعه ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصياً لله ولرسوله. فأين هذا ما يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته، ويجب ترك كل قول لقوله.

وإذا كانت سعادة الدارين معلقة بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، فيجب على كل من نصح نفسه وأحبّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلية، ويدخل به في إعداد أتباعه وشيعته وحزبه، ولا شكّ أن المسلم إذا تتبع السيرة على الوجه الصحيح لم يبق له شكّ في أن نبيه جاء بعمارة الدنيا والعمل للآخرة لا خراب العالم والانقطاع عن العمل.

بناء على هذا؛ فإنه لا إشكال على اهتمام الشريعة التي جاء بها الهادي بنظام الحياة الدنيا والآخرة معاً يقول صاحب التراتيب الإدارية[2]: "إن النبيّ العربيّ قد مدّن الشعوب ورقّى الأمم بما أسس لها من مباني العمران وسنّ من نظامات التقدم، وأنه يمرّ بك كثيراً أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بهذا الرقي والعمران بما أنزل الله عليه من آي ذلك وأساليبه، ولكن غفلوا عن ذكر كيفية تمشية ذلك النظام في ذلك الزمان وحراس تلك التمشية الذين كانوا يسهلون على الشعب العمل بآداب ذلك وأساليبه ويسهرون على تمسك الأفراد بها، وقد يقال لك أسأت الأدب، وقرعت أبواب العطب بذكرك في سمرك هذا المصطفى عليه الصلاة

---

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، ص17، ط الحلبي سنة 1970م.

(2) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، الكناني، دار إحياء التراث العربي، ص18.

والسلام نظامياً ملكاً وأصحابه قواداً وولاةً – قلت- هذا من ضيق العطن، ورمي الفطن، وإلا فالبشر كلهم بشر ولكن فيهم الصالح والطالح في بشريتهم والكامل والأكمل والنبيه والأنبه والرذيل والأرذل، فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائدهم لا كالقواد، وأميرهم لا كالأمراء لمكانهم من القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولسماعهم الوحي الطري والعلم الصحيح، كما أن المصطفى بشر لا كالبشر وملك لا كالملوك، وقد قال فيلسوف الإسلام الغزالي في الإحياء: ومن خصائصه عليه السلام أنه جمع له بين النبوة والسلطنة، وإلى كلامه هذا أشار الحافظ الأسيوطي في أنموذج اللبيب حيث قال: وجمع له بين النبوة والسلطنة ولم تجمع لنبي قبله.

ولما تكلم الإمام السهيلي في الروض على قول أبي سفيان للعباس لما حبسه في محتبس الوادي يوم الفتح لقد أصبح ملك أخيك عظيماً، ورد عليه العباس بقوله: أنها النبوة، قال فنعم، قال القاضي أبي بكر بن العربي إنما أنكر العباس ذكر ذلك الملك مجرداً عن النبوة مع أنه كان في أول دخوله في الإسلام وإلا فجائز أن يسمى مثله ملكاً وإن كان لنبي، فقد قال تعالى: " فشددنا ملكه " وقال سليمان عليه السلام: " وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي " غير أن الكراهة أظهر في تسمية حال نبينا ملكاً، لما في الحديث أنه خير بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً، فقال: بل نبياً عبداً.

وبقية خلق الله من القادة ليس لهم أن يختاروا شيئاً من ذلك فهم ملوك وأمثاله هذا إذا كانت العبودية لله مما يقر لهم في بال أو تسلم به نفوسهم.

فإمارته الدينية عليه الصلاة والسلام إنما تظهر في هذا الميزة الدينية التي كانت يعرفها

له أصحابه الأطهار، فإذا ما نازعتهم نفوسهم إلى شيء لا يرونه في رأيهم على ما يحبون وأرادوا أن يعرفوا سألوه عنه وهم يعلمون مقدار ما يتحملون(82) في سبيل ذلك.

فعندما فاتتهم الغنيمة التي ندبهم الرسول لها إلى ماء بدر، ويسر لهم مطراً أرسلته السماء سيرتهم إليها فلما جاؤوا أدنى ماء فيها نزل محمد به، وكان الحباب بن المنذر بين الجموع علياً بالمكان فلما رأى حيث نزل النبي، قال: يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة، قال عليه الصلاة والسلام بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزل ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، ولم يلبث محمد عليه السلام حين رأى صواب ما أشار به الحباب أن قام واتبع رأيه[1] فهذا الفصل الواضح بين إمارته عليه السلام الدينية والعسكرية هو الذي خول هذا الصحابي الجليل أن يسأل سؤاله، فإذا ما تعلق الأمر بالوحي وأمر الدين وأمر الله فلا مشاحنة في ذلك ولا سؤال.

وفي موقف الأنصار قبل بدر عندما استشار عليه السلام الناس فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، وسكت الناس فقال الرسول أشيروا علي أيها الناس

---

(1) حياة محمد، محمد حسين هيكل، ص261.

وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم، وأن يبايعوه على أعداء خارج مدينتهم، فلما أحسّوا بذلك قام سعد بن معاذ فقال: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت، فنحن معك... إلى آخر قوله، فالرسول عليه الصلاة والسلام يريد لإمارته الدينية للجيش أن تكون هي الأظهر.

ترى لو كان عليه الصلاة والسلام قائداً عسكرياً فقط أما كان بمقدوره أن يصدر أوامره بالحركة والضرب بالحركة والضرب دون أن يلوي على شيء آخر، أليست هذه هي صفات العسكرية المنفردة؟ وإذا ما حاول أحد أن يناقش أو يجادل أو يمتنع فجزاؤه معروف ومصيره إلى الله.

ونحن نسمع الآن شيئاً من حكم العسكريين وقادتهم، فعندهم العادة الأولى في دساتير العسكر نفذ الأوامر أولاً ثم ناقش، فما رأيكم لو كان في هذه الأوامر معصية لله ولرسوله، إن النبي القائد قال قولته المشهورة التي تخلو منها كتب العسكريين: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

إنه عليه الصلاة والسلام هنا يستشير أصحابه، لا بل يطلب منهم أن يكونوا هم الداعين إلى الحرب والسائرين إليها دون أن تكون هناك أحكام عرفية أو أوامر عسكرية أو مصلحة البلاد العليا أو أوامر القيادة الملهمة أو الخالدة وما إلى غير ذلك من ألقاب النفاق والكذب.

ولأن الجند يعرفون القائد نبياً ورسولاً من عند الله أحكم الحاكمين وخالق الإنس

والجن، فالاستجابة لأمره لها علاقة منفصلة عن الأوامر العسكرية، ألا وهي طاعة الله أولاً وقبل كل شيء في المنشط والمكره وفيما يحبون ويكرهون، فالحل سيان والأمر واحد "ومن يطع الرسول فقد أطاع الله "، "وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون"، "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً"، "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول".

فهذا الأمر في طاعة القائد خارج عن صلاحياته كقائد عسكري وفوق حدود رتبه، لأنّ هذا الثواب بأجمعه لن يكون إلا لطاعة قائد واحد في العالمين هو محمد عليه الصلاة والسلام. إن هذا الأمر ملحوظ في كل تصرفات الجنود المؤمنين تحت قيادة النبي القائد، ففي غزوة عبدالله بن جحش فتح عبدالله الكتاب بعد يومين، فإذا فيه "إذا نظرت إلى كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم"، فأعلم قائد السرية جنده بذلك، وقال: سمعاً وطاعة وبأنه لا يستكره أحداً فمن أحب شهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع وأما أنا فناهض فنهضوا كلهم[1].

وتم لهم ما أرادوا ورجعوا بأسيرين مع عير لقريش.

وأنا أتساءل: أفي القاموس العسكري من يوم أن قام العسكر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليه مثل هذه القولة: فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع؟

إن محمداً عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة، قال للراجعين: ما أمرتكم بقتال في

---

(1) زاد المعاد، ص94.

الشهر الحرام ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً وأسقط في يد عبد الله وأصحابه، وعنفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا، وكانت حرب قريش الدعائية حتى حسم ذلك رب العالمين على نبيه (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) [1].

وهذا التوقف عن أخذ العير والأسيرين وتعنيف المسلمين لأصحاب السرية إنما هو انتظار القائد النبي لوحي الله، فتسرع القائد العسكري غير موجود والأمر أكبر من ذلك، لأن عمل هذه السرية من الناحية العسكرية لا غبار عليه، بل هو مما يتفق مع الأهداف العسكرية لأي جيش يحارب جيشاً آخر في إضعاف معنوياته واقتصادياته التأثير على نفسياته ويوم حنين حرم عليه الصلاة والسلام الأنصار من الغنائم، فقال بعضهم لبعض: لقي والله رسول الله قومه، فلما بلغته هذه المقالة جمعهم، وقال: "أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار".

قال النبي هذه العبارات وكله تأثر، وكله فيض من الحب لهؤلاء الذين بايعوه

---

(1) سورة البقرة، آية 217.

ونصروه واعتزوا به وأعزوه، حتى بلغ من تأثره أن بكى الأنصار وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

والله إنه عليه الصلاة والسلام لا يحدث أحبابه الأنصار في حديثه هذا لهم وهو مختل بهم في حظيرة إلا لأنه يحبهم، ولم يخطر بباله في وقت من الأوقات أن يوجه إليهم أوامره القيادية العسكرية فترى الاستجابة لها هلعاً وخوفاً أو دماءً تسيل على ظبا السيوف من دمائهم يفعلها غيرهم، ولكنه عليه السلام يتحدث في معزل عن العسكرية، في الدائرة التي تشمل كل الدنيا، دائرة النبوة، ودائرة المحبة المغروسة في قلبه لكل المؤمنين أينما كانوا.

لقد كان تجاوب الأنصار سريعاً فما هم بالذين نصروا محمداً لمال يجمعونه أو لمصلحة دنيا يحصلون عليها، لا إنما بايعوه ابتغاء مرضاة الله، وليس يرضى الله أكثر من أن يكونوا مجاهدين في سبيله لا يأخذون من حطام الدنيا شيئاً يذكر، بل يأخذون كل الخير وكل المحبة وكل الصدق، نعم لقد عادوا بمحمد عليه السلام وهو أحب خلق الله إلى الله وفي طاعته ما يجدون وسيجزيهم الله بأحسن ما كانوا يعملون.

لقد بلغ من حبهم له أكثر من ذلك، فثوبان مولاه عليه السلام يأتيه يوماً وقد نحل جسمه وتغير وجهه وظهر الحزن عليه، فسأله عن حاله، فقال: يا رسول الله ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة فذكرت الآخرة، حيث لا أراك هناك لأني إن دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين فلا أراك فنزل قوله تعالى: "ومن يطع الله ورسوله، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً".

وقصة زيد بن الدثنة عندما أخرجته قريش من الحرم ليقتلوه فقال: والله ما أحب أن محمداً مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وإني لجالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[1].

وقال أيضاً عروة بن مسعود الثقفي[2]: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في مثل قوم محمد في أصحابه، لا نتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وما يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإنهم لن يسلموه لشيء أبداً، فروا رأيكم.

لقد كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يحبونه أكثر من حبهم لأنفسهم لأن حبهم له دين ولو لم يكن ديناً لأحبوه أيضاً، لأنه يستحق الحب والتقدير كله.

وإذا كان القائد في أي زمان أو مكان يستند في قيادته لجيش ما على السلطات والصلاحيات التي يخولها له القانون، سواء قانون الدولة أو قانون الأحكام العسكرية فإن القائد النبي عليه الصلاة والسلام كان يستند في قيادته إلى قانون سماوي من عند الله لا يأمر بطاعة جند لقائد فحسب، بل يجعله مقروناً بطاعة الله أيضاً "ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً"، "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم".

ومن مجموع ما ذكرت أرى أن قيادته عليه السلام الدينية للجيش لم يكن أحد يشاحنه

---

(1) محمد المثل الكامل، محمد أحمد جاد المولى، الطبعة الرابعة، الإستقامة.

(2) حياة محمد، ص370.

فيها بل كانت هي الأحب إلى قلوبهم جميعاً وكان لها النظر الأول في كل ما يريدون مناقشته أو يطلبون جزاءه، فإن كان في الأخرى فهو المراد وإن كان في الدنيا فقد حصل الثواب بشقيه في الدنيا والآخرة.

إمارة النبي صلى الله عليه وسلم الدنيوية للجيش

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً مقاتلاً يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عن عنها، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمران ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الإستشارة، وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والإنشاء، لأنّ القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع، وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام. وقد كانت غزوة بدر الكبرى هي التجربة الأولى للنبي عليه السلام في إدارة المعارك الكبيرة، فلم يأنف أن يستمع فيه إلى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذي نزل فيه، ثم وعى من تجربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى، فلو تتبع حروبه عليه السلام ناقد عسكري من أساطين فن الحرب في العصر الحديث ليقترح وراءه خططه مقترحاً

أو منبهاً إلى خطأ لأعياه التعديل[1].

ولم يتخذ النبي صلى الله عليه وسلم الحرب صناعته ولا عمد إليها إلا لدفع غارة واتقاء عداوة، فإذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعاً إليه فله فضل السبق على جبابرة الحروب الحديثة الذين تعلموها وعاشوا لها ولم ينقطعوا عنها إلى آخر حياتهم. ولقد كانت خبرته عليه السلام ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال فكانت طريقته في اختيار القائد وتزويده بالوصايا والاتباع مثلاً يحتذى في جميع العصور ولا سيما العصر الحديث الذي كثرت فيه ذرائع التخبئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة فكثرت فيه من ثم حاجة المقاتلين إلى استقصاء أحوال الأعداء.

وليس من الجائز لنا أن نعقد المقارنة بين المعارك التي جرت في زمانه صلى الله عليه وسلم وهذ التي جرت في هذا القرن وتجري اليوم بالنظر إلى ظواهر المعارك وإلى أشكالها أو أحجامها، لأنّ النظر إلى هذا خطأ فاحش، إذ إن من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف، وأن حرباً تدار باللاسلكي والمذياع والهاتف أعجب من حرب تدار بالفم والإشارة وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والإبل، وأن المدفع أمضى من السيف والرصاصة أمضى من السهم، إذن ففي موضوعنا لا بد من النظر إلى فكرة القائد التي بها نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة في القيادة ولا نراها في توجيه مليون بينهم الراجل والراكب ومنهم من يركبون كل ما يركب من

---

(1) عبقرية محمد، عباس محمود العقاد، نشر دار الكتب الحديثة.

مخلوقات حية وآلات مخترعة.

وهذه الفكرة التي ترينا محمداً عليه السلام قائداً حربياً بين أهل زمانه بغير نظير في رأيه وفي الانتفاع بمشورة أصحابه، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة في توجيه كل ما يتوجه على يدي قائد من قوة الرأي والسلاح والكلام، وهذه القدرة هي شهادة كبرى للرسول تأتي من طريقة الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال فمن كانت عنده هذه الأداء النافذة فاقتصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه، فذلك هو الرسول الذي تغلب الرسالة فيه على القيادة العسكرية ولا يلجأ إلى هذه القيادة إلا حين توجبها رسالة الهداية ويزيد هذه الشهادة عظماً أن الرجل يجتنب القتال في غير ضرورة رجل شجاع غير هياب[1].

وإذا أردنا أن نؤرخ لحياته العسكرية عليه السلام، فإنها على قصرها بعد الهجرة تكون سجلاً كاملاً لحياة حافلة تشمل تاريخاً لا ألمع منه في سماء الوجود الإنساني. فلقد أمر الله عز وجل رسوله عليه الصلاة والسلام بالهجرة وفرض عليه الجهاد وذلك في سنة إحدى من سني الهجرة وفي السنة التي نزل فيها الأذان وكانت سنة أربع عشرة من المبعث[2]، وكان ابن عباس يقول: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وهاجر عشراً، وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة.

---

(1) المصدر السابق، ص54.

(2)مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، ج2، ص285.

إذن؛ فإنّ بالإمكان أن نقول إنّ حياته العسكرية عليه الصلاة والسلام هي حياة الهجرة، وهي عشر سنوات فقط، وفي هذه السنوات العشر كانت كل غزواته وفتوحه عليه السلام.

في هذه السنوات العشر فقط بلغت غزواته بنفسه عليه السلام سبعاً وعشرين غزوة، كما ورد في سيرة ابن هشام يقول: حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام قال حدثنا زياد بن عبدالله البكائي، عن محمد بن عباس المطلبي: وكان جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعاً وعشرين غزوة منها غزوة ودان وهي غزوة الأبواء ثم غزوة بواط من ناحية رضوى ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع ثم غزوة بدر الأولى يطلب كرز بن جابر، ثم غزوة بدر الكبرى التي قتل الله فيها صناديد قريش ثم غزوة بني سليم حتى بلغ الكدر، ثم غزوة السويق يطلب أبا سفيان بن حرب، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة ذات الرقاع من نخل، ثم غزوة بدر الآخرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قريضة، ثم غزوة بني لحيان من هذيل، ثم غزوة ذي قرد، ثم غزوة بني المصطلق من خزاعة ثم غزوة بني لحيان من هذيل، ثم غزوة ذي قرد، ثم غزوة بني المصطلق من خزاعة، ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالاً فصده المشركون، ثم غزوة خيبر، ثم عمرة القضاء ثم غزوة الفتح، ثم غزوة حنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك.(90) قاتل عليه الصلاة والسلام في تسع غزوات هي: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف.

وفي مروج الذهب ما نصّه: هذا قول محمد بن إسحق، فأما ما ذهب إليه الواقدي فإنه

وافق ابن إسحاق في قتال النبي صلى الله فليه وسلم في هذه التسع غزوات، وزاد أن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل في غزوة وادي القرى، وذلك أن غلامه المعروف "بمدعم" رمى بسهم فقتل، وقاتل في يوم الغابة، فقتل من المشركين ستة نفر، وقتل يومئذ محرز بن نضلة، ففي قول الواقدي أنه قاتل في إحدى عشرة غزوة، وفي قول لابن إسحاق في تسع، فقتاله في التسع باتفاق بينهما، وزاد الواقدي على ما ذكرنا.

وقد قيل إن أول غزوة غزاها عليه السلام ذات العشيرة.

وقد تنازع من سلف من أهل السير والأخبار في عدة سراياه وبعوثه، فقال قوم: إن عدة سراياه وبعوثه بين أن قدم المدينة وبين أن قبضه الله خمس وثلاثون سرية وبعثاً، وذكر محمد بن جرير الطبري في كتابه في التاريخ قال: حدثني الحارث قال: حدثنا ابن سعد قال: قال محمد بن عمر الواقدي كانت سرايا النبي صلى الله عليه وسلم ثمانياً وأربعين سرية، وقيل إن سراياه صلى الله عليه وسلم وبعوثه كانت ستة وستين.

وفي التراتيب الإدارية[1]: قال في الاستيعاب أكثر ما قيل في ذلك أن غزواته بنفسه كانت ستة وعشرين غزوة وكانت أشرف غزواته وأعظمها حرمة عند الله وعند رسوله وعند المؤمنين غزوة بدر الكبرى حيث قتل صناديد قريش وظهر دينه من يومئذ وقد زاد المؤلف قائلاً: هاهنا نكتة لطيفة لشاعر مصر أحمد بك شوقي في سيرته:

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثت لقتل نفس ولا جاءت لسفك دم

(1) صفحة، 313، ج1.

جهل وتضليل أحلام وسفسطة	فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذي حسب	تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر أن تلقه بالخير ضقت به	ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم
علمتهم كل شيء يجهلون به	حتى القتال وما فيه من الذمم

أما عدد بعوثه فقال: قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب، كانت بعوثه صلى الله عليه وسلم وسراياه خمسة وثلاثين من بين بعث وسرية وقال غيره بلغت ستاً وخمسين كما ذكر الحافظ الدمياطي وقيل ثمانياً وأربعين وقيل سبعاً وأربعين، وقيل ستاً وثلاثين.

وابن الأثير يقول: كان آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة تبوك وجميع غزواته بنفسه تسع عشرة غزوة، قال الواقدي: هكذا يرويه أهل العراق عن زيد بن أرقم، وهو خطأ، لأن زيداً غزا مؤتة مع عبدالله بن رواحة وهو رديفه على رحله ولم يغز مع النبي صلى الله عليه وسلم غير ثلاث غزوات أو أربع، وقيل غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم ستاً وعشرين غزوة، وقيل سبعاً وعشرين غزوة فمن قال ستاً وعشرين جعل غزوة خيبر ووادي القرى واحدة، لأنه لم يرجع من خيبر حين فرغ من أمرها إلى منزله، ولكنه مضى منها إلى وادي القرى ومن فرق بينهما جعل غزواته سبعاً وعشرين جعل خيبر غزوة ووادي القرى غزوة[1].

(1) ابن الأثير، ج2، ص206.

وفي الرسول القائد[1]: أنه عليه الصلاة والسلام قاد ثمانياً وعشرين غزوة خلال سبع سنين بعد هجرته إلى المدينة، فقد خرج إلى غزوة ودان، وهي أول غزوة قادها عليه السلام بنفسه في صفر من السنة الثانية للهجرة، وكانت غزوة تبوك آخر غزواته في رجب من السنة الثامنة الهجرية، وقد نشب القتال بين المسلمين الذين بقيادته وبين المشركين أو يهود بتسع غزوات هي المتفق عليها آنفاً، بينما فرّ المشركون في تسع عشرة غزوة منها بدون قتال، ثم يعلق ما ورد في سيرة ابن هشام من أنه قاد سبعاً وعشرين غزوة فيقول إن ابن هشام لم يدرج غزوة بني قينقاع مع غزواته.

وعلى كل حال؛ فإنّ هذه المدة القصيرة جداً من عمر الزمن كانت كافية لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وكانت كافية في معاركها وغزواتها وحروبها ومخططاتها وفتوحها، لأن تكون النقطة الهامة في تحويل تاريخ البشرية من الجاهلية العمياء إلى نور الإسلام وهداه.

إنّ سبعاً وعشرين غزوة يقودها قائد بنفسه خلال سبع سنوات أي بمعدل أربع غزوات في العام الواحد كانت تكلف القائد جهداً عظيماً لوضع الخطط وترتيب الجيوش واحتلال المواقع وإبرام معاهدات الصلح.

وكم كانت هذه الغزوات تأخذ من وقته الكريم وهو الرسول المأمور بتبليغ رسالة رب العالمين إلى الناس أجمعين.

---

(1) محمود شيت خطاب، ص431.

ولو لم تكن هذه الغزوات وهذه الحروب كلها من صميم تبليغ الرسالة أفكان هناك من الوقت ما يكفي لتنظيم الدولة الناشئة وترتيب شؤونها ومن التشريعات والأحكام فيها. زد على ذلك حياته عليه السلام الخاصة، متى كان يقعد مع أزواجه وأولاده وأقاربه وأصحابه فيداعبهم ويمازحهم ويعطيهم حقاً كاملاً وهو عليه السلام ما نقص أحداً حقه أبداً، ولكن هذا النبي بما وهبه الله، وبما أمكن له من العبقرية والقدرة استطاع أن يجمع هذا كله في وقت واحد، وهو النبي والقائد العسكري الناجح دائماً وهو الأب والأخ والصاحب والصديق ورجل الدولة والسياسي والمفاوض والبشير والنذير وهو رحمة رب العالمين للناس أجمعين، وقد يستطيع الإنسان أن يسمو بفكره إلى درجة مثالية عالية، ولكنه من الصعب جداً أن يطبق المرء المثاليات تطبيقاً فعلياً في كل شؤون حياته وأكثر من ذلك صعوبة أن يطبق المرء تلك المثاليات في الأمور العسكرية والأعمال الحربية التي تتوقف عليها مطالب الأمم والشعوب، لأن حالة الحرب ليست من الحالات الاعتيادية، بل هي حالة شاذة ولا يستطيع الإنسان فيها أن يسيطر على أعماله في أغلب الأحيان.

وعلى كل هذا، فإنّ محمداً عليه السلام وهو القائد لأمته لم يخفق في أية معركة خاضها والمسلمون معه، حتى غزوة أحد لم تكن اندحاراً للمسلمين من الناحية العسكرية.

ترى لو لم يكن الرسول عليه السلام هو قائد المسلمين في معركة أحد فهل كانت تكون نتائجها خلاص المسلمين من الموقف الخطير الذي أحاط بهم من كل مكان وكذلك لو لم يكن الرسول عليه السلام هو قائد المسلمين في بدر والخندق وحنين، فهل كان ينتصر المسلمون في كل تلك الغزوات. إن الذي يدرس غزواته عليه السلام ومعاركه الكبيرة بإمعان

وبنظرة صدق ويطلع على مواقف المتحاربين ويدقق في تطورات القتال يجد بوضوح الأثر الشخصي الفعال لقيادة النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين، ذلك الأثر الشخصي الحاسم الذي لو لم يكن المسيطر الأول على سير القتال لتبدل وجه التاريخ الإسلامي عما هو معروف به الآن.

وليس من أحد يؤمن بالحق يستطيع أن ينكر ما لقيادته عليه السلام من أثر في توجيه المعارك زد على ذلك تأييد الله له تعالى بالنصر المبين بعد أن يقدم أكثر ما يطيق في المعركة.

لقد كانت انتصارات الرسول القائد عليه السلام تتلخص في أسباب رئيسية من قيادته العبقرية وجنوده المتميزين وحربه العادلة لأعدائه في سبيل إسعاد البشرية وهدايتها وأخيراً تردي الأحوال العسكرية عند الأمم التي التقى بها المسلمون في كل مكان.

لقد تحلّى عليه الصلاة والسلام بأكمل الأوصاف المعتبرة للقائد العسكري الناجح، بل زاد على ذلك بما لم ولن يستطيع قائد أن يتحلى به، لأنها لا بد تكون فوق طاقة البشر. ولقد لخص اللواء محمود شيت خطاب في كتابه الرسول القائد الصفات المثالية للقائد بما يلي:

القابلية على إعطاء القرار السريع الصحيح والشجاعة الشخصية والإرادة القوية الثابتة وتحمل المسؤولية بلا تردد، ومعرفة مبادئ الحرب، ونفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، وسبق النظر، ومعرفة نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم، ثقة قطاعاته به وثقته بقطاعاته، المحبة المتبادلة بينة وبين قواته، وشخصية قوية نافذة، وقابلية بدنية، وماضٍ ناصع

مجيد[1].

أما اللواء جمال الدين محفوظ في كتابه المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية فيقول[2]: هناك صفات معينة يلزم توافرها في القائد حتى يستطيع أداء مهمته بكفاءة، وأن يرفع معنويات رجاله، وأن ينجح في قيادتهم نحو الهدف المحدد وفي تحقيقه على أكمل وجه.

ولقد قام الباحثون بدراسة وتحليل حياة القادة العسكريين لاستخلاص هذه الصفات، والجدير بالذكر أن أحداً من القادة لم تجتمع لديه كل الصفات، وأن النقص في بعضها كانت تعوضه دائماً قوة في البعض الآخر، ويرى علماء النفس أن أهم صفات القيادة هي: أن يكون القائد قادراً وكفؤاً في عمله، وأن يكون دؤوباً على العمل وعلى بذل الجهد المتواصل، وأن يكون قادراً على تمالك نفسه وخاصة في المواقف العصيبة، وأن يعمل على تكامل شخصيته وتماسكها، وأن تتوافر لديه القدرة على التعليم، ويرى علماء النفس أيضاً أن الذين يعملون على إفادة أكبر جزء ممكن من المجتمع الإنساني يعتبرون أرقى الشخصيات تناسباً طردياً مع اتساع دائرة المجتمع الذي يرمي الفرد إلى إسعاده.

ومن جهة اليقظة، حسن المظهر، الشجاعة، الحسم، الثقة، قوة التحمل، الحماس، قوة التأثير، التواضع، الروح المرحة، المبادأة، النزاهة، الذكاء، الحكمة، العدل، الولاء، المشاركة

---

(1) الرسول القائد، ص434.

(2) صفحة278.

الوجدانية، اللباقة، إنكار الذات، إجادة التعبير والخطابة.

ثم يقول[1]: إذا كانت الصفات المثالية للقائد قد جاءت نتيجة لدراسة شخصيات أبرز القادة في التاريخ وهي مجموعة من مزايا شخصيات كثيرة لا شخصية واحدة حيث إنه ليس من الممكن أن تجتمع كلها في شخص واحد، فإن كل هذه الصفات بل وصفات أخرى غيرها قد اجتمعت في رسول الله صلى الله عليه وسلم قائد الجيش الإسلامي الأول، لذلك فهو المثل الكامل وهو القدوة المثلى كما يقول الله تعالى " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة".

ثم ذهب يعدد هذه الصفات المثلى فكانت لديه ما يلي: كمال الأخلاق، وكمال العقل وحسن السياسة، واحترام النفس والتواضع، والصبر وقوة الاحتمال والثبات على المبدأ، والوفاء والشجاعة والنجدة، واللياقة البدنية، وحسن العشرة، والثقة المتبادلة، روح الدعابة، التوازن النفسي، وبعد النظر والشخصية.

هذه الصفات المثلى التي يذكرها العسكريون والتي يستوجبونها في شخصية القائد حتى يكون ممتازاً ومثلاً يحتذى، وهي كلها كانت من صفاته عليه السلام بل وأكثر من ذلك، ذلك أن ما تمتع به عليه السلام من قدرات وتخطيط ومجاهدة وشجاعة مما لم يكن في حسبان أحد من البشر وخاصة أولئك الأعراب الجفاة الذين ظهر بين ظهرانيهم وقد كانت غزواتهم أخرجتهم إلى الغلظة والشدة والفظاظة وإلى استرخاص روح البشرية إلى أبعد الحدود بحيث

(1) المصدر السابق، ص279.

كانت حياة الإنسان لا تساوي شيئاً فتقضي عليها نزوة طائشة أو كلمة هينة أو عرف سخيف.

في هذا العصر الأعجف المائل عن طريق الحق كان القائد عليه السلام ينير بموهبته الطريق إلى الناس جميعاً للقائد العسكري في قيادته وللسياسي العمل في دولته وللعسيف والأجير في زرعه وأرضه وللخادم لدى سيده وللإنسان حيث كان في طريقه إلى خالقه، لم تشغله المشاغل المتداخلة والكثيرة عن أن ينسى في يوم من الأيام أنه المبعوث رحمة للعالمين أو أنه الرسول المبلغ لهذا الدين أو أنه ذلك الإنسان البشري بما فيه من طبائع وأخلاق وحاجات فطرية عليه أن يغذوها وأن يرعاها، بل كان جماع ذلك كله في توازن مستقيم لم يخرجه عن طور البشرية إلى الملائكية أو يهبط به إلى ما دون ذلك من منزلة. هذا الإنسان هو قدوة القادة ومثلهم الأعلى، وليت شعري لماذا يدرس العسكريون حياة بشر آخرين من دون محمد عليه السلام من الناحية العسكرية ليستفيدوا منها عظة وعبرة وهم من الناس الذين لا يوحى إليهم ولا يحملون نفس محمد عليه السلام وليس لهم من صلة إيمانية برب العالمين كصلته، وليس لهم من خلق عظيم كخلقه وليس فيهم من أدبه الله فأحسن تأديبه وعلمه فأحسن تعليمه ورباه على عينه مثل محمد عليه السلام.

إنّ الانزلاق عن طريق الحق يهدي إلى سبل كثيرة ومتشعبة يعقبها الضياع لا محالة، ولذلك عندما كثر الدارسون والمتدارسون لغير منهج الحق خرج كل واحد برأي ومنهج يغاير ما خرج به الآخر فاجتمع لدينا ركام من الدراسات المتضاربة والموغلة وأضلوا وضاعوا وأضاعوا وما للدارس إلا أن يتوجه إلى مدرسة الله في شخصية محمد عليه السلام العسكرية، فلقد كانت أنبل مُثُل في الوجود وأصدق مقياس في الحياة وأعلى جندية قيادية في التاريخ

وأيسر وأسهل وأفضل طريق يوصل إلى رب العالمين بأمان.

هذه الصفات التي وضعها البشر بعقولهم القاصرة التي ران عليها ما كانت تكسب وتريد كانت في رسول الله القائد دون أن يتعلمها منهم أو يدرسها في كتبهم وفنونهم ويمارسها في ميادينهم وتدريباتهم، لأنها أودعت فيه من الله خالقه وتعامل معها بقلبه في ميدان الرسالة والتبليغ وتعلم جميع فنونها من نظرته الثاقبة الحقة إلى الحرب ومتى تستعمل ولماذا يكون القتال ولماذا تقاد الجيوش والعساكر.

إنّ قائداً يقود قوته لينتصر فيها على عدو لا يكون باعث هذه الحرب سوى القتل والتدمير والاستيلاء والسيطرة والغلب والنشوة لا يعدو أن يكون وحشاً من وحوش الفلاة يسعى لافتراس فريسة يغذو بها جوع بطنه ويطفئ شهوة حيوانيته المهتاجة، وهو لذلك لا يدخر وسعاً في أن يستعمل كل شيء من فجور وقتل وتدمير ووحشية لبلوغ غايته.

ولكن قائداً كمحمد عليه السلام لم تكن بواعث الحرب عنده إلا دفاعاً عن كرامة الإنسان الذي وجد، وليهيئ له دوراً صافياً خالصاً بعيداً عن الضغوط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ليحسن التفكير في حاله وسبيله، وليعيش ما عاش هادئ البال مطمئن الضمير إلى مركزه ووجوده في الكون، إن هذا القائد – ولو لم يكن غيره في الوجود- هو المثل الذي يجب أن يحتذى، وأن يكون تاريخه العسكري هو قرآن العسكريين وهو سنتهم وإجماعهم وقياسهم، وبغير ذلك وعلى غير هذا الهدى فيظل العالم البشري يقاسي من ويلات الحروب والقادة والعسكر ما لم يخطر له ببال، ولن تهدأ له حياة أو يستقيم عيش.

ولو حاولنا أن نستقصي هذه الصفات المذكورة في سيرته عليه السلام لوجدنا عنده

أكملها وأوفاها، وتفصيل ذلك كما يلي:

1. القرار الحاسم والصحيح، وذلك أنه لا بد للقائد أن يصدر قراراً سريعاً حاسماً وصحيحاً ليبني خطة العسكرية استناداً إلى هذا القرار، ويعمل بموجب تلك الخطة في إدارة رحى القتال وهذا القرار يستند على عاملين أولهما القابلية العقلية للقائد، وثانيهما: حصوله على معلومات عن العدو وعن أرض المعركة.

وقراراته عليه السلام لم تكن تحمل المراجعة أو المناقشة، بل هي هي إن روجع فيها أو لا، ففي معركة أحد عندما شعر الناس أنهم قد استكرهوه عليه السلام في الخروج راجعوه في ذلك بعد أن لبس لأمته وحاولوا إقناعه بالعدول عن الخروج، فقال لهم قراره: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل وبعد انتهاء المعركة بليلة واحدة أذن مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو، وألا يخرج إلا أحد حضر يوم الأمس فكانت غزوة حمراء الأسد وفي غزوة بدر الآخرة بدا للمسلمين أن يجتنبوا الخطر فأظهر الكثيرون الرغبة عن النهوض والسير لبدر، لكن محمداً عليه السلام غضب لهذا الضعف والتراجع، وصاح بهم أنه ذاهب إلى بدر ولو ذهب لوحده[1]، وليس هناك من ينكر القابلية العقلية التي كان يتميز بها الرسول عليه السلام تلك القابلية التي لا يختلف فيها المسلمون وغير المسلمين فهو الذي بشر وأنذر وخاطب وناقش عقليات كبيرة ووحد أمة، فهل يمكن أن يتم ذلك إلا لعقلية راجحة ومنطق سليم[2]، وأما حصوله على

(1) حياة محمد، محمد حسين هيكل، ص312.

(2) الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ص435.

المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة، فكل ذلك كان يتم له عن طريق دوريات القتال والاستطلاع بالعيون والأرصاد واستنطاق الأسرى والاستطلاع الشخصي واستشارة أصحابه ذوي الرأي والخبرة في هذا الموضوع.

ولقد كانت أهدافه عليه السلام من غزواته وسراياه التي أرسلها قبل غزوة بدر الكبرى هو الحصول على المعلومات عن المنطقة المحيطة بالمدينة والطرق المؤدية إلى مكة والتعرف على سكانها وعقد الأحلاف معهم.

ولن يكون هناك في التاريخ كله قرار سريع وحاسم وصحيح مثل قراره عليه السلام في التخلص من اليهود الموجودين في المدينة حوله وبالقرب منه، ذلك أنهم أمة مكر وخداع وحقد وعداوة لا تندمل جراحاتها أبد الآبدين على كل خلق الله الذين يسعون ليكون لهم كيان مستقل أو على الأقل يسعون للخروج من استعبادهم لهم من ناحية المال أوالكسب أو غير ذلك.

لقد وادعهم أول نزوله المدينة وأعطاهم بذلك عهداً مكتوباً، ولكنه يعلم أن العهود مع هؤلاء القوم لا تجدي فتيلاً، فلن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، فمن أين يمكن أن يفوا بعهد أو يرعوا ذمة أو يرحموا جواراً أو يحترموا خلقاً إنسانياً، وهم أعداء هذا كله لا تستقيم حياتهم ما وجد الحقّ والعدالة والخير إلى جانب غيرهم، لذلك ما أن قويت شوكته حتى كان قراره الحاسم الصحيح بإجلاء بعضهم وتقتيل بعضهم والقضاء نهائياً على وجودهم الأعوج في الأرض المقدسة.

لقد سار على هديه هذا خلفاؤه، فطبقوا قوله عليه السلام: "لا يجتمع في الجزيرة دينان"، فكان لهم بناء الدولة الإسلامية على أسس صحيحة من أسسه عليه السلام، واستطاعوا أن يجدوا

من الهدوء والأمان في جزيرتهم ما مكنهم من نشر دينهم والخروج بعقيدتهم إلى العالم، ولو كان بقي اليهود هنا فلست مبالغاً إذا قلت: لن يخرجوا من جزيرتهم ولن يجدوا أماناً أو هدوءاً أو اطمئناناً ما غربت عليهم الشمس فيهم.

ترى ألا يعرف هذا القرار الحسم أحد ممن يتولون الأمر في أرض المسلمين والعرب؟ ألم يسمعوا؟ ألم يطلعهم عليه أحد؟ ألا يقدرون مدى نجاحه؟ ألا يعرفون آثاره في التاريخ القديم حتى بداية هذا القرن الأسود؟

لقد عادت يهود إلى ديارنا المقدسة لتكمل ذلك المخطط الرهيب الذي لا يبغي سوى القضاء على الإسلام وأهله واستعبادهم والاستيلاء على خيراتهم وإقامة الهيكل المزعوم على أنقاض الأقصى الشريف.

لقد عادوا ولن يهدأ لهم بال حتى نكون حميراً يركبوننا كلما نفق منا حمار ركبوا حماراً آخر..كما يقول تلمودهم فهل من مدكر؟

2. أما عن الشجاعة الشخصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فحدث عنها ولا حرج كل معاركه وغزواته عليه السلام لم يكن من شيء بارز فيها سوى شجاعته النادرة وإلا فكيف بربك تفسر لي قراره بدخول معركة بدر الكبرى والأمر كما علمت من كثرة العدو والعدة للمشركين ونقيضه للمسلمين وهي أول معركة حاسمة في تاريخ الإسلام عليها يتوقف توجيه التاريخ.

لقد نزل في هذه الغزوة بنفسه ليباشر القتال بنفسه وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " كنا إذا اشتد الخطب واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو". أما في أحد فلو فلم يثبت عليه السلام ويتدافع المسلمون بالدفاع عنه لكانت فناء أكبر

للمسلمين وفي حنين إذ أعجبت المسلمين كثرتهم ففاجأتهم هوازن وثقيف ففر من فر لا يلوي على شيء فثبت عليه السلام بشجاعته واجتمع عليه المسلمون فانقلبت المعركة على الأعداء، وقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً على فرس لأبي طلحة عربي والسيف في عنقه وهو يقول: "لم تراعوا" يكرر ذلك.

3. وأما إرادته القوية فهي معه من مبتدأ حياته لا يزحزحه عن الحق شيء، ولقد حاولت قريش أن تعبث بإرادته فعرضوا عليه ما عرضوا من الملك والأموال والنساء والطب وغير ذلك، فقال قولته المشهورة لعمه أبي طالب: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه".

وكذلك فقد تحمل جميع أذى قريش بجميع أنواعه وشتى وسائله في نفسه وأهل بيته وبناته وفي أقاربه وأصحابه وأتباعه محتسباً ذلك عند الله لا يغير ذلك من إرادته شيئاً، ولكنه يقول لآل ياسر: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة.

4. أما تحمل المسؤولية فلم يشاركه في حياته كلها على ضخامتها وكثرة أحداثها مما تنهد لها الجبال وتتزعزع لها النفوس الكبار، ولم يكن يشاركه أحد فيها وفي تحمل مسؤولياتها أن كل الناس العاديين يتحملون مسؤولية أنفسهم فقط ومن يلوذ بهم ومن هم مسؤولون عنهم شرعاً فينوء كاهل الواحد منهم من ثقل ذلك ويدعو ربه يا ليت أمي لم تلدني، ولكنه عليه السلام كان أعظم من ذلك، فقد كان يحمل هم أمته كله في دنياهم وكذلك أخراهم. لقد كان يذوب حزناً وكمداً عليهم وهم في غيهم لاهون، فيقول من قلبه المحب لهم: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون وهم يرمونه بالحجارة ويطلقون عليه صبيانهم وأوباشهم وكلابهم حتى إن رب العالمين يقول له:

"فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث آسفاً"، ويقول في موضع آخر: "فلا تذهب نفسك عليهم حسرات".

إنّ هذا التحمل للمسؤولية لم يكن ليطيقه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو رسولهم من عند ربه يبلغهم الهدى والدين، وهو لا يريد إلا أن يسوقهم سوقاً إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.. ألا يتقي الله قادتنا العسكريون فيكون لهم في رسول الله أسوة حسنة.

ثم هو يشعر عليه السلام أنه مسؤول عن كل صغيرة وكبيرة تحصل على أرض المسلمين فهو يراعيها وينظر إليها ويعمل جاهداً على إصلاحها.

5. وأما نفسيته التي لا تتبدل في حالتي النصر والإخفاق، فلست أرى أنه كان في حياته إخفاق وإن كنا نرى ذلك في أحداث بسيطة لا نعرف حقائقها، فلقد كان عليه السلام يحسن السيطرة التامة على كل تصرفاته لتكون موافقة للحق ورضا الله فلقد سيطر على أعصابه في أحلك المواقف وأعسرها يوم بدر وحنين، ويوم أن وقف أمام أهل مكة الذين طردوه وأخرجوه من بيته واهله وقف يقول لهم: ما ترون أني فاعل بكم فقالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال عليه السلام: اذهبوا أنتم الطلقاء وفي يوم الفتح هذا رآه المسلمون وقد أحنى رأسه على رحله وبدا عليه التواضع الجم حتى كادت لحيته تمس واسطة راحلته تواضعاً لله وخشوعاً.

ألا ترى معي في قولته للأنصار " فوالذي نفس محمد بيده لو لا الهجرة لكنت أمرأ من

الأنصار"[1] إن ولاءه لهم وحبه لهم لم يتبدل بفتح مكة ولقائه لأهله.

6. أما سبق النظر وهو بعده ونظره إلى ما هو أبعد من الحادث الصغير في الزمن اليسير فذلك من أسباب دعوته ودينه، فلقد كان همه الأول في معاركه كلها وغزواته وسراياه وبعوثه أن يوطد أركان دين الله أولاً ثم يأتي كل شيء بعد ذلك وما مجادلة عمر بن الخطاب له ولأبي بكر في صلح الحديبية وهو يقول فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعني[2]" إلا بعد نظر منه عليه السلام لم يكن ليعلمه عمر في يومه ذاك وهو الذي يقول بعد ذلك وبعد أن رأى نتيجة هذه المعاهدة يقول: "ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ، مخالفة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً".

وكذلك موقفه من عبدالله بن أبي في غزوة بني المصطلق وقد ازدحم أجير عمر بن الخطاب جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين فقال عمر: مر به عباد بن بشر فيقتله، فأبى ذلك عليه السلام وأمر الناس بالرحيل وأراد ابنه عبد الله أن يقتله فقال عليه السلام: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي فينا، وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن

---

(1) سيرة ابن هشام، ج4، ص142.

(2) المصدر السابق، ج3، ص331.

الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته قال: قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري.

7. أما معرفته للنفسيات والقابليات فقد كان رسولاً عاش بين قومه وعرف شأنهم ودخيلة أنفسهم وما يحبون وما يكرهون ودرس الرجال وعرف أقدارهم فكان يعاملهم على هذا الأساس، فلقد استمال قلوب المؤلفة قلوبهم بالمال بعد حنين، لأن المادة كانت تطغى على جوانب تفكيرهم حتى قال صفوان بن أمية: "ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه"، وحرم يومها الأنصار من الغنيمة ووكلهم إلى إيمانهم ولقد كان عليه الصلاة السلام يعرفان بين أصحابه من لا يقوى قلبه على الحرب كحسان بن ثابت فتركه مع النساء يوم أحد والخندق واستفاد من شعره البليغ، وكان يعرف أن من بينهم صاحب الرأي والمشورة، ومن بينهم من يستطيع قيادة غيره، ومن بينهم من لا يستطيع أن يكون أكثر من جندي بسيط، فكلف كل واحد من هؤلاء بواجب يستطيع إنجازه.

وقصته مع حاطب بن أبي بلتعة لا تحتاج إلى طويل برهان، وكذلك مع عكرمة بن أبي جهل.

8. أما الثقة المتبادلة فليس في جنده من لا يثق به أو حتى يفكر في ذلك

في سيرة ابن هشام[1] قال ابن إسحق: فحدثني يزيد بن زياد عن محمد ابن كعب القرظي قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبدالله رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا..الخ.

وفي يوم الحديبية على ما في الأناس من خوف وألم يجهدون منه من نصوص هذا الصلح وأبو جندل يصرخ: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، ولما انتهى الأمر دخل عليه السلام على أم المؤمنين أم سلمة وقال لها: هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا، فقالت: يا رسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك أمراً عظيماً في الصلح ورجع المسلمون من غير فتح، فهم لذلك مكروبون، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد، فإذا رأوك فعلت اتبعوك[2]، فقام عليه السلام إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، فلما رأى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون[3] ثقة بما يفعله عليه السلام.

وكذلك كانت ثقته بأصحابه، ففي أحد أمسك بسيف، وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجل فأمسكه عنهم حتى قام أبو دجانة، وسأل عن حقه فأخذه ولقد والله

(1) سيرة ابن هشام، ج3، ص242.

(2) نور اليقين.

(3) سيرة ابن هشام،ج3، ص333.

أدى حقه كاملاً غير منقوص.

وفي يوم حنين وقد اشتدّ الخطب، وبلغت القلوب الحناجر، وانهزم الناس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ما رأى من الناس: أين أيها الناس؟ فلم يلو الناس على شيء، فقال: يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة، قال: فأجابوا: لبيك لبيك لكامل ثقته في أهل السابقة من المهاجرين والأنصار.

9. أما المحبة المتبادلة بين الرسول وصحبه فإن الكلام كله بشعره ونثره وبيانه وفصيحه ليقصر أن يصف محبتهم له، فبماذا نصف أبو دجانة وهو يترس عن رسول الله في أحد، وماذا نقول عن نسيبة الخزرجية، وقد استشهد بعلها وولداها، فلما أفاقت من جراحها لم تسأل إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أليس هو القائل: لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله أحب إليه مما سواهما. وكذلك حبه لأصحابه لم يكن له حدود، فلقد نعى شهداء مؤتة وعيناه تذرفان الدمع، وكان إذا سلم عليهم لم يكن البادئ بسحب يده ويلقاهم دائماً متهللاً منفرج الأسارير معهم.

10. وأما شخصيته عليه السلام، فيكفي في القول فيها قول عروة بن مسعود الثقفي: "يا معشر قريش؛ إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه. والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإنهم لن يسلموه لشيء أبداً" هذا قول رجل لم يكن أسلم بعد وأنت ترى مقدار صدقه فليس من الممكن أن يسلمه أصحابه فهو الوالد لهم جميعاً والأخ لهم جميعاً الحليم الرؤوف المتواضع الذي لا يميز

نفسه عن أصحابه وهو رسول الله وأحب خلق الله إلى الله.

11. أما قابليته البدنية فيشهد لها صرعه لركانة واستنجاد أصحابه به يوم الخندق عند حفره كلما استعصت عليهم صخرة فيسرع إليها لتحطيمها.

12. أما ماضيه عليه السلام فليس لأحد من خلق الله أن يناله بسوء فلقد اختاره تبارك وتعالى من قريش وهي أشرف العرب ومن بني هاشم أشرف قريش وأفضلهم نسباً وسيرته في حياته قبل البعثة لم يكن فيها ما يشيبها فلقد كان معروفاً عند القرشيين بالأمين ولم يرتكب في حياته ما يشينه ولا سار في دربه مع كثرة وجوده وإباحته من غير حدود أو سدود.

وأعرف الناس به زوجه خديجة تقول له عند نزول الوحي: أبشر يا ابن العم فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر والله سبحانه وتعالى يقول (وإنك لعلى خلق عظيم)[1].

13. وأخيراً معرفته وتطبيقه لمبادئ الحرب: لقد ولد عليه السلام وعاش في مكة ولم يخرج في يوم من الأيام في بعثة عسكرية إلى كلية حربية يدرس فيها فنون القتال وأعمال الجيوش القيادة ولم يكن هذا موجوداً في عصره وعند قومه، ولكنه ما إن بعث الأمر بالجهاد وامتشق الحسام وخرج في سبيل الله محارباً حتى كان

(1) سورة القلم آية 4.

من أبرع المخططين للمعارك، ومن القادة الذين لا يعرف التاريخ غيرهم صادقين مخلصين فيهم من الإنسانية ما يجعلهم أبناء الإنسان.

إن حياته العسكرية القصيرة لا تخبرنا إلا عن قيادة نظيفة دقيقة محكمة تراعي وراعت كل شؤون الحرب التي يتقول فيها العسكريون، فمبادئ الحرب العشرة التي يذكرونها، وهي: اختيار المقصد وإدامته، والتعرض، والمباغتة وحشد القوة، والاقتصاد بالمجهود، والأمن، والمرونة، وإدامة المعنويات والأمور الأدبية كل هذه كانت في حسبان محمد عليه الصلاة والسلام، بل كان يزيد عليها مما لا يعرفه العسكريون إلا من بعده عليه السلام.

فلقد كان مقصده عليه السلام هو نشر الدعوة، ولقد أقام على هذا المقصد ولم يغيره وعلمه لأصحابه وجنده من بعده وعلمهم أن الحرب لله لا تكون إلا بهذا السبيل، وهي الحرب المشروعة، أما حروب العدوان والظلم من أجل متاع الدنيا وعروش الظالمين وأساليب حكمهم فليست من شرع الله في شيء، ومعنى ذلك ألا يكون الفرد جندياً فيها أو غير ذلك.

ولقد استمرت الحياة بالدولة الإسلامية وقادتها يوم أن كان هذا هو المقصد(106) ويوم تغير المقصد تغيرت عليهم الحياة بأجمعها فأصبحوا بعدها نهباً لكل قوي وغنماً لكل غانم.

على هذا الطريق تعرض عليه السلام لقتال الأعداء مباشرة لإبعادهم عن طريق الدعوة، لأنهم كانوا يسدونه ويمنعون دعوة الله أن تنتشر، وباغت هؤلاء

الأعداء وهم لا يزالون يعدون العدة للهجوم على جند الله دون جريرة ارتكبوها سوى أن يقولوا ربنا الله. لذلك كان من حنكته عليه السلام أنه إذا أراد السير لغزوة وَرَّى بغيرها، ثم يجمع كل طاقته العسكرية ويحشدها، لأن أمر الله هو هذا "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"، وإذا كان الأمر مما يمكن أن يقضي بواحد فلا يرسل اثنين ولكنه يعد للغزوة ما تستحق من رجال وعتاد ليحافظ بذلك على رجاله وما عنده وهو وسط جو مشحون بالعداء له، فليس من المنطق أن يجعل قواته كلها في اتجاه واحد ويترك باقي النواحي، بل كان ينظر إلى أمن قواته وحماية خطوطها والمحافظة على أسرارها.

وحركة هذه القوات لديه عليه السلام كانت سريعة جداً رغم بعد المسافات ومعاكسة الأجواء وفقر الحال وبعدها عن مركز القيادة فلقد وصل عليه السلام بقواته إلى دومة الجندل وتبوك ومؤتة في أقسى الظروف من ناحية الجو والتجهيز حتى لقد سميت غزوة تبوك بغزوة العسرة وقد كانت هذه الغزوات تنقسم إلى غزوات فرعية تدل على الخطة ومرونتها.

وفي باب التعاون كان قول الله تعالى: " إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص"[1] يفعل فعله في المقاتلين، وقوله عليه الصلاة والسلام: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه

---

(1) سورة الصف، آية 3.

عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"، فالأمر ليس أمر تعاون فقط، ولكنه تشريع يجعل الفرد مع الباقين لبنة في بناء انخرامها قد يهدم البناء ويطيح بما فيه.

هذه التربية الصادقة جعلت معنويات المسلمين لا ينتهي لها حد ولا تقف عند حد، بل هي موصولة الحبل مع الله ما دام الفرد موجوداً لذلك لم يكن من العسير على الفرد المسلم وقائده أن يضحي بكل ما يملك في سبيل الله طلباً لرضاه ورغبة فيما عنده من جزاء مقيم. ولذلك أيضاً كانت الأمور الإدارية عنده عليه السلام من السهولة بحيث لا تحتاج إلا إلى إشارة صغيرة منه عليه السلام ليقدم كل قادر ما عنده عن طيبة قلب للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته.

إن صفات القيادة الحقة هي التي تخلق المعنويات وتديمها ورحمة الله للأمة أن يهيئ لها قائداً يسير على درب محمد وجده.

ولا عجب أن يقول محمود شيت خطاب بعد ذلك: " ولست أعرف قائداً لأمة قديماً أو حديثاً امتلك صفات القيادة الحقة كما امتلكها الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ كان في صفاته ومزاياه رجلاً كما يقولون"[1].

لقد أتعب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من يريد التأسي بهم من المسلمين بعدهم، لقد ضحوا بكل شيء حتى بأبسط ضروريات الحياة في سبيل الله والمصلحة العامة قبل أربعة عشر قرناً، فأين منها تضحيات زعماء الشرق والغرب في

---

(1) الرسول القائد، ص458.

القرن العشرين ذلك الذين يتاجرون بالدفاع عن الفقير والعمل والفلاح في الظاهر وبالكلام على حين يعيشون في الحقيقة مترفين في رخاء عظيم على حساب المساكين وفي ضياع أعظم لأمتهم جميعاً.

وأنا أنهي هذا القول أحب أن أقول إن القائد محمداً عليه السلام لقد تميز بصفات فوق ما يذكره العسكريون لقادتهم فإنّ نبوته كانت نوراً يسير عليه وأصحابه، وهذه جعلت منه خادماً لهم فوق قيادته لهم فهو يشاركهم في كل شيء ولا يستأثر عنهم سوى الخطر الكبير ومضاعفة الجهد وتحمل المسؤولية والحرمان الشديد، فوضع بذلك قاعدة ما أشرفها، وهو أن يكون القادة مسخرون لخدمة قواتهم لا العكس الذي عليه الناس اليوم، فيحصل به التظالم وخروج الأشياء عن قصدها الذي خلقه الله لها.

لقد كانت قيادته عليه السلام قيادة مثالية رائعة في استعمال الأساليب الجديدة في الحروب كحرب الصفوف وحفر الخنادق والحرب الاقتصادية والحصار واختيار المواقع ومراكز القيادة والرسائل المختومة وكل ما يمت للحرب بصلة من قريب أو بعيد.

لقد وضع للحرب آداباً في أحاديثه الكثيرة، فتضمن تشريعاً ما عرفه ولن يعرفه أبناء الغاب الذين يتربعون اليوم على أعلى كرسيين في الشرق والغرب الماديين هؤلاء الوحوش الذين يغلو عندهم كل شيء مادي ولا يرخص سوى الإنسان فكل مادة عندهم تغلو ويرتفع سعرها أما مادة الإنسان فإنها في خسران متناقص إلى

الأدنى دائماً ولست أعتقد أن الجاهلية الأولى كانت ترخص في النفس البشرية بمثل ما تبيعها به هذه الجاهلية الجديدة.

ولن يغلو الإنسان وتعود له قيمته الحقيقية إلا عندما يعود القادة إلى منهج الله القديم ويقرأوا قوله تعالى: "ومن قتلها فكأنما قتل الناس جميعاً".

الفصل الثاني

إمارة الخلفاء الراشدين من بعد الرسول للجيش

كان الرسول صلى الله عليه وسلم إماماً للمسلمين في دنياهم وأخراهم يقوده في الأولى بما وهبه الله من تفكير وما استفاد من تجربة وما أوحى إليه الله وهو في هذ منهم في المقدمة ويقودهم في الأخرى ومبلغاً ومرشداً ومنذراً ورسولاً يتلو الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو في هذه أيضاً لا يبلغ شأوه أحد ولا يجاريه إنسان وهو بهاتين قد ملك على الناس دنياهم وأخراهم فهو عندهم كل شيء.

لذلك ما إن شاع خبر وفاته عليه السلام حتى فوجئ المسلمون بذلك وأسرع عمر إلى حيث كان جثمانه عليه السلام فكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به فحسبه في غيبوبة لابد أن يفيق منها فلما ألح عليه المغيرة وهو يقنعه بالحقيقة المؤلمة قال له كذبت وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح " إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجالاً وأرجلهم زعموا أنه مات".

هذا ما يقوله عمر بن الخطاب العاتي الشديد الفظ الغليظ الذي أرعب الدنيا بأكاسرتها وقياصرتها، في هذا الموقف توقف عمر كله بفكره ودهائه وشدته وقوته فإذا هو

يتكلم بكلام لا يرضاه منه أدنى الناس لمخالفته لكل الحقائق والوقائع.

واضطربت الجموع المسلمة وهي تسمع كلام عمر، ولكنه عليه السلام قد مات فأين الحل وأين المصير. يا لرهبة الموقف! وهم لم يحسبوا لهذا اليوم أي حساب ولكأنه طبع على قلوبهم فما كانوا يفكرون أن محمداً عليه السلام سيلحقه الموت وهم يتلون كتاب الله يقول له: "إنك ميت وإنهم ميتون ".

وإنهم لكذلك إذا أقبل أبو بكر بعد أن دهمه الخبر الفادح وبصر بالمسلمين وبعمر يخطبهم فأقبل على بيت النبي وتأكد بنفسه من وفاته عليه السلام فقبله، وقال: "ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً، ثم إنه أخذ رأس النبي بين يديه وحدق في معارف وجهه التي بقيت لم ينكرها عدوان الموت عليها وقال: بأبي أنت وأمي! أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً"[(1)].

ثم أقبل على الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس: إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين"[(2)].

ولكأن جميع من أسلم يومئذ لم يكن يسمع بهذه الآيات دهشاً من هول الحادث، ولا

---

(1) حياة محمد، ص506.

(2) سورة آل عمران، آية 144.

بد أن المسلمين قد انتبهوا بعد وقت إلى الحقيقة المرة المؤلمة، وأنه لم يعد من جدال في موضوع وفاته عليه السلام، ولكن الجدال في كيفية استمرار الحياة بعد اليوم بدون محمد عليه السلام فكان ما كان من أمر سقيفة بني ساعدة وتمت البيعة لأبي بكر الصديق خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا شك أنها كانت التفاتة شديدة وهزة عنيفة لأولئك النفر من أصحابه عليه السلام ولا بد شعر كل واحد من المسلمين أنه قد أصبح بعد اليوم يتيماً من الأبوين.

وتولى أبو بكر تجهيز النبي عليه السلام إلى قبره والناس في دهشتهم تلك.

وكان جيش أسامة بن زيد الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسله إلى الشام لا يزال في المدينة لم يغادر لأسباب من مرض النبي عليه السلام ومن أسباب أخرى ولم يكد المسلمون يفرغون من جهاز رسول الله ودفنه حتى أمر أبو بكر أن ينفذ جيش أسامة لغزو الشام تنفيذاً لما كان قد أمر رسول الله عليه السلام، وقد أبدى بعض المسلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدوا أيام مرض النبي عليه السلام وانضم عمر إلى المعترضين، ورأى ألا يشتت المسلمين وأن يحتفظ بهم في المدينة مخافة أمر قد يدعو إليهم، لكن أبا بكر لم يتردد لحظة في تنفيذ أمر الرسول، ورفض أن يستمع إلى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسن من أسامة وأكثر منه في الحرب دربة، وتجهز الجيش عند الجرف وأسامة على رأسه وخرج أبو بكر يودعه، وطلب من أسامة أن يعفي ابن الخطاب من الذهاب معه ليبقى في المدينة يشير على أبي بكر فأعفاه، وعاد الجيش بعد عشرين يوماً لم يلق سوءاً فعاد غانماً.

لقد أصبح أبو بكر الصديق خليفة رسول الله دون قيد أو شرط.

هذه الخلافة العامة التي لم تحددها حدود ولم ترسم لها خطوط ولم توضع لها قواعد

ولا سنت لها قوانين تحكمها ولا أوامر تنفذها ولا شكليات تقوم عليها. شملت كل ما كان يقوم به محمد عليه السلام من الشؤون الممكنة في هذه الحياة الدنيا فقط، فليس في مقدور أبي بكر أن يكون خليفته في التبليغ والرسالة، فقد انتهت هذه المهمة بوفاته عليه السلام وانقطع الوحي واكتمل الدين وقضي الأمر قضاء لا مرد فيه.

إذن فقد انتهى أمر الآخرة من دنيا الناس ولم يبق عليهم من مزيد وليس للناس إلا أن يتبعوا ما أرسله عليه الإسلام من قواعده وما وضع من تشريعاته لأخراهم.

فلم تبق إلا الدنيا يخلفه على عمله فيه وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهون العمل وأمره من أيسر الأمور وما أكثر ما توجد الحلول وبأشكال مختلفة لكل مشاكله وتعقيداته، وكانت إمارة الجيش إحدى هذه التركة التي خلف عليه السلام إشارات واضحة بأقواله وإشاراته وبعوثه وسراياه فترك الناس على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا كل هالك.

لقد رأى أبو بكر الصديق خليفة رسول الله أن دربه عليه السلام هي درب الله وهو لا بد له من سلوكه عليها فعض عليها بنواجذه من أول ساعة ألقيت إليه فيه هذه المهام الثقال التي لا يطلب العون عليها إلا من الله وحده.

فكان أن تولى إمارة المسلمين جميعاً ومن ضمنها إمارة الجيش الإسلامي، فأنفذ بعث أسامة ولم يسمح لأحد أن يتلكأ أو يراجع ورأى أن إنفاذ أمره عليه السلام هو أولى الأعمال التي يجب عليه أن ينفذها فوراً ونفذت بالفعل.

أعان الله أبا بكر على ما تولى وجزاه خيراً على ما عمل، فلقد كان خلفاً طيباً لسلف أطيب ولو كان لمحمد عليه السلام أن يتخذ خليلاً لاتخذ أبا بكر خليلاً.

إمارة الجيش زمن أبي بكر الصديق

لقد كان أول أمر أصدره أبو بكر الصديق بعد أن تمت له البيعة بالخلافة أن قال: "ليتم بعث أسامة، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف".

هذا الأمر العسكري أشغل أبا بكر أكثر من أي شيء غيره، فلقد غضب وهو الحليم واستولت عليه الدهشة وهو الوقور وهو يأخذ بلحية ابن الخطاب، ويقول مغضباً: "ثكلتك أملك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه".

إنّ هذا الحزم الواثق الصائب لم يكن هو المعهود عند أبي بكر، فلقد كان تصور الناس عنه رقيق القلب وادع الحاشية مطمئن الفكر لا ترنو نفسه إلى شدة ولا تأخذه الغضبة إلى هذا الحد بحيث يخيف ابن الخطاب.

لقد وقف بين المسلمين خطيباً بعد أن رد المعترضين منهم، وقال: "يا أيها الناس إنما أنا مثلكم وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فبايعوني، وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها، ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني(1)".

ولقد قال رضي الله عنه لفاطمة ابنة رسول الله حين طالبته بميراثها عن أبيها إني والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته".

---

(1) الصديق أبو بكر، محمد حسين هيكل، ص90.

فهذه الخطوط العريضة التي وضعها أبو بكر لسياسته في كل الميادين العسكرية منها وغير العسكرية هذه السياسة هي سياسة الاتباع لا الابتداع، وهو لا شك أهل لهذا الاتباع لطول صحبته له عليه السلام، فلقد صحبه منذ بعث إلى أن اختاره الله إليه، فهو مطلع على كل أسرار ودقائق حياته عليه السلام، ويعرف من حياته ما لا يعرف شخص آخر، وهو أيضاً صهر النبي عليه السلام في ابنته عائشة وما دام هو خليفة رسول الله وما دام هو متبعاً وليس بمبتدع فلن يكون هناك اختلاف كثير في سياسة القيادة العسكرية عما كانت عليه في أيام النبي عليه السلام، بل بقيت شروط القيادة كما تركزت ووضعت أيام الرسول دون أن يدخل عليها سوى تعديل طفيف أملته ظروف حرب الردة التي واجهت أبا بكر الصديق وأمضى مدة خلافته تقريباً وهو يخوض بالمسلمين غمارها حتى أظهره الله عليهم أجمعين.

ولقد كانت القيادة تتمثل في مستويين: مستوى القيادة العامة العليا وهذه تولاها الرسول بنفسه طيلة حياته وتولاها الخلفاء من بعده وكان مركز القيادة في المدينة واختلف وضع القيادة بعد وفاة الرسول عليه السلام، ففي عهده كان يتولى بنفسه قيادة الجيش ويواجه العدو ويضع الخطط، وكان عند خروجه يولي أمر المدينة واحداً من المسلمين الذين ارتقوا إلى مستوى هذه المسؤولية، فمثلاً عند الخروج إلى بدر جعل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس واستعمل أبا لبابة على المدينة واستعمل عليها نميلة بن عبدالله الليثي وقت قتال يهود خيبر.

إلا أن هذا الأمر لم يبق على عهده وحاله عند الخلفاء الراشدين ابتداء من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، لأن الخليفة ما كان يستطيع أن يترك أمور الدولة الناشئة ليخرج مع

الخارجين وخاصة أن الجيوش قد زادت عدداً وأن ميادين القتال قد تعددت، واستوجب الأمر أن يكون القائد العام في المدينة في مكان القيادة العامة يصدر منها الأوامر ويحرك منها الجيوش ويجهز منها الإمدادات، كما استوجب الأمر أن تتواجد في أرض المعركة قيادة مستقلة تتحمل وحدها عبء المعركة في الشام أو العراق أو مصر أو شمال إفريقيا وهي المستوى الثاني الذي تمثلت فيه القيادة.

وألفت هذه المسؤوليات الجديدة لاتساع ميادين القتال وتعدد جبهاته مهمة خطيرة على عاتق القائد العام، فأصبح مسؤولاً عن متابعة الأحداث وعن إمداد الجيوش وعن تنظيم أمور البلاد.

لقد تولى أبو بكر قيادة الجيوش بعد وفاة الرسول عليه السلام وتعرضت الأمة الإسلامية في بداية حكمه لفتنة الردة فقام لمجابهتها فأعد الجيوش وحركها للقضاء عليها، ثم أراد أن يصرف أذهان العرب إلى ما يعود عليهم وعلى الإسلام بالخير، ووصلته أنباء القتال الدائر بين المثنى بن حارثة والفرس، وأدرك أنّ الصدام بين الديانتين واقع لا محالة، فجهز الجيوش وحركها إلى العراق ولم يكن في استطاعته أن يتولى قيادتها بنفسه، فبحث بين المسلمين عن القادة الصالحين لهذه المهمة، وعندما بعث بالألوية إلى بلاد الشام اختار لكل جيش قائداً يثق به يؤمن بقدراته وإمكانياته، وظلّ هو في مكان القيادة يرقب العمليات ويعدُّ الإمدادات وينظم شؤون الفتح ويرعى أحوال الدولة في أمورها السياسية والاقتصادية وباقي شؤونها.

وعلى كل حال، فإنّ أبا بكر الصديق أثبت كفاءته القيادية للجيوش من أول لحظة لخلافته، وأثبت كذلك متابعته لهدي محمد عليه السلام في تصرفاته جميعها، فلقد خرج يودع

جيش أسامة وهو ماشٍ وأسامة راكب، وكأنما غلب أسامة الحياء أن يرى خليفة رسول الله يمشي وهو راكب فقال: "يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن، فقال أبو بكر والله لا تنزل وواالله لا أركب، وما عليّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة".

ثمّ وقف في هذا الجيش خطيباً، وقال: أيها الناس، قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا نفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله أقناكم الله بالطعن والطاعون.

وقال لأسامة وهو يوشك أن يتحرك بالجيش: "اصنع ما أمرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبل ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله ولا تعجلن لما خلفت من عهده".

ومضى هذا الجيش لشأنه وقصد وعاد ظافراً وبلغ ظاهر المدينة فتلقاه أبو بكر وجماعة من كبار المهاجرين والأنصار وتلقاه أهل المدينة أيضاً بالبشر والسرور.

لقد كانت خلافته رضي الله عنه كما يذكر المؤرخون كالطبري وابن الأثير سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال مع اختلاف في عدد الليالي غير الثلاثة أشهر، ومع هذا المدة القصيرة جداً من عمر الزمان فقد خرج رضي الله عنه يقود الجيش مرتين بنفسه وأمضى باقي وقته لا

هم له إلا تسيير الجيوش وترتيب الأمور الإدارية لها والقضاء على الفتن التي ألمت بجزيرة العرب بعد وفاة محمد عليه السلام. فلم يلبث أهل المدينة إلا ثلاثاً حتى زحف عليهم مانعوا الزكاة يريدون أن يضعضعوا من عزمتهم للقتال فيتجاوز الخليفة عن هذا الفرض من فروض الإسلام، وأحس العسس المقيمون على مداخل المدينة مأتى القوم، فنبهوا علياً والزبير وطلحة وابن مسعود ومن معهم من الرجال وأرسل هؤلاء إلى أبي بكر بالخبر، فأجابهم أن الزموا أماكنكم وخرج في أهل المسجد على الإبل حتى بلغهم ثم خرجوا جميعاً يواجهون هؤلاء الذين يريدون أن يلبسوا الليل للغدر بهم، ولم يكن يدور بخواطر أهل هذه القبائل أن سيقاومهم أحد بعد الذي عرفوا من أمر المدينة وأهلها، فلما فاجأهم أبو بكر ومن معه أخذوا فولوا الأدبار فاتبعهم المسلمون حتى ذي حسا[1]، وهناك دار بين الفريقين في غسق الليل قتال لم يتكشّف لأحد منهم أثره ونفرت إبل المسلمين عائدة إلى المدينة براكبيها.

وظنّت هذه القبائل من عبس وذبيان ومن ناصرهم بأنّ المسلمين قد هزموا، فاجتمع لهم جمع آخر من ذي القصة وقرّروا جميعاً ألا يذروا المدينة حتى يوادعهم أبو بكر على ما أرادوا.

في هذه الأثناء، كان أبو بكر القائد قد عقد مجلس حربه، فلم ينم ليلته تلك مع المسلمين الذين لم يناموا أيضاً، بل بقي وبقوا يتدارسون الأمر، علّ الله أن يجعل من بعد ضيق فرجاً.

(1) الصديق أبو بكر، ص97.

وفي الثلث الأخير من الليل كان القائد قد عبأ جنده ورتبهم وصفهم صفّ الحرب وجعل لهم ميمنة وميسرة وساقة، وأغذوا جميعاً السير، فما طلع الفجر حتى كانوا مع العدو في صعيد واحد دون أن يسمع العدو لهم همساً ولا حساً فوضع المسلمون السيف في رقاب القوم فما طلعت الشمس إلا وهذه الأحزاب قد تفرقت وولت الأدبار.

يقول ابن الأثير(1): قال عبدالله بن مسعود لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه، لولا أن الله مَنَّ علينا بأبي بكر، أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون وأن نأكل كل قرى عربية وأن نعبد الله حتى يأتينا اليقين. فعزم الله لأبي بكر على قتالهم فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية، فأما الخطة المخزية، فأن يقروا بأنّ من قتل منهم في النار، وأن من قتل منا في الجنة وأن يدوا قتلانا، ونغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذوا منا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم.

و في هذه الواقعة يقول زياد بن حنظلة التميمي:

غداة سعى أبو بكر إليهم	كمـــا يسعـــى لموتته حلال
أراح على نواهقهـــا عليا	ومج لهن من مهجته حبال

وقال أيضاً:

أقمنا لهم عرض الشمال فكبكبوا	كبكبة الغزي أناخوا على الوفر
فما صبروا للحرب عند قيامها	صبيحة يسمو بالرجال أبو بكر

---

(1) الكامل، ص231.

طرقنا بني عباس بأدنى نباجها وذبيان نهنها بقاصمة الظهر

ولقد كانت هذه أول غزوة غزاها أبو بكر بنفسه وكان النصر فيها حليفه بعون الله ولم يكن جيش أسامة قد عاد بعد من معاركه.

وعندما عاد الجيش إلى المدينة رأى أبو بكر في حصافته وتقديره للأمور ألا يريح أعداءه، وأن يضاعف من ذلتهم فقال لأسامة وجنده استريحوا وأريحوا ظهوركم، ثم استخلف أسامة على المدينة، ونادى في رجاله الأولين بالخروج معه إلى ذي القصة بقيادته للمرة الثانية، ويروي الطبري في تاريخه هذه الغزوة فيقول: فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرف نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلاً فإن أصيب أمرت آخر، فقال: لا والله، ولأواسينك بنفسي فخرج في تعبيته إلى ذي حسا وذي القصة، والنعمان وعبدالله وسويد على ما كانوا عليه حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فاقتتلوا فهزم الله الحارث وعوفاً، وأخذ الحطيئة أسيراً فطارت عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أياماً، وقد غلب بني ذبيان على البلاد، وقال حرام بني ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذ غنمناها الله وأجلاهم عنها.

ولكن ما هذا إلا بداية صغيرة لسنتيه الحافلتين بالأحداث الجسام فلقد ارتدت العرب وتضرمت الأرض ناراً وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشا وثقيفا، واستغلظ أمر مسيلمة وطليحة واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد، وارتدت غطفان تبعاً لعيينة ابن حصن فإنه قال: نبي من الحليفين: يعني أسداً وغطفان أحب إلينا من نبي من قريش وقد مات محمد وطليحة حي فاتبعته وتبعته غطفان، وجاءت الأخبار من كل صوت بانتقاض العرب

عامة أو خاصة وتسلطهم على المسلمين، ولا شك أن الصديق نظر حوله فوجد أنّ الأمر جدّ وأيّ جدّ، وأن هؤلاء الأعراب الذين انتقضوا عليه وارتدّوا عن الإسلام لم يكن لهم عذر في ذلك، ولكنهم ما زالوا حديثي عهد بالجاهلية والإسلام لم يأخذ بمجامع قلوبهم حتى يكون هداه هو هداهم وطريقه هو طريقهم.

لذلك كان الحزم من لين الطبع، دمث الخلق، الحريص على تألف القلوب بالحسنى غريباً، وأي غريب وها هو يستشير الصحابة في هذا الأمر، فيرى عمر ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله فيقول الصديق: والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه، وما يعتمّ عمر أن يقول: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق.

وبدراسة صادقة لحياة أبي بكر الصديق من ناحية قيادته العسكرية وكافة شؤونها لا نستطيع أن نجد فيها مغمزاً من قريب أو بعيد يطعن في عسكريته وكفاءته، فالشروط المطلوبة في القائد كلها موجودة فيه فلقد أثبتت وقائعه أنه كان ذا قابلية قوية في إعطاء القرارات السريعة والصحيحة يشهد له بذلك ما غزاه بنفسه رغم وجود جيش أسامة وفيه جلّ المسلمين من المهاجرين والأنصار في ثغور الشام فتقدم متحدياً جموع الغزاة حتى هزمها ولا يقدم على عمله هذا إلا كل جريء بعيد النظر عالم بهوى النفوس وطبائع الناس. وهو لذلك لا تنقصه الشجاعة الشخصية فمن مستهل خلافته ركب الجمل وخرج بليل يلقى الأعداء وفي غزوته الثانية رجاه المسلمون وألحوا في الرجاء ألا يعرض نفسه للعدو، ولكنه أبى وكان في المقدمة، ثم كان منه ما كان من الأوامر الصارمة الشديدة التي لا يحتمل لها غير تفسير واحد

في حرب المرتدين من القتل والتحريق وتشديد النكير عليهم، مما يدل على إرادته القوية الثابتة وتحملة المسؤولية بلا تردد، بل يجابه من يجادلونه في ذلك الأمر بما يقطع ألسنتهم ويجعلهم يذعنون له ويرون صواب رأيه، وكذلك فإن نفسيته لم تتغير ولم تتبدل، فما أن سمع الجارية تقول عنه: الآن لا يُحْلَبُ لنا منائح دارنا حتى قال: بلى لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه.

وإنّ بعد نظره في الإصرار على إنفاذ بعث أسامة رغم الظروف الطارئة التي تحيط بالمسلمين لدليل واضح على ذكائه وتوقد فكره ونفاذ بصيرته إلى ما هو أبعد من حدود يومه.

وفي تعيينه لقادة جيوشه وما جرى بينه وبي عمر بن الخطاب بخصوص خالد مما هو معروف في التاريخ لدليل على معرفته لنفسياتهم وهم جنده وهو يعاملهم بما يكسبه جهدهم وجهدهم، وإن في تشبث المسلمين به وهو يخرج إلى الغزو ليبقى بينهم يدبر الأمور لدليل أيضاً على مقدار ثهتهم به ثم إرساله البعوث والقيادات والوصايا لآخرين ثقة منه بهم كل هذا يوحي بأن أبا بكر الصديق كان ذا شخصية قوية نافذة يهابها حتى عمر بن الخطاب ويحسب لها ألف حساب وهو من هو في ماضيه الناصع المجيد.

وليس يخفى على ذي عينين ما تحمله أبو بكر في فتوح الشام والعراق، فلقد كانت كل هذه المعارك على عاتقه تولى هو تجنيدها وتعيين قادتها ووجهة كل جيش وأن يقف ويستمر وجهز الجميع بحوائجهم الإدارية وأوصاهم بالوصايا القيمة التي تدل على معرفة أكيدة بمبادئ الحرب وقد اتسعت وتطاولت وتكاثر فيها الجند وانبنى على ذلك آثار طويلة وكثيرة في شؤون المال وتوزيعه وشؤون البلدان المفتوحة وإدارتها يضاف إلى ذلك شأن كل فرد من

أفراد الأمة الإسلامية يومذاك يحمل أبو بكر همه.

بعد غزوته الثانية أقام أبو بكر بالمدينة لم يبرحها، ولا شك أن ذلك لم يكن رغبة منه عن مشاركة المسلمين في مواقعهم وجهادهم، ولكن لأن الأمر تغير تغيراً جذرياً وعميقاً عما كان يألف المسلمون من قبل.

فلقد اتسعت رقعة المعارك وتعددت وقد كانت في أيام الرسول الكريم لا تزيد عن معركة واحدة في الوقت الواحد، وكان من السهل جداً أن يقودها عليه السلام دون أن يخشى بأساً، أما الآن وبعد أن استراح بعث أسامة وعاد هو من غزوته الثانية فقد خرج بالناس إلى ذي القصة وعقد هناك أحد عشر لواء، وجعل على كل لواء أميراً، ثم أصدر إلى كل منهم أمره أن يستنفر من يمر به من المسلمين أولي القوة وأن يسير لقتال المرتدين.

ولا بأس من ذكر هذه الأولوية وقادتها:

1. لواء خالد بن الوليد وأمره بطليحة فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح أن أقام لهم.
2. لواء عكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة في بني حنيفة باليمامة.
3. لواء المهاجرين أبي أمية وأمره بجنود العنسي باليمن ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح ومن أعانه من أهل اليمن ثم يمضي إلى كندة بحضرموت ليقاتل الأشعث بن قيس والمرتدين معه.
4. لواء عمرو بن العاص وأمره بقضاعة في الشمال.
5. لواء حذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دبا لقتال ذي التاج لقيط بن مالك

الأزذي المتنبي في عمان.

6. لواء عرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة، وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهما على صاحبه في عمله.

7. لواء شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة بن أبي جهل وقال: إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاعة وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة.

8. لواء معن بن حاجز السلمي وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن.

9. لواء سويد بن مقرن وأمره بتهامة باليمن.

10. لواء العلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين لقتال الحطم ابن ضبيعة أخي بني قيس بن ثعلبة والمرتدين معه.

11. لواء خالد بن سعيد وبعثه إلى الحمقتين من مشارف الشام لاستبرائها.

ومما لا شك فيه أن أبا بكر الصديق وزع هذه الألوية توزيعاً يتناسب فيه عددها وإمارتها مع قوة القبائل المتجهة إليها، ومبلغ إلحاح هذه القبائل في الردة.

والسؤال الآن هو: كم من الوقت استغرق ترتيب هذه الجيوش وتعيين مساراتها ومعاركها وتأمين إعداداتها وتجهيزاتها؟ وكم كان علم أبي بكر في الفنون الجغرافية العسكرية حتى يوجه جيوشه هذه كلها على الجزيرة العربية بكامل أجزائها. إذ أن ثلاثة من هذه الألوية قد اتجهت إلى الشمال وما تبقى اتجه إلى الشمال الشرقي والجنوب والشرق.

وأخيراً؛ أفليست هذه الجيوش بحاجة إلى قيادة عامة تضمن لها استمرار الاتصالات وتوالي الإمدادات إن احتاج الأمر إلى إمداد وتجديد الأوامر والاتجاهات إن حصل ما يوجب

ذلك. لا شك أن المدينة المنورة أصبحت مكان القيادة المركزية العامة للجند كله والمرجع الذي تصدر منه الأوامر بالتحرك من مكان إلى آخر لذلك بقي أبو بكر الصديق في المدينة المنورة في مقرّ القيادة المركزية، وذلك إيماناً منه بأن وحدة القيادة في الحرب بعض ما تقضي به السياسة الحكيمة وما يكفل الغلب على الأعداء والفوز عليهم.

فهذه أول ناحية بدأ فيها التغاير عما كان في أيام محمد عليه السلام من أمر القيادة، فلقد أصبح القائد العام يقيم في القيادة المركزية ويقوم بتعيين أمراء الجيوش بنفسه ويعقد لهم الألوية إشارة إلى تعيينه لهم في هذا الأمر.

هذه الألوية الأحد عشر كانت جميعها للمهاجرين لم يشاركهم فيها أحد حتى من الأنصار، ألا يدلنا هذا على مقصد واضح في اختيارهم من الصديق.

لا شكّ أنه نظر نظرة ثاقبة في هذا الموضوع، وقد رأى أنّ المهاجرين هم من أكثر الناس اندفاعاً لنصرة دين الله، ولأنهم أولوا السابقة في الجهاد وأصحاب التضحية الأولى في سبيل الله يوم أن كان الجمع مستضعفاً والحيلة قليلة، ولكن هذا كله لم يفت في عضدهم أو يمنعهم أن يكونوا جنوداً لله. فهم بهذا أهل من ناحية السابقة في الإسلام، هذا بالإضافة إلى ما كان يعرفه عنهم من معرفتهم بالحرب، فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بعضهم في حياته كخالد وعمرو بن العاص وبعضهم له في الجاهلية تاريخ كعكرمة بن أبي جهل وباقيهم له فيهم خير صحيح.

بهذا تكون إمارة الجيش قد أصابها نوع من التنظيم الرسمي أكبر من حظ التجنيد عما كانت عليه في السابق، فقد تأسى أبو بكر برسول الله عليه الصلاة والسلام في كل أعماله لذلك

لم يكن ليعين قادة للجيش حتى يرى منهم ما يحب وأن يكونوا من أشد المخلصين لدين الله.

والقرآن الكريم يشيد بالذين أنفقوا أموالهم وقاتلوا في سبيل الله قبل الفتح، ويفضلهم على الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل مقياسه في الموازنة بين قادته وأمراء جيشه السابقة في الإسلام حتى كان أكثر أمراء النبي على سراياه من المهاجرين السابقين، ولقد حذا أبو بكر الصديق حذوه في تعيين القادة مشترطاً ما يجب أن يكون فيه أيضاً من بصر بالحرب وخبرة بأساليب القتال.

وكان الرسول إذا اختار قائداً دعاه إليه فعقد له لواء على رمح طويل ينشره أثناء مسيرته إلى المعركة، وغالباً ما كان القائد يستلم اللواء من يد الرسول ثم يركزه في المسجد النبوي، لينضوي تحته الراغبون في الجهاد وقد عد الخلفاء الراشدون عقد اللواء للقائد بمثابة تعيينه لأمرة كتيبة من الجنود[1].

والخلفاء الراشدون جميعهم قد أسندت إليهم قيادة الجيش، ولما تطورت الأحوال وتعددت الجيوش المقاتلة في البلدان المختلفة بعد وفاة محمد عليه الصلاة والسلام أصبح من الصعب على الخليفة أن يقوم بهذه المهمة بنفسه فأخذ يختار أصلح الناس لقيادتها ممن عرف بالشجاعة والنجدة والإقدام واشتهر بالذكاء وحسن التدبير، وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه لأنه يعتبر نائبه في القيادة وفي إمامة الصلاة وإذا اجتمع أكثر من قائد واحد في مكان واحد عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس فيصبح هذا القائد بمثابة "قائد

---

(1) النظم الإسلامية، الدكتور صبحي الصالح، 495.

القواد"، وإذا انتهى الفتح وتوقف القتال أصبحت مهمة هؤلاء القواد مقصورة على النظر في أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم وأسلحتهم كما هو المتبع في عصرنا الحالي. وكان ديوان الجند الذي استحدثه عمر بن الخطاب أكبر مساعد على تحسين نظام الجند وضبطه في الإسلام[1].

وهكذا فكل أمرائه رضي الله عنه على جيوشه كانوا من المهاجرين ما عدا المثنى ابن حارثة الشيباني.

يقول عبد الرؤوف عون[2]: كانت القيادة من واجبات الرئيس ولذا كان الرسول والخلفاء يخرجون للمعارك بأنفسهم، ولكن أوقات الخليفة كانت لا تسمح له بذلك وكانت تحتم عليه الظروف البقاء لإدارة دفة الحكم وتنظيم حركات الجيوش وإمدادها بحاجتها من الجند والعتاد، وفي هذه الحالة كان يبعث مكانه قائداً مستوفياً مؤهلات القيادة، وذلك بأن يدعوه إليه، ثم يعقد له لواء على رمح طويل ينشره أثناء السير للمعركة على نحو ما كان معروفاً عند الجاهليين، وأول لواء عقد في الإسلام ما رواه الإدريسي في التراتيب الإدارية من أن بريدة قد لحق بالرسول وأسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، قال فجعل عمامته ثم شدها في رمح ثم مشى بين يديه ثم دخل المدينة[3].

ثم كان بعد ذلك إذا بعث قائداً يعقد له اللواء وسلمه له بعد تسمية الله والنصح له

(1) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم حسن وأخوه، ص187.

(2) التراتيب الإدارية، ج1، ص317.

(3) الكامل، ص231.

فيركزه هذا في مسجد الرسول أو أمام بيته ليجتمع عنده الخارجون للغزو استعداداً للرحيل، وكذلك كان يفعل أبو بكر فقد ركز لواء القيادة العامة بمسجد الرسول وحوله اجتمعت القوات وهنالك سار إلى ذي القصة ووزع جنده وألويتهم على قادتهم.

وقد قرأت في تاريخ الخلفاء للسيوطي[1]: أخرج البيهقي في الدلائل عن عبدالله بن بريدة قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص في سرية منهم أبو بكر وعمر حتى انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمروا لا ينوروا ناراً فغضب عمرة فهَمَّ أن يأتيه فنهاه أبو بكر، وأخبره أنه لم يستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لعلمه بالحرب فهدأ عنه.

وأخرج البيهقي عن طريق أبي معشر عن بعض مشيختهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إني لأؤمر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب".

وأخرج أبو نعيم أن أبا بكر قيل له: يا خليفة رسول الله ألا تستعمل أهل بدر؟ قال: إني أرى مكانهم ولكني أكره أن أدنسهم بالدنيا.

رحم الله أبا بكر فإن أصداء كلمته من يوم ولي الخلافة: إنما أنا متبع ولست بمبتدع ولن أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته. هذه سياسة الخليفة الأول والقائد الثاني بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأبي بكر أكثر من كل إنسان أن يتخذها سياسته. فهو قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعث حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى ثم إنه كان

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص106.

يؤمن بالله ورسوله إيماناً لا يكبو ولا يتزعزع وكان لاتصاله القلبي برسول الله يعرف من أمره ما لا يعرفه غيره وهو وحده الذي قال فيه قبل يومين اثنين من وفاته: "إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه، وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده"، إن صحبته وإيمانه وإخاءه للنبي عليه السلام بلغت ما لم يبلغه عمر ولا علي ولا أحد غيرهما من أمس المسلمين صلة وقربى، فلا جرم كان اتباعه النبي صحيحاً سليماً صادراً عن إيمان جعله مطمئناً إلى أنه لن يخطئ ما اتبع الرسول، وبينة تجعله يسلك الطريق التي يرى أن الرسول كان لا ريب يسلكها.(1)

<u>إمارة الجيش زمن عمر بن الخطاب</u>

لم يمت أبو بكر الصديق إلا وقد اطمأن على المسلمين إذا ولى عليهم عمر بن الخطاب فأوصاه وهو على فراش موته: "اسمع يا عمر، أقول لك ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإنْ أنا متّ فلا تمسينّ حتى تندب الناس مع المثنى، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحنّ حتى تندب الناس مع المثنى، وإن فتح الله على أمراء الشام فارددْ أصحاب خالد إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم".

لكأنّ الصديق لم يكن يهمه أكثر شيء من أمور المسلمين إلا قياداتهم العسكرية والحربية، ولا غرو فلقد كان المسلمون في ذلك الوقت ينتشرون في العراق وفي الشام شرقاً

(1) الصديق أبو بكر، ص90.

وغرباً في وضع متّسع لا يعلم إلا الله مداه، أو أين تنتهي بهم هذه المعارك، ثم هؤلاء جلّة الصحابة والعرب كلهم في ميدان القتال، أفبعيد أن يهتم أبو بكر بهم ويوصي خليفته أن يكون أشدّ أمره مع المجاهدين في سبيل الله قبل كل شيء؟

لقد استخلفه أبو بكر ثقة منه بأنه أقدر المسلمين على متابعة سياسته، ولا سبيل إلى متابعة هذه السياسة إلا أن يأخذ الأمر بالحزم، وأن ينفذ وصية الصديق فيندب الناس مع المثنى إلى العراق، فلما كان الظهر وازدحم الناس للصلاة صعد عمر المنبر درجة دون الدرجة التي كان أبو بكر يقوم عليها، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وذكر أبا بكر وفضله، ثم قال: "أيها الناس ما أنا إلا رجل منكم، ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم ". ثم قال: إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم وأبقاني فيكم بعد صاحبي، فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلو فيه عن الجزء والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم"، ثم نزل فصلى بالناس، ثم التفت إليهم، فندبهم للذهاب مع المثنى فلم يجبه أحد، وتكرر هذا الأمر في اليوم الثاني فلم يجبه أحد أيضاً، وفي اليوم الثالث قام فقال: إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده، فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق[1].

يروي المسعودي[2] ذلك فيقول: وذكر الواقدي في كتابه في فتوح الأنصار أن عمر قام

---

(1) الفاروق عمر، محمد حسين هيكل، ص95.

(2) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، ج2، ص315.

في المسجد فحمد الله وأثنى عليه، ثم دعاهم إلى الجهاد وحثهم عليه وقال إنكم قد أصبحتم في غير دار مقام بالحجاز، وقد وعدكم النبي صلى الله عليه وسلم فتح بلاد كسرى وقيصر، فسيروا إلى أرض فارس، فقام أبو عبيد عمرو بن مسعود الثقفي وقال يا أمير المؤمنين: أنا أول من انتدب من الناس، فلما انتدب أبو عبيد انتدب الناس، وقيل لعمر: أمر على الناس رجلاً من المهاجرين والأنصار فقال: لا أؤمر عليهم إلا أول من انتدب، فأمر أبا عبيد، وفي حديث آخر أنه قيل له: أتؤمر رجلاً من ثقيف على المهاجرين والأنصار؟ فقال: كان أول من انتدب فوليته وقد أمرته أن لا يقطع أمراً دون مسلمة بن أسلم بن حريش، وسليط بن قيس، وأعلمته أنهما من أهل بدر ولكن أبا عبيد هذا قطع أمراً دونهما فانهزمت جيوشه في موقعة الجسر بعد أن استشهد هو وسليط، ولولا أن سليطاً يكره خلاف الطاعة لانحاز بالناس.

لقد كانت هذه أول مخالفة في سياسة عمر العسكرية من ناحية القيادة عن سياسة سلفه الصديق، فما كان أبو بكر ليولي غير المهاجرين رغم اعتراضات المعترضين وهمسهم، ولكن قد يكون لهذا القائد العام من عذر، وعذره كما يرويه الإمام الطبري بعد أن تخاذل الناس طويلاً عن الاستجابة لنداء القائد العام بالانتداب مع المثنى إلى العراق قال: فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر: أمر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار، قال: لا والله لا أفعل، إنما الله رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً، ثم دعا أبا عبيد وسليط وسعد ابن عبيد الأنصاري، فقال: أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إلى ما لكما من القدمة، فأمر أبا عبيد على الجيش، وقال لأبي عبيد: اسمع من أصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكفء، وقال رجل من الأنصار قال عمر رضي الله عنه لأبي عبيد إنه لم يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان، والله لولا سرعته لأمرته، ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث[1].

هذه أول إمارة للجيش يقوم عمر رضي الله عنه بإنفاذها كما رأى رغم إشارة أصحابه له بألا يؤمر إلا من كان ذا صحبة، ولكنه رأى أصحاب الصحبة قد تثاقلوا ونفر أبو عبيد خفيفاً فولاه عمر هذا الأمر، وأهل التواريخ كلهم يقولون إن أبا عبيد هذا هزم في الجسر.

إن عمر بن الخطاب كان رجلاً شجاعاً وقوياً ومصارعاً في شبابه وقبل إسلامه وقد كان الناس يعرفون ذلك منه فيهابونه، ولكن كتب السير والتاريخ لم تذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان قائد جيش أو سرية أو غزوة سواء قبل الإسلام أو بعده سوى مرة واحدة رغم اشتراكه في المواقع كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقربه منه أيضاً، ولكنه كان مستشاراً مسموع الكلمة ذا رأي مستقيم في كل شيء، أفكان هذا منقصاً من حقه شيئاً ومانعاً له أن يكون قائداً عاماً لجيوش المسلمين؟ لا ليس هذا بصحيح.

وتاريخ ابن الخطاب أيضاً لا يذكر لنا شيئاً عن خروجه قائداً عاملاً إلى ميادين القتال طيلة مدة خلافته التي زادت على عشر سنين.

---

(1) تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص61.

ولكن المسعودي يقول[1]: ولما قتل أبو عبيد الثقفي بالجسر شقّ ذلك على عمر والمسلمين، فخطب عمر الناس وحثهم على الجهاد، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق وعسكر عمر بصرار وهو يريد الشخوص، وقد استعمل على مقدمته طلحة بي عبيدالله وعلى ميمنته الزبير بن العوام وعلى ميسرته عبدالرحمن بن عوف، ودعا الناس فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير، ثمّ قال لعلي: ما ترى يا أبا الحسن؟ أسير أم أبعث؟ قال: سرْ بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له، فخرج من عنده، فدعا العباس في جلة من مشيخة قريش وشاورهم، فقالوا: أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة، وخرجوا فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف فاستشارهم فقال عبد الرحمن: فديت بأبي وأمي، أقم وابعث، فإنه إن انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك، وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً، قال: أشرْ علي من أبعث؟ قال: قلت سعد بن أبي وقاص قال عمر: اعلم أن سعداً رجل شجاع، ولكني أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب. قال عبد الرحمن هو على ما تصف من الشجاعة، وقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد بدراً فاعهد إليه وشاورنا فيما أردت أن تحدث إليه، فإنه لن يخالف أمرك، ثم خرج فدخل عثمان عليه فقال له: يا أبا عبدالله أشرْ علي أسير أم أقيم. فقال عثمان: أقم يا أمير المؤمنين وابعث بالجيوش فإنه لا آمن إن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الإسلام، ولكن ابعث بالجيوش وداركها بعضها على بعض وابعث رجلاً له تجربة بالحرب وبصر بها قال عمر: ومن هو؟ قال عثمان: علي بن أبي طالب

---

(1) مروج الذهب للمسعودي، ج3، ص317.

قال: فالقه وكلمه وذاكره ذلك، فهل تراه مسرعاً إليه أو لا؟ فخرج عثمان فلقي علياً فذاكره ذلك، فأبى عليّ ذلك وكرهه. فعاد عثمان إلى عمر فأخبره، فقال له عمر: ومن ترى؟ قال: سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل: قال عمر: ليس بصاحب ذلك قال عثمان: طلحة بن عبيد الله قال له عمر: أين أنت من رجل شجاع ضروب بالسيف رامٍ بالنبل، ولكني أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب. قال ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: سعد بن أبي وقاص فقال عثمان: هو صاحب ذلك ولكنه رجل غائب، وما منعني من ذكره إلا أني قلت رجل غائب في عمل، فقال عمر: أرى أن أوجهه وأكتب إليه أن يسير من وجهه ذلك فقال عثمان: ومره فليشاور قوماً من أهل التجربة والبصر بالحرب ولا يقطع الأمور حتى يشاورهم ففعل عمر ذلك وكتب إلى سعد بالتوجه ونحو العراق[1].

وكان اختياراً موفقاً، فقاد سعد القادسية وانتصر فيها.

ولا شك أن عمر بن الخطاب كان متبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر في كلّ شأن من شؤون الدولة الإسلامية، ولكن الأمر الآن خلا منهما والمسؤولية كلها على عاتقه فعملها، وكان أكرم من حملها بعد صاحبيه فوضع لقواده دستور الحرب أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم أعدائها كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده[2]، فكان دستوره في الحرب أن يضع الأسس العامّة ويعهد في تنفيذها إلى ذي خبرة وأمانة، ولا

---

(1) مروج الذهب، ج3، ص318.

(2) عبقرية عمر، عباس محمود العقاد، ص99.

يتخلى عن تبعته العظمى في مصائر الحرب كلّ التخلي اعتماداً على القائد وحده، إذ ليس القائد وحده هو المسؤول الوحيد عن مصير معاركه، فإذا رأى القائد رأياً وخالفه هذا في رأيه أعانه بالمدد والمشورة ليقنعه بالرأي الذي دعاه إليه، وكان إلى جانب ذلك لا يغلّ يد القائد فيما يحسن أن تنطلق فيه، فإذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين وفكّ الحصار وانتظام الهجوم، فمن حقّ القائد عنده أن يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع إليه، وأن يجري في إدارة المعركة على الوجه الذي تمليه ضرورة الساعة، ولهذا استشاره أبو عبيدة في دخول الدروب خلف العدو، فكتب له: "أنت الشاهد وأنا الغائب، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت بحضرة عدوك وعيونك تأتيك بالإخبار، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صواباً فابعث إليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم".

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدايتها ويرافق حركاتها ساعة بساعة ويوماً بيوم وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة وهو بعد هذا لا يعفي نفسه من التبعة ولا يعفي القائد من واجب الرجوع إليه في المواقف الحاسمة، وهذه السياسة الحاسمة التي سار عليها عمر هي السياسة التي لا يستطيع حاكم أن يجري على غيرها في حرب قديمة أو حديثة، فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد في الميدان، وجعلت رستم يقول: "أكل عمر كبدي"[1].

(1) المصدر السابق، ص102.

إن عمر وهو يواجه هذه الحركة العسكرية الضخمة للفتوح الإسلامية والتي لم يشهد لها العرب مثيلاً في تاريخهم جعلته يبدو وكأنه في مركبة دائرة لا تقف أبداً، فجيوش المسلمين تطوي أملاك الفرس وتجوس خلال الشام ووجد نفسه مقبلاً على عمل ضخم هو مواجهة أكبر دولتين في العالم المعروف حينذاك: الدولة الفارسية والدولة البيزنطية اللتين تنبهتا إلى خطر المسلمين فاتخذتا العدة للقضاء عليهم أو ردهم إلى بلادهم، هذا الأمر الباهظ يحتاج إلى كل ما يمكن لمساندته، ولذا رأيناه يشتد في طلب الجند فيقول: "ولا تدعوا في ربيعة ولا مضر ولا حلفائها أحداً من أهل النجدة ولا فارساً إلا جلبتموه، فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه".

فبدأ يضع القواعد الأساسية للنظام العسكري، ومن أهم ما وضعه الديوان.

ولكن ما لنا ولذلك ونحن بصدد أمر القيادة فقط، فلقد قام عمر بأمرها كاملاً من مركز قيادته في المدينة واضطر بعد وقت لموافقة قادته على إنشاء قواعد استراتيجية تكون ملجأ للمسلمين، فكانت الكوفة والبصرة وكان لعمر أربعة آلاف فرس في الكوفة [1] عدة للحرب والقتال، وكان قيمه عليها سلمان بن ربيعة الباهلي وبالبصرة نحو منها وفي كل مصر من الأمصار الثمانية على قدرها.

ومظاهر التنظيم [2] التي أضفاها عمر على الجيش الإسلامي وقادته كثيرة وقد أخذها جميعها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع تعديل يتلاءم مع حاجة المسلمين بعد اتساع

---

(1) تاريخ الأمم والملوك للطبري، ج4، ص196.

(2) النظم الإسلامية الدكتور صبحي الصالح، ص492.

رقعة الدولة وكثرة الفتوح، ولعلنا لا نخطئ إذا رددنا رتبتي النقيب والعريف إلى العصر النبوي، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي اختار ليلة العقبة الثانية اثني عشر نقيباً ممن وفد إلى مكة من أهل المدينة وجعلهم كفلاء على الناس مشرفين على العرفاء، وهو الذي قسم أصحابه عرافات وجعل على كل عشرة منهم عريفاً، وقد ذكر ذلك الطبري خلال حديثه عن القادسية، موضحاً أن سعد بن أبي وقاص عرف العرفاء، فجعل على كل عشرة عريفاً كما كانت العرافات أزمان النبي صلى الله عليه وسلم.

ويبدو أن عمر عوّل على هذا النظام النبوي في العرافات صدراً من خلافته كما عوّل على ذلك قبله أبو بكر، إذ كتب على سعد بن أبي وقاص قبيل وقيعة القادسية يقول: إذا جاءك كتابي هذا فعشّر الناس وعرف عليهم، وأمر على أجنادهم وعبهم ومر رؤوس القوم فليشهدوا، وقدرهم وهم شهود، واجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة.

ولو ذهبنا نستقصي أهمّ الرتب الباقية من كتب التاريخ الموثوقة لوجدنا أن الجيش عرف على عهد عمر رتبة الخليفة على خمسين جندياً، والقائد على مئة، وأمير الكردوس على ألف، وأمير الجيش على عشرة آلاف أو تزيد، وكان عمر بنفسه أشرف على تدريب الجند في الحمى القريب من المدينة، وصحب معه نعات الخيل الخبراء فيها، فللفاروق عمر يرجع الفضل في إنشاء الجيش الإسلامي وتنظيمه للدفاع عن دين الله الحنيف.

ترى هل غير عمر شيئاً مذكوراً من خطة تعيين أمراء الجيش عما كان عليه أبو بكر من اختيار أهل الهجرة والسابقة في الإسلام؟

إن عمر لم يغير ذلك، ويدلنا على هذا ما حدث مع القائد عتبة بن غزوان قائد معركة

الأبلة، فبعد أن انتصر فيها عبر النهر على أثر جيش الفرس المنهزم وتعقبه واستولى على دست ميسان وأخذ مرزبانها أسيراً وبعث بمنطقته إلى المدينة، وعرف عمر ممن حمل المنطقة إليه أن العرب بالعراق شغفوا بأنعم الدنيا حباً فخشي مغبة ذلك عليهم ودعا إليه عتبة يسأله عما أصابهم واستخلف عتبة مجاشع بن مسعود على الجيش والمغيرة بن شعبة على الصلاة، فلما عرف عمر استخلافه مجاشعاً أظهر الغضب منه وقال له: تستعمل رجلاً من أهل الوبرعلى أهل المدر، أتدري ما يحدث؟ وذكر له أن المغيرة بن شعبة هزم الفرس بالمرغاب، وأنه برغم انتصار مجاشع بالفرات قد أسند أمر الجند إلى المغيرة، حتى لا يكون لبدوي إمارة على قرشي أو على رجل من أصحاب رسول الله إذن فهذه هي خطته واضحة كل الوضوح وما حصل من تعيينه لأبي عبيد فهو ذاك الذي اعتذر به ولم يعد لغيرها.

من جماع ما ذكرنا نرى أن عمر بن الخطاب في اختياره للقادة قد وضع أسساً واضحة يسير عليها من خلفه أن اتقوا الله، فمن شروطه الأول: أن يكون القائد صحابياً، وفعله مع صحابته أوضح دليل على ذلك، لأن الصحابة بصورة عامة كان لهم تجارب طويلة ومفيدة في ميادين القتال تحت لواء الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده، ثم إن إيمانهم العميق كان يجعلهم يقدمون على المعركة ببسالة منقطعة النظير، لذلك كان القتل فيهم أكثر من غيرهم وتشهد له بذلك معركة اليمامة فقد قتل من المهاجرين والأنصار فيها ثلاثمائة وستون شهيداً ومن غيرهم ثلاثمائة رجل.

وليقين المثنى بهذا الأمر فلقد غضب عندما استأثر خالد بن الوليد بالصحابة الذين كانوا مع المثنى بنفسه بعد أن أعطى المثنى مثل عددهم ممن لم يكن له صحبة مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم، واستأثر لنفسه أيضاً بمن كان قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وافداً تاركاً للمثنى أيضاً مثل عددهم من أهل القناعة فقال المثنى والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رأى خالد منه ذلك أرضاه.

والثاني أنّ عمر كان يفضل السابقين الأولين من الصحابة على غيرهم، إلا إن قصر بهم عملهم، فكان يفضل عليهم حينذاك من برز بأعماله وفرضه للعطاء ويتضمن صورة واضحة من ذلك.

والثالث أنّ عمر كان يضع الخبر بشؤون الحرب وإدارتها موضعاً ملازماً للصحبة تقريباً، فقد أوصى أبا عبيد أن يكون مكيثاً غير متهور، وامتنع عن تأمير سليط لعجلته وأعجبه في سعد ابن أبي وقاص أنه شجاع رام.

والرابعة أنّ عمر كان ينظر إلى شخصية القائد ويريده دائماً أن يكون مسيطراً ذا شخصية نافذة على كل من حوله، فقد سأل يوماً أصحابه قائلاً: دلوني على رجل استعمله فسألوه: ما شرطك فيه؟ قال: إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم، ولذلك فقد عزل شرحبيل بن حسنة عن إمارته وقام بعذره في الناس قائلاً: إني لم أعزله عن سخطة، ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل. وكان يقول إني لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه.

لهذه كله نجحت قيادة عمر ونجح قادة عمر وقاموا في التاريخ بأنصع صفحة حرب سجلوها بدمائهم في سبيل إعلاء كلمة الحق ونصرة دينه.

لقد كان الرسول عليه السلام هو أبا الجيش الإسلامي الأول ومؤسسه وقائده ورائده ومنظمه ومصلحه وباعث كيانه وموطد أركانه وراسم أهدافه ومخططها، وتابعه في ذلك خليفته أبو بكر الصديق، ثم جاء عمر بن الخطاب القائد الفذّ فسار على النهج واشتد فيه، فكان مثلاً أعلى لمن يريدون أن يحكموا باسم الله ودين الله.

إن مزايا القائد العسكري الفذ كلها كان متوفرة في عمر فهو سريع في إعطاء قراره الصحيح وشجاع بكل ما تحمل الكلمة من معنى وذو إرادة قوية ثابتة عرفها له المسلمون قبل بيعته وحسبوا لها ألف حساب بعدها ولقد راجعوا أبا بكر فيها، ثم تحمل مسؤولية جسيمة وكان لها أهلاً من أول يوم، فأثبت بجدارة ناصعة أنه على علم بمبادئ الحرب بما كان يرسمه ويخططه لقادته في الميادين وهو في مركزه وبما يزودهم من نصائح وأوامر الحرب، ومع كل هذا فلم تتغير له نفسية وبقي هو عمر ينام في زاوية المسجد حتى ليعجب من ذلك الهرمزان، ولقد اعترف قادته جميعهم ببعد نظره وسبقه في منعهم من ملاحقة الفرس في جبالهم وأمره لهم بفتح دمشق أولاً، لأنها رأس الشام وفي تعيينه لأمراء جيشه كان يعرف نفسية كل واحد منهم فهو يحاسبهم عليها ويعطيهم حقوقهم كاملة ثقة منه بهم وثقة منهم به، فهو إنما يتولى أمر المسلمين لا أمره هو وهو إنما يتاجر للمسلمين، فحيثما وجد الربح باع واشترى فأحبوه حباً جعل أبا طلحة يقول لما أصيب عمر: ما من أهل بيت من العرب حاضر ولا باد إلا قد دخل عليهم بقتل عمر نقص[1]، ولقد أورد السيوطي أنّ الطبري أخرج عن طارق بن شهاب قال: قالت

(1) الفاروق القائد، محمود شيت الخطاب..

أم أيمن يوم قتل عمر: اليوم وَهَى الإسلام[1].

لقد كان ذا شخصية نفاذة قوية في كل جوانبها وهوصاحب الماضي المجيد.

هذا هو عمر بن الخطاب القائد المغوار الذي نظم الفتوح وسعى في توسيعه ما وسعه الجهد، فما قصر ولا استكان في يوم من أيامه، وإنما بقي جلداً صابراً محتسباً كل عمله في سبيل الله، فلقد وصل والله، وصدق ابن مسعود حين قال: "كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت إمارته رحمة".

أورد السيوطي أن ابن أبي شيبة أخرج في المصنف عن حكيم بن عمير قال: كتب عمر بن الخطاب: ألا لا يجلدن أمير جيش ولا سرية أحداً الحدّ حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان أن يلحق بالكفار.

ولقد أقعد أبا موسى الأشعري لأحد جنده يقتص منه في ضربه أسواطاً وحلق شعره[2]، يرحمك الله يا عمر.

ولست أراني مغالياً أو مجانباً للحقيقة بعد كل هذا إذا قلت: إن قواعد الإمارة العسكرية بعد عمر ما كانت تسير إلا على درب واضحة وخطة مسلوكة معروفة، فلا جديد يضاف إلى سجلاتها ولا حديث يعهد منها سوى خروجها على درب تقوى الله لخدمة مصالح العباد، فلا جديد في الأمر في عهد عثمان أو عليّ أو غيره.

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص136.

(2) القضايا الكبرى في الإسلام، عبد المتعال الصعيدي، ص114.

الفصل الثالث

صلاحيات أمير الجيش الإسلامي كما أصبحت واضحة خلال هذه الفترة

لم يأذن الله لأحد بأن يكون أسوة لخلقه إلا لخيرهم محمد صلى الله عليه وسلم، فلقد قام بما ارتضاه له من إمارة يحرسه بعينه ولا يقره على مخالفة بسيطة في أي شأن من شؤون المسلمين، فاختار أمراء سراياه ومغازيه وأوصاهم وبين لهم الطريق الذي يجب أن يسلكوه وحدود المعارك التي عليهم أن يخوضوها ونوع الأعمال التي يجب أن يقوموا بها، ولذلك كان يحاسبهم على الصغيرة والكبيرة ففي سرية عبدالله بن جحش بعد حصول المعركة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فقال عليه السلام، ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم هلكوا.

قال ابن هشام: وهي أوّل غنيمة غنمها المسلمون. وكانت أول الغزوات التي قام فيها أميرها باستعمال صلاحياته في قسمة الغنائم. ولم يزد الأمر عن ذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل معاركه الكبيرة كان هو قائدها ويتصرف كما يرى في كل شؤونها، وأما سراياه الأخرى فلم تخرج عن أن يكون هناك شيء من الفيء والغنائم يتولى الأمير قسمتها، ثم يعودون جميعاً إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي عام الوفود، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم صرد بن عبدالله الأزدي

فأسلم وحسن إسلامه في وفد من الأزد، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبل اليمن[1]، فخرج صرد بن عبدالله حتى نزل بجرش وهي يومئذ مدينة مغلقة وبها قبائل من قبائل اليمن وقد ضوت إليهم خثعم فدخلوها معهم حين سمعوا بسير المسلمين إليهم، فحاصروهم فيها قريباً من شهر وامتنعوا فيها منه، ثم إنه رجع عنهم قافلاً حتى إذا كان إلى جبل له يقال له شكر، ظن أهل جرش أنه إنما ولى عنهم منهزماً فخرجوا في طلبه، حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً شديداً.

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب ملوك حمير مقدمة من تبوك رسولهم إليه بإسلامهم فأرسل عليه السلام رسله إليهم وأن أميرهم معاذ بن جبل، وأمره أن ييسر ولا يعسر، وقال في كتابه إليهم عليه السلام: أو إن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم الرسول وصفيه... الخ كتابه الكريم.

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني حارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا فاقبل منهم وإن لم يفعلوا فقاتلهم فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون أيها الناس أسلموا

---

(1) سيرة ابن هشام،ج4،ص233.

تسلموا فأسلم الناس. فكتب خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ القوم قد أسلموا ولم يقاتلوا وإنه مقيم بين أظهرهم يأمرهم بما أمره الله به وينهاهم عما نهاهم الله عنه وعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي عليه السلام، فكتب إليها الرسول عليه السلام أن بشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث إليهم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقاتهم، وينهى إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطفوا بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له إلى آخر ما ورد في كتاب النبي عليه السلام إلى عمرو.

قال ابن اسحق، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث امراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان، فبعث المهاجرين أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، فخرج عليه العنسي وهو فيها، وبعث زياد بن لبيد أخا بني بياضة الأنصاري إلى حضرموت وعلى صدقاتها وبعث عدي بن حاتم على طيء وصدقاتها وعلى بني أسد وبعث مالك بن نويرة – قال ابن هشام: اليربوش- على صدقات بني حنظلة، وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم، فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم على ناحية، وكان قد بعث العلاء بن الحضرمي على البحرين، وبعث علي بن أبي طالب رضوان الله عليه إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم ويقدم عليه بجزيتهم.

وفي غزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل عندما بعث عمرو إلى الرسول يستمده

فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر وقال لأبي عبيدة حين وجهه: لا تختلف، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو: إنما جئت مدداً لي، قال أبو عبيدة: لا ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا، فقال له عمرو: بل أنت مدد لي، فقال له عبيدة ياعمرو: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي: لا تختلفا وإنك إن عصيتني أطعتك، قال: فإني الأمير عليك وأنت مدد لي: قال فدونك، فصلى عمرو بالناس.

من جماع ما ذكرت من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تظهر لنا بجلاء صلاحيات أمير الجيش لعهده عليه السلام فهي إنما تنحصر في الأشياء التالية:

1. إمامة الصلاة وهي أولاً قبل كل شيء وهي دلالة الإمارة وإشارتها.
2. قسمة الفيء والغنائم على ما أشار إليه القرآن الكريم.
3. مقاتلة من يليه من أهل الشرك، ذلك أن رسالة الله وتبليغها من أهم الواجبات وأولاها.
4. الدعوة لدين الإسلام وتبليغ رسالة رسوله إلى الناس.
5. إقامة الحدود وشعائر الإسلام وتنفيذ أحكامه في المخالفين وهذا أمور القضاء.
6. جمع الصدقات واستلام الجزية وصرفها في سبيلها المشروع.
7. هذه الأمور الستة هي التي يمكن أن تكون صلاحيات أمير الجيش في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد وصلت إليها وليس أحد يستطيع أن يشكك في أن

هذا الأمير إنما كان يتولى كل صلاحياته هذه نيابة عن الرسول في شؤون الدين والدنيا، فالأمور الإدارية بمعناها المتعارف عليه في عصرنا الحاضر لم تكن بالوضوح الذي نعرفه الآن، ولكن الأمير كان يقوم بكل شأن ويفصل فيه إن كان يستطيع ذلك فوراً، وإلا أرسل إلى محمد عليه الصلاة والسلام يسأله رأيه فيما زاد عن ذلك وجهل أمره، وهذا معاذ بن جبل حين سأله عليه الصلاة والسلام إلى اليمن يسأله بم يحكم فيقول بكتاب الله ثم بسنة رسوله ثم يجتهد رأيه.

وحكومة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن حكومة دينية فحسب بل كانت حكومة سياسية أيضاً، فقد كان يقود الجيوش ويفصل في الخصومات ويجبي الأموال، ومن ثم كان يجمع في يده السلطتين الدينية والدنيوية، والسلطة الدينية هنا بمعنى النبوة والرسالة، والسلطة الدنيوية هي الحارس والمنفذ والحفظ لتلك السلطة الثانية، إذ كان الفرض الأول الذي بعث الرسول الكريم من أجله هو نشر الدعوة الإسلامية إلى العالمين.

وقد وضع الرسول نواة النظام الإداري[1]، فقد كان يبعث إلى القبائل التي دخلت في الإسلام من يقرئها القرآن، ولما هاجر إلى المدينة وضع نظام الدولة الإسلامية على ما تقدم، فكان ينيب عنه عمالاً على القبائل وعلى المدن، وكان على كل مدينة كبيرة بالحجاز واليمن وعلى كل قبيلة كبيرة عامل من قبله وكانت وظيفة هؤلاء العمال الإمامة في الصلاة وجمع الصدقات.

فلما توفي عليه الصلاة والسلام وقام أبو بكر بالأمر من بعده كانت خطته وأهدافه

---

(1) النظم الإسلامية تأليف حسن وعلى إبراهيم، ص152.

تحقيق سنة الرسول عليه الصلاة والسلام والسير على منهاجها سيراً دقيقاً.

فقد كان يوصي أمراءه أولاً وقبل كل شيء بتقوى الله وإقامة الصلاة والتمسك بسنة محمد عليه السلام، ثم يوصيهم بأشياء تنفعهم في مجابهة العدو ولقياه.

وأبو بكر رضي الله عنه هو واضع شروط الإمارة للجيش في أن يكون مهاجراً ومن السابقين، وهو الذي منع الاستعانة بالمرتدين من العرب بعد حروب الردة في الفتوح.

وهو الذي كان يتخير قادته أيما اختيار، ولا يسمع فيهم كلاماً، ولنضرب على ذلك مثلاً بخالد بن الوليد الذي لم يستمع فيه أقوال عمر وأبي قتادة، بل قال عندما ضاق ذرعاً بإلحاح عمر لا يا عمر: ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين.

وبناء على ذلك؛ فإنّ صلاحيات أمراء الجيش في أيام أبي بكر لم تزد شيئاً عما كانت عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك لانشغال الأمراء جميعاً في الجهاد وتبليغ رسالة الإسلام إلى الأمم المجاورة، فكانوا إذا فتحوا بلداً انتقلوا إلى غيره دون أن يتمركزوا فيضطرون إلى إقامة الأعمال الإدارية وغيرها، بل كان ينحصر عملهم في الجهاد والقتال وما يتبع ذلك من تبعات الأسرى والغنائم وقسمتها ومراءاة أمر الجنود والمحافظة عليها.

ثم جاء عمر بن الخطاب وقد اتسعت في عهده الفتوح في العراق والشام ومصر وإيران، فكان لا بد من وجود مشاكل الإدارة في البلاد المفتوحة وظهور صلاحيات أمير الجند واضحة كل الوضوح حتى يستطيع كل أمير من القيام بمهامه دون تداخل مع مهام أمير آخر.

فكان أمير الجيش في عهد عمر يتولى الحكم السياسي والإداري، فهو الإمام في الصلاة والحاكم الإداري المنفذ لمصالح المسلمين فيما بينهم وفي الأراضي المفتوحة وهو القاضي

الذي يفصل في خلافات الناس حيثما انتهوا إليه. لذلك فطاعة القادة كانت واجبة كطاعة الخليفة نفسه، لأنه يعتبر نائبه في القيادة وفي إمامة الصلاة، وإذا اجتمع أكثر من قائد في مكان واحد عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس فيصبح هذا قائد القواد.

وإذا انتهى الفتح وتوقف القتال أصبحت مهمة هؤلاء القواد مقصورة على النظر في أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم وأسلحتهم وكافة شؤونهم.

على كل حال فقد كان هؤلاء الأمراء يلون في أول عهد عمر ما يليه هو بالمدينة، فيجمعون بين سلطان القضاء والتنفيذ وإمارة الجند، على أن عمر ألفى نفسه بعد قليل من ولايته قد شغلته شؤون الدولة العامة وسياستها العليا عما كان قد عوّل يوم بويع على أن يضطلع هو به من تفرده بالأمر كله وحده، وعدّ الإذن لأحد بأن يلي منه شيئاً، وذلك لكثرة ما يرده عن أمر الجند ومواقفهم ومعاركهم في العراق ومثلها وأكثر منها في بلاد الشام ومصر وغير ذلك، زد على هذا أن مصالح الناس بالمدينة المنورة كانت تزداد تشابكاً وتعقيداً بازدياد عدد ساكنيها وكثرة المال الذي يرد عليها، فكان تقدم الفتح وما يقتضيه من تنظيم لشؤون البلاد التي تم الاستيلاء عليها يدعوه أن يكتب إلى أمراء جنده بما يعنّ له من آراء في هذا التنظيم، لذلك لم يكن بدّ من أن يولي أعواناً له يقضون مصالح الأفراد فيما لا تتأثر به مصلحة الدولة، وكان أول ما صنعه من ذلك أن فصل قضاء المدينة عن سلطته وأقام أبا الدرداء عليه وجعل له اسم القاضي.

وعلى هذا المقياس كان أمراء الجند في العراق والشام، تشابكت المصالح وكثرت المشاكل وأخذ الجهاد وترتيب الجند منهم كل وقتهم تقريباً، فلم يبق عندهم ما يكفي من

الوقت للنظر في خلافات الناس وفضّ مشاكلهم والتفرغ لترتيب شؤونهم الإدارية والمالية.

بناء عليه ولقناعة القائد الأعلى بذلك وبعد أن تم تمصير الكوفة والبصرة وأقام العرب فيهما وكثرت المنازعات بين أفرادهما جعل قضاء الكوفة لشريح، وقضاء البصرة لأبي موسى الأشعري، ولما فتحت مصر جعل القضاء فيها بين المسلمين لقيس بن أبي العاص السهمي[1].

فكان فصل السلطة القضائية عن أمراء الأجناد في البلاء المفتوحة أول الصلاحيات التي أخذت منهم، بل أعفوا منها حتى يتم لهم التفرغ لما هم فيه من أمر الجهاد وتبليغ رسالة الإسلام.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، فإنّ مصالح الناس وشؤونهم لا تنتهي عند أمر القضاء والجهاد، بل هناك أمور كثيرة أوجدتها الفتوح كمسح الأراضي والإشراف على بيوت مال المسلمين في كلّ مصر من الأمصار وهذه الأمور أيضاً جعلت عمر يفكر فيها فرأى أن يفصلها عن أمراء الأجناد وعين غيرهم، فقد روى أبو عبيد القاسم بن سلام قال: حدثنا الأنصاري محمد بن عبدالله قال أبو عبيد: ولا أعلم إسماعيل بن إبراهيم إلا قد حدثناه أيضاً عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي مجلز لاحق – بن حميد- أن عمر بن الخطاب بعث عمار بن ياسر إلى أهل الكوفة على صلاته وجيوشه وعبد الله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم وعثمان بن

(1) الفاروق عمر، محمد حسين هيكل، ج2، ص223.

حنيف على مساحة الأرض، ثم فرض لهم في كل يوم شاة بينهم[1].

وهكذا؛ فإن عمر بن الخطاب لاتساع رقعة الدولة قسم أرجاءها إلى ولايات وجعل أمير كل ولاية يسمى عاملاً، ومعنى عامل يفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة، بل هو تابع لمن استعمله، وفي ذلك يقول الطبري[2]: حدثنا أبو كريب قال حدثنا أبو بكر بن عياش قال: سمعت أبا حصين قال: كان عمر إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول إني لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أشعارهم ولا على أبشارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل، وإني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم.

وهكذا؛ فإن هذه السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها أمير الجيش قد أخذت تنقص من أفرادها شيئاً فشيئاً فبعد أن كان عتبة بن غزوان يولي مجاشع بن مسعود على الجيش خليفة والمغيرة بن شعبة على الصلاة وهو راجع إلى عمر أصبح مع مرور الزمن لا يملك هذه السلطات أبداً.

وهكذا؛ فإنّ هؤلاء الأمراء الذين كانوا يقيمون بإمامة الناس في الصلاة والفصل في الخصومات بينهم وقيادة الجند في الحرب وجمع الأموال من مواردها المشروعة وما إلى ذلك من مهام الدولة أخذت صلاحياتهم هذه تتقلص بتعيين عمال على شؤون كانت من صميم

---

(1) كتاب الأموال لأبي عبيد قاسم بن سلام تحقيق محمد خليل هراس، ص096.

(2) الطبري تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص19.

أعمالهم، وكان عامل الخراج أهمّ هؤلاء العمال، وأنه يتولى الشؤون المالية وكان بمثابة الرقيب على أعمال الأمير، مما أدى بعد وقف غير بعيد إلى تنازع السلطة والتنافس بين الرجلين.

ولكن قوة عمر في شخصيته كانت تقف حائلاً دون وقوع أي نزاع، وقد كانت هيبته في الصدور تزع كل نفس عن أن تفكر في الخروج عن الجادة، وأن تسلك سبيلاً لا يرضي الله بحال.

ولما ولي عثمان الخلافة سار على سياسة عمر، وكان أوّل ما كتبه إلى أمراء الأجناد "قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم"، وهكذا فإن صلاحيات أمير الجيش بدأت تتقلص نحو الاختصاص في الميدان العسكري، فما انقضى عهد عثمان وهو لم يزد في الصلاحيات أو ينقص منها شيئاً مذكوراً حتى جاء علي بن أبي طالب، فلاحقته الفتن والمشاكل الداخلية عن أن يولي هذا الأمر جلّ اهتمامه، بل ترك مدينته وقاعدته وقاد جيشه وخرج يقاتل الخارجين على خلافته في العراق فاتسع عليه الخرق وتمالأت عليه خصومات كانت كامنة فما تركت له وقتاً ولا أعطته فرصة. وهو من هو في الحروب وقيادتها.

وأخيراً وحيث إن إمارة الجند كانت إمارة عامة لهؤلاء الأمراء في العهد الأول، فقد صاغ الفقهاء لها نظرية واضحة عامة تبين فيها ما يختصون به من أعمال، فقد قال الإمام الماوردي في الأحكام السلطانية: وإذا قلد الخليفة أميراً على إقليم أو بلد كانت إمارته على ضربين عامة وخاصة.

فأما العامة؛ فعلى ضربين أيضاً: إمارة منهما، فقال إن صلاحية الأمير العام سبعة أمور

هي:

1. أحدها النظر في ترتيب الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم إلا أن يكون الخليفة قدرها فيذرها عليهم.
2. الثاني: النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام.
3. الثالث: جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما.
4. الرابع: حماية الدين والذب عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل.
5. الخامس: إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين.
6. السادس: الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها.
7. تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه، فإن كان هذا الإقليم ثغراً متاخماً للعدو.
8. واقترن بها ثامن هو جهاد من يليه من الأعداء، وقسم غنائمهم في المقاتلة، وأخذ خمسها لأهل الخمس.

وأما إذا كانت الإمارة خاصة وهو ما صار بعد وقت من اتساع الدولة الإسلامية فيقول في ذلك الماوردي: فأما الإمارة الخاصة فهو أن يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيوش وسياسة الرعية وحكاية البيضة والذب عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام ولجباية الخراج والصدقات.

وأما إقامة الحدود؛ فإن افتقر أمرها إلى اختيار لاختلاف الفقهاء واحتاج لإقامة بينة

فليس له التعرض له إن كان في حقوق الآدميين، إلا إذا عدل إليه طالب الحق، وأما إن كان غير ذلك وكان من حقوق الله المحضة كحد الزنا جلداً أو رجماً فالأمير أحق باستيفائه من الحاكم لدخوله في قوانين السياسة وموجبات الحماية والذب عن الملة، ولأن تتبع المصالح موكول إلى الأمراء المندوبين إلى البحث عنها دون الحكام المرصدين لفصل التنازع بين الخصوم، فدخل في حقوق الإمارة ولا يخرج منها إلا بنص[1].

وأما نظره في المظالم مما نفذت فيه الأحكام وأمضاه القضاة جاز له النظر في استيفائه معونة للمحق على المبطل، لأنها من عمله وإن كانت غير ذلك ردها لأهل القضاء.

وأما تسيير الحجيج من عمله فداخل في أحكام إمارته، لأنه من جملة المعونات التي يذبّ لها، وأما إقامة الصلاة في الجمع والأعياد، فقد قيل إن القضاة بها أخصّ، وهو بمذهب الشافعي أشبه، وقيل إن الأمراء بها أحق وهو بمذهب أبي حنيفة أشبه. فإن تاخمت ولاية هذا الأمير ثغراً لم يكن له أن يبتدئ جهاد أهله إلا بإذن الخليفة، وكان عليه حربهم ودفعهم إن هجموا عليه فقط.

وهكذا يبدو لنا ما طرأ على صلاحيات أمراء الجيوش من تطور اقتضاه الزمن وتطور الدولة الإسلامية في الاتساع وتشابه الحاجات، فخرجت عن أن يكون إمارة عامة إلى إمارة خاصة، فإمارة عمرو بن العاص على مصر كانت عامة، ولكن بعد قليل عين عمر بن الخطاب عبدالله بن سعد بن أبي سرح لجباية الخراج، وبذلك تخصصت إمارة عمرو، ثم زاد على ذلك

---

(1) الاحكام السلطانية، للماوردي، ص30-33.

عمر بتعيين قاضٍ لفضّ الخصومات، فصارت سلطة هذا الأمير مقصورة على قيادة الجيش وإمامة الصلاة.

وقد أورد القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي مثل هذه الصلاحيات في كتابه الأحكام السلطانية.

الفصل الرابع

مواقف الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين من أمراء الجيش

إن إمارة الجيش فرع هام جداً من فروع الدولة في القديم والحديث، ولا أدلّ على أهميتها من أن جميع الأباطرة والملوك والحكام في العصور الخالية إنما كانوا أولاً وقبل كل شيء أمراء جيش يحسنون قيادته وخوض المعارك به، وقد ظل هذا الأمر حتى في هذا العصر الحديث فإن كل رئيس دولة يعتبر هو القائد الأعلى لجيش بلاده سواء أكان الأمر متعلقاً بقرار سياسي أو غير سياسي.

واللفتة السامية في تاريخ الإنسانية إنما بدأت برسالة محمد عليه السلام حين أصبحت القيادة العسكرية تحت سلطانه قيادة مبدأ وفكرة ودعوة إلى الحق فحرب على الباطل في أي أشكاله كان، فأعطي المعاني العسكرية كلها من أدنى رتبها إلى أعلاها ذلك البريق الحسن الذي يجعل منهم رسل إنسانية وحضارة ومصلحة الناس لا رسل وحشية وتدمير الحضارة والقضاء على الإنسانية من على وجه هذه الأرض.

محمد عليه الصلاة والسلام قائد الجيوش وقائد القادة هو الرسول الأمين المبلغ لدعوة الله إلى الناس كافة فهو بهذه الصفة يفترق عن كلّ القادة والأمراء في أنه لا يبني لنفسه مجداً شخصياً ولا مكانة مذكورة على جماجم البشر وويلات الإنسانية ودمارها، وإنما له الشأن الكبير عند رب العالمين وخلقه بدون أن يكون سفاحاً قاتلاً قاهراً، إنه ربه الذي خلقه يقول

فيه: "فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، وإذا عزمت فتوكل على الله"، فجعله بذلك معلم الإنسانية ومخرجها من طور الوحشية إلى طور الإنسانية المتسامي نحو الكمال والوصول على درب الله إليه، فكانت بذلك قيادته شمساً تضيء للقادة من بعده دربهم، وكانت مواقفه لذلك أيضاً هدياً واجب الاتباع، لأنه المعلم الأول للقادة ومنشئهم فهو في كل موقف من مواقفه مع قادته وأمرائه إنما ينفذ معهم رسالة الله التي أمر بتبليغها فهو يتحمل مسؤولية هذه المواقف ليس لعصره وحده وليس لشخصه وحده، وإنما يتحمل هذه المسؤولية للأعصر جميعاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وللناس كافة حتى يردوا على ربهم فيسألهم.

هذا الموقف المتطاول المتكاثف الذي يشمل الدنيا بأسرها هو سرّ النجاح الذي حققته قيادة الرسول القائد، وهو ما جعل مبادئه تشريعاً يهتدى بهديه إلى أخرى الناس.

فعندما نتحدث عن مواقفه عليه السلام من قادته وأمرائه إنما نتحدث عن الدرس الأول والصحيح الذي علم الإنسانية كيف يكون قائد القادة وقائد الجيش مع قادته وجنوده.

ونبدأ بذكر شيء من آيات الذكر الحكيم تتعلق بهذا الموضوع، وذلك لأن الحرب في الإسلام هي حرب عادلة تبغي تحرير الإنسان وتكريمه، يقول الله تعالى: "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير"[1].

ويقول تعالى: "إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت

(1) سورة الأنفال، آية 39.

منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون، فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين، ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تعلمون وإن جنحوا للسلم فاجنح لها، وتوكل على الله إنه هو السميع العليم"[1].

ويقول تعالى: "ما كان لنبي أن يكون به أسرى حتي يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم"[2].

ويقول تعالى: "يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم"[3].

ويقول تعالى: "وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق"[4].

ويقول تعالى: "وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة

---

(1) سورة الأنفال، آية 55-61.

(2) سورة الأنفال، آية 67.

(3) سورة الأنفال،آية70.

(4) سورة الأنفال، آية 72.

الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون"[1].

ويقول تعالى: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[2].

يقول تعالى: "يا أيها النبي جاهدالكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير"[3].

ويقول تعالى: "فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين، ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون[4].

ويقول تعالى: "إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع

(1) سورة التوبة، آية 73.

(2) سورة التوبة، آية 29.

(3) سورة التوبة، آية 73.

(4) سورة التوبة، آية 81-84.

الخوالف"[1].

ويقول تعالى: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"[2].

ويقول تعالى: "الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا إن الله مع المتقين"[3].

ويقول تعالى: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيء وهو خير لكم"[4].

ويقول تعالى: "فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً، وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً"[5].

---

(1) سورة التوبة، آية 93.

(2) سورة البقرة، آية 190.

(3) سورة البقرة، آية 194.

(4) سورة البقرة، آية 216.

(5) سورة النساء، آية 76.

ويقول تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة"[1].

ويقول تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون"[2].

هذه بعض الآيات القرآنية تتحدث في إيجاز معجز عن آداب الحرب وقيادتها، وليس من الممكن أن تجد في كتاب الله ما يوحي بأنّ الحرب مطلوبة بذاتها ابتغاء السلطان والقهر والغلبة، ولكنها مطلوبة دائماً لقهر الباطل والظلم والفساد والحفاظ على الشريعة وتنفيذ أحكامها.

ومن العسير جداً على مثلي استقصاء هذا الموضوع، ولكنه جهدي أرجوه عند الله والرسول القائد عليه السلام هو خير مثال حي على تنفيذ أحكام هذا الدستور الإلهي وسمته هي التطبيق العملي لهذا المنهج فلنذكر منها شيئاً:

في يوم مؤتة نعى أمراءه الثلاثة وهو يبكي، وفي مسير خالد بن الوليد إلى بني جذيمة[3] وقد بعثه عليه السلام داعياً ولم يبعثه مقاتلاً قتل من قتل منهم، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء، ثم قال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، فقال: يا علي اخرج إلى

---

(1) سورة النساء، آية 94.

(2) سورة آل عمران، آية 200.

(3) سيرة ابن هشام، ج3، ص71.

هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمرالجاهلية تحت قدميك، فخرج علي ومعه مال فودى لهم الدماء والأموال.

وفي غزوة غالب بن عبدالله الكلبي أرضى بني مرة قتل أسامة بن زيد ورجل من الأنصار رجلاً قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أسامة من لك بلا إله إلا الله، قال: قلت: يا رسول الله إنه إنما قالها تعوذاً بها من القتل قال فمن لك بها يا أسامة قال فو الذي بعثه بالحقّ ما زال يردّدها عليه حتى لوددت أن ما مضى من إسلامي لم يكن وأني كنت أسلمت يومئذ وأني لم أقتله قال: قلت أنظرني يا رسول الله إني أعاهد الله أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً قال: تقول بعدي يا أسامة قال قلت بعدك.

هذه بعض المواقف للرسول عليه السلام مع بعض أمرائه على الجند وليس فيها كل التعبير عن مواقفه، فلنرجع إلى شيء من أحاديثه عليه السلام فقي التشريع الذي يحتذى وينهج نهجه:

1. عن سليمان بن بريده عن أبيه قال[1]: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله قالوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن

(1) صحيح مسلم باب تأمير الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزوة، ج5، ص139.

أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحويل من دارهم إلى دار المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل الحصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا، وقد روى هذا الحديث في سبل السلام[1] بهذا اللفظ وفي السند عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن عائشة قالت: الحديث.

2. عن سعيد بن أبي برده عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال: يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا[2].

3. عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها[3].

---

(1) سبل السلام للصنعاني، شرح بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني، ج4، ص46.

(2) صحيح مسلم، ج6، ص5-6.

(3) السابق.

4. عن أبي موسى قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من بني عمي قال أحد الرجلين: يا رسول الله أمرنا على بعض ما ولّاك الله عز وجل، وقال الآخر مثل ذلك فقال: إنا والله لا نولّي على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه[1].

5. وعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال فضرب على منكبي ثم قال يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها[2].

6. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا: "اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به"[3].

7. وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته[4]... الخ الحديث.

8. وعن معقل بن يسار المزني قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) صحيح مسلم، ج6، ص5-6.

(2) صحيح مسلم، ج6، ص7-8.

(3) السابق.

(4) صحيح مسلم، ج6، ص7-8.

يقول: ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشّ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة[1]، وروى بهذا اللفظ في سبل السلام عنه أيضاً.

9. وعن معقل أيضاً قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل الجنة[2].

10. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني[3].

11. وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً فأوقد ناراً وقال ادخلوها فأراد ناس أن يدخلوها، وقال الآخرون أن قد فررنا منها فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال للذين أرادوا أن يدخلوها لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة وقال للآخرين قولاً حسناً وقال: لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف[4].

12. وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر

---

(1) صحيح مسلم، ج6.

(2) صحيح مسلم، ج6، ص6.

(3) السابق.

(4) صحيح مسلم، ج6، ص6.

أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان[1].

13. وعن أبي هريرة قال: ما رأيت احداً قط كان أكثر مشورة لأصاحبه من رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

14. وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في بعض مغازيهم امرأة مقتولة فأنكر ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان[3].

وحيث إنه من غير الممكن أن نستقصي الأحاديث الواردة منه عليه الصلاة والسلام في شؤون إمارة الجيش ومواقفه منها، فإنه حسبنا ما ذكرنا لنرى أنه عليه الصلاة والسلام في شؤون إمارة الجيش ومواقفه منها، فإنه حسبنا ما ذكرنا لنرى أنه صلى الله عليه وسلم كان يريد من أميره أن يكون صورة صادقة عن المسلم الأول محمد عليه السلام، فعندما سئلتْ عائشة عن خلقه عليه السلام قالت: كان خلقه القرآن وهو عندما يبعث أميراً على جيش أو سرية، فهو إنما يبعث خليفته الذي بشأنه كله أثناء هذا الغياب، فلا بد أن يكون أهلاً لهذه الخلافة العظيمة.

فهو يريده قوياً غير ضعيفاً ولا يرضى من أميره الضعيف بحال من الأحوال، لذلك نراه يقول ذلك واضحاً وصريحاً لأبي ذرّ رضي الله عنه، وهو يريده متأدباً بأدب الإسلام القوي الذي لا يقبل عوجاً في الخلق والتصرف، وهذا ما أوصى به أسامة حين

---

(1) نيل الأوطار محمد بن علي الشوكاني، ج7، ص183.

(2) نيل الأوطار، ص238.

(3) موطأ الإمام مالك كتاب الجهاد، ص447، المجلد الثاني.

عقد له لغزو الروم، وهو يريد أن يكون الأمير مطاعاً طاعة كاملة، ولكن في طاعة الله ورسوله والمعروف، وليس غير ذلك، فالطاعة العمياء التي لا هدى لها ليست من طاعة الإسلام في شيء من جندي لقائده أو للقائد لرئيسه، فلا بدّ أن تكون الطاعة في المعروف، وهذا المعروف لا يعرف إلا من دين الله، فعباده هم الذين يتعارفون المعروف ويعملونه وما يقال في عصورنا الحاضرة عن الطاعة العسكرية ما هي إلا قشور يريد بها الظالمون أن يثبتوا كيانهم ظلماً وعدواناً فيستهينون بأرواح المسلمين تثبيتاً لشأنهم وإدامة لسلطانهم.

إن محمداً عليه الصلاة والسلام وهو يعد أميره لقيادة جنده يعطيه الصلاحية الكاملة في التصرف ضمن حدود الشرع والأمر إليه ضمن خطة الإسلام لهداية الناس، ولذلك فقادة محمد جميعهم كانوا في إمارتهم سعداء وأسعدوا الناس الذين فتحوا بلادهم، لأنهم رسل الرسول محمد، بينما باقي قادة التاريخ الحربي شقوا وأشقوا الناس الذين اجتاحوهم، لأنهم رسل الشر ولا عقيدة عندهم ولا مبادئ سامية يجاهدون في سبيل تحقيقها.

هذه المثل الخالدة هي التي جعلته عليه السلام يرفع يديه إلى ربه ويبرأ مما صنع خالد في إحدى غزواته، حيث ودى القتلى ولم يكن موقفه منه سوى موقف المعلم من تلميذه المتعلم. فليست عنده فظاظة الملوك ووقاحتهم ولا غلظة الرؤساء وجحودهم، وذلك أنه نبي لا يعمل لمجده الأرضي بحال من الأحوال، بل هو بشر رسول نبي مبعوث رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، فهو المثابة لكل ضالّ وهو الفئة لكل متشرد وهو الأب للمؤمنين أجمعين وهو أبر بهم من آبائهم وأمهاتهم.

هذه الطاقة العملاقة التي وسعت هؤلاء الأعراب على ما فيهم مما عهدوه في الجاهلية العمياء أتمت في ثلاث وعشرين سنة ذلك البناء الشاهق من أدب الإسلام في الحر وكافة متطلباته من قيادة وغيرها، ففي هذا البناء لكل طالب ما يطلب ولكل حكيم ما يبتغي ولكل مسترشد هدى.

ولذلك كان أبو بكر الصديق متبعاً لا مبتدعاً، لأن الرسول كان قد بلغ عن ربه هذا الدين حتى كمل "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً"، فلما انتقض عليه العرب وعزم على محاربتهم قال: "والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه" وقال: "والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال وقد قال عليه السلام إلا بحقها".

وجاهد أبو بكر رضي الله عنه في الله حق جهاده فهو هنا إنما يدافع عن دين الله لا عن عرشه وكرسيه وميراث آبائه وأجداده بل يقاتل عن ميراث الرسول محمد عليه السلام وما ورث إلا هذا الدين. فكان قادته أيضاً صورة طبق الأصل عنه قال وهو يودع يزيد بن أبي سفيان[1]. وكان أمير ربع من تلك الأرباع: "وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً ولا تقطعن شجراً مثمراً ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه ولا تغلل ولا تجبن"، وفي حروب الردة

(1) موطأ الإمام مالك، ج2، ص447.

ومن خلال كتابه إليهم يقول: "وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثمّ لا يبقى على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن تبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان"(1)، فخرج أمراؤه على هذا المستوى من المسؤولية فأبلوا البلاء الحسن واستطاعوا أن يعيدوا تلك الجموع الجامحة إلى ساحة الرحمن راضية مرضية.

وكتب إلى خالد بن الوليد "ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. جدّ في أمر الله ولا تنين ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره، ومن أحببت ممن حادّ الله أو ضاره ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله".

وقد قام خالد بعمله خير قيام وقضى على فتنة الارتداد في شمال وشرق الجزيرة العربية، ولكن حادثة واحدة كان لها أثر كبير في حياته، فقد تزوج خالد ليلى التي كانت تحت مالك بن نويرة وشغب المسلمين كأبي قتادة، فأتى أبا بكر فقصّ عليه أمر خالد وقتله مالكاً وزواجه ليلى، وأضاف أنه أقسم ألا يكون أبداً في لواء عليه خالد. وغضب لذلك عمر أي

---

(1) الطبري،ج2، ص226 حوادث السنة الحادية عشرة.

غضب وقال لأبي بكر: إن في سيف خالد رهقاً[1]، وحق عليه أن يقيده، وحيث أن أبا بكر لم يكن يقيد من أعماله لذلك قال لعمر حين ألح عليه: "هيه ياعمر تأوّل فأخطأ فارفع لسانك عن خالد"، ولم يكتف عمر بهذا الجواب، فلما ضاق أبو بكر ذرعاً بإلحاحه قال: "يا عمر، ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين".

وقبل ذلك قال له مثل هذا القول عند تسيير بعث أسامة.

ولكن أبا بكر استدعى خالداً وحقق معه في الموضوع وعنفه في التزويج الذي كانت العرب من كراهته أيام الحرب وترى الاتصال بهن أثناءها عاراً وأيّ عار.

ولكن خالداً أعاد الكرة فتزوج ابنة مجاعة بن مرارة بعد وقعة اليمامة، وبلغ ذلك أبا بكر فتولته الدهشة أول ما عرفه، ثم انقلبت دهشته إلى غضب فثورة، فكتب إليه كتاباً يقطر بالدم على حد تعبير الطبري[2]، " لعمري يا ابن أم خالد إنك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد" فلما نظر خالد الكتاب، قال: هذا عمل إلا عسير يعني عمر بن الخطاب.

أما موقفه من المهاجرين ابن أبي أمية في الامرأتين المغنيتين فنأخذ ذلك كاملاً كما يقوله الطبري[3]: وقع إلى المهاجرين امرأتان مغنيتان غنت إحداهما بشتم رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع يدها ونزع ثنيتها فكتب إليه أبو بكر رحمه الله "بلغني الذي سرت به في المرأة

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ص242، ج2.

(2) تاريخ الطبري، ص254، ج3.

(3) تاريخ الطبري، ص277، ج3.

التي تغنت وزمرت بشتيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلولا ما قد سبقتني فيه لأمرتك بقتلها لأن حدّ الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مستسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر. وكتب إليه أبو بكر في التي تغنت بهجاء المسلمين ونزعت ثنيتها فإن كانت ممن تدعي الإسلام فأدب وتقدمة دون المثلة. وإن كانت ذمية فلعمري لما صفحت عنه من الشرك أعظم ولو كنت تقدمت إليك في مثل هذا لبلغت مكروهاً، فاقبل الدعة وإياك والمثلة في الناس فإنها مأثم ومنفرة إلا في قصاص".

وبناء على موقف أبي بكر من خالد بن الوليد كتب عكرمة بن أبي جهل إلى أبي بكر ليفصل برأيه في زواجه من ابنة النعمان بن الجون. فكتب إليه أنه لا بأس من ذلك ولا شكّ في ذلك، فلقد ورده كتاب من أبي بكر يوم هزيمته وجنده أمام مسيلمة وبني حنيفة، فلقد انهزم للوهلة الأولى وقبل أن يصل إليه شرحبيل بن حسنة، فلما بلغ أبا بكر الخبر اشتدّ غضبه وكتب إليه: يا ابن أم عكرمة إلا تريني ولا أرينك، لا ترجعنّ فتوهن الناس، امض إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرؤون الناس حتى تلقى المهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت"[1].

وانتهت حروب الردّة ورأى أبو بكر أن يوجه هؤلاء القادة إلى الشام التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عوّل أن يصرف همته إليها، ولكن الله قبضه إليه واختار له ما لديه، وكذلك وجه همّه وهمّ قائده خالد إلى جهة العراق مع المثنى بن حارثة، وبهذا فقد اتسعت

---

(1) الصديق أبو بكر محمد حسين هيكل، ص144.

الفتوح مع أبي بكر وكثرت قادته والأشراف على هذا العدد الكبير من القادة وما معهم من جيوش المسلمين ليس بالأمر الهين، فبدأ يعدّ العدة من الرجال والسلاح والقادة.

وكان أوّل ما فعله أبو بكر هو عزل خالد بن سعيد بن العاص الأمويّ الأمير في تيماء لكلام قيل إنه صدر عنه مثل قوله: يا بني عبد مناف لقد طبتم نفساً عن أمر يليه غيركم"، فقال عمر لأبي بكر: أتؤمره وقد صنع ما صنع"، وقيل إنّ عمر قال: "إنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب"، وأيا ما كان الأمر فإنّ أبا بكر قد عزله لشيء في نفسه من مثل هذه المواقف زدْ مع ذلك أنّ خالداً الأموي هذا انهزم أمام باهان الرومي في مرج الصفر ولم يقف من فراره دون ذي المروة على مقربة من المدينة. فأبى أبو بكر عليه دخول المدينة وقال: "أقم مكانك، فلعمري إنك مقدام محجام نجاء من الغمرات، لا تخوضها إلى حق ولا تصبر عليه"، وهذا ما جعل أبا بكر الصديق يقول: "كان عمر وعلي أعلم بخالد مني، ولو أطعتهما فيه اتقيته".

إن الصديق وهو يقف هذه المواقف مع قادته إنما يستلهم سنة الرسول فلا بد أن يكون هو فئة من ضعفت نفسه عن أن يموت في سبيل الله ولا بد أن يكون الملجأ الرحيم للأمة الإسلامية وما هؤلاء الأمراء إلا عباد من عباد الله يجري عليهم حكمه وتسير فيهم سننه وما فيهم من معصوم فلينظر إليهم بعينه المؤمنة بالله المنتهجة لنهج رسول الله وليكن موقفه معهم دائماً موقفاً كريماً يرضي الله ويدافع عن دينه ويأمر بسنة نبيه وهدى رسوله لذلك وقف أمام جيوش الشام والأمراء يودعهم ويقول: "ألا إن لكل أمر جوامع فمن بلغها فهي حسبه، ومن عمل لله كفاه الله، عليكم بالجدّ والقصد فإن القصد أبلغ ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له،

ولا أجر لمن لا خشية له، ولا عمل لمن لا نية له، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله ما ينبغي للمسلم أن يحبّ أن يخصّ به هذه التجارة التي دل الله عليها ونجى بها من الخزي وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة".

وقال ليزيد: "إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، وامنع من قبلك من محادثتهم. وكن أنت المتولي لكلامهم، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس"، ثم كتب أبو بكر إلى جيوش الشام يأمرهم بالاجتماع بعد أن اجتمع الروم وكثروا قال: "اجتمعوا عسكراً واحداً والقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله، والله ناصر من ينصره، وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة عليها بذنوبهم فاحترسوا من الذنوب والله ناصركم"[1].

وقبل اليرموك بقليل كتب إلى خالد يأمره بالسير إلى الشام، فيقول: "سرْ حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ولم ينزع الشجا من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك أن تدلّ بعمل، فإن

(1) الصديق أبو بكر – المرجع السابق.

الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء".

وكتب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإني قد وليت خالد بن الوليد قتال الروم في الشام، فلا تخالفه واسمع له وأطع أمره، فإني وليته عليك، وأنا أعلم أنك خير منه ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد.

من هذه النصوص التي أوردناها يبدو لنا واضحاً جلياً موقف أبي بكر، فإن القادة بجنودهم هم أسرة أبي بكر الكبيرة يحنو على ضعيفهم ويحاسب مخطئهم على مقدار خطئه، وإن وجد له عذر عذره، والصديق في كل هذا إنما يعمل لنصرة دين الله لا لنفسه ولا لأهل بيته ولا لأحد من الناس على هذه الأرض، فلما آن له أن يرحل أشرف من حجرة بداره على الناس بالمسجد وامرأته أسماء بنت عميس ممسكته، وقال يخاطبهم: "أترضون بمن استخلفت عليكم، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا".

ومضى أبو بكر إلى ربه راضياً لم يفرط في شيء من أمر الله قد جهده.

وجاء ابن الخطاب وقد كان الناس يخشون غلظته وأبو بكر بين أظهرهم فكيف به الآن وقد خلا بهم.

ولكنه طمأنهم في خطبته لهم فقال: "ثم إني وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحقّ، ثم

قال: ولكم عليّ أشياء، منها: "ولكم علي أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسدّ ثغوركم، ولكم علي ألا ألقيكم في المهالك، ولا أجمركم في ثغوركم وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم".

وأنا ذكرت هذه الكلمات له بطولها لأنها شرح واضح وافٍ لمواقف عمر رضي الله عنه من المسلمين جميعهم بما فيهم أمراء الجيش. ولا غرو في ذلك فعمر رجل شديد قوي الرأي يلزم رأيه على طول الزمان لا يغير منه شيء وهو إلى مصلحة المسلمين لا يؤخذ فيها منه بكثير أو قليل، فالحق عنده أولاً للقريب والبعيد وللأمير والأجير لذلك كان يدعو لأبي بكر ويقول: لقد أتعب من بعده.

كان أول كتاب كتبه عمر حين ولى لأبي عبيدة بن الجراح يوليه على جند خالد قال فيه "أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستزيده لهم وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك، فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم".

ثم عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيش في الشام التي ولاه إياها أبو بكر، وليس من السهل أن يعرف سبب هذا العزل فالقول فيه كثير، ولكن عمر يقول لخالد وقد سأله عن

سبب عزله له: "ما عزلتك لريبة فيك، ولكن افتتن بك الناس فخشيت أن تفتتن بالناس[1]، ولكن خالداً بقي في صفوف المجاهدين في سبيل الله لم يفتّ هذا في عضده أو يثنيه عن الجهاد في سبيل الله".

وإنّ لعمر موقفاً، بل مواقف مع هذين القائدين وتفصيل ذلك أن عمر بن الخطاب في أيام أبي بكر كان وزيره ومستشاره ولم يكن يصدر أمراً أو تعييناً إلا ويستشار فيه ويعمل أبو بكر بما يراه في مصلحة المسلمين دون أن يلتزم برأي عمر أو غيره، فعمر والحالة هذه على اطّلاع تام بجميع ما يجري في الدولة الإسلامية ومع الأمراء في كافة الأمصار وهو يعرف أخبارهم أوّلاً بأوّل، لأنه مشارك في هذا الأمر من يوم أن استأذن أبو بكر أسامة في أن يبقى عمر عنده ليساعده في أمره فليس بغائب عن عمر والحالة هذه شيء من أمور الأمراء على الجيوش في أمصار المسلمين.

وأبو عبيدة هو من لا يجهل أمره مثل عمر، ويعلم أنه أمين هذه الأمة ويعلم ما كان له من مقدرة في نفس النبي عليه الصلاة والسلام، ويعلم كم أسند إليه الرسول من قيادة السرايا والبعوث وهو لم يكن قائداً لبعث إلا لمرة واحدة في ثلاثين رجلاً إلى عجز هوازن بتربة[2]، وعاد لم يلق كيداً كل هذا يعرفه له عمر ويدلنا على ذلك موقه مع عمر بن العاص عند جمع المسلمين لقتل المرتدين في زمن أبي بكر الصديق، فقد جعل أبو بكر عمرو بن العاص على

---

(1) الفاروق عمر محمد حسين هيكل، ص100.

(2) السيرة الحلبية، ص185، ج3، وعيون الأثر لابن سيد الناس، ج2، ص145.

الناس وعلى من جاء من مكة وسأل عمرو: ألست أنا الوالي على الناس؟ وأجابه الخليفة أنت الوالي على من معك من ههنا، فإن جمعتكم حرب فأميركم أبو عبيدة بن الجراح"، ولما عنّ لعمرو أن يسير توجه إلى عمر بن الخطاب فسأله أن يكلم أبا بكر ليجعله أميراً على المسلمين بالشام.

قال عمر: "لا أكذبك ما كنت لأكلمه في ذلك أبداً، وأبو عبيدة أفضل منزلة عندنا منك".

وألح بن العاص يقول: "إنه لا ينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن ألي عليه"، ولم يغير هذا من موقف ابن الخطاب بل أجابه: "ويحك يا عمرو إنك لتحب الإمارة والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا فاتق الله يا عمرو، ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله، فاخرج إلى هذا الجيش فإنك إن لم تكن أميراً هذه المرة، فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد".

وموقف عمر من خالد له جذور من أيام أبي بكر الصديق، ونحن نذكر قوله يوم مقتل مالك بن نويرة وزواج خالد من زوجته ودعوة أبي بكر له لسؤاله عن ذلك فقد لقيه عمر وهو يدخل المسجد في عدة الحرب مرتدياً قباء له عليه صدأ الحديد وقد غرز في عمامته أسهماً فقام إليه عمر ونزع الأسهم وحطمها وهو يقول له: "قتلت امرءاً مسلماً، ثم نزوت على امرأته والله لأرجمنك بالأحجار".

وعلى كلّ حال؛ فقد بقي هؤلاء الأمراء على جيوشهم واستمرّ خالد على لواء من ألوية المسلمين يجاهد ويقول: أنا لا أقاتل من أجل عمر، واتسعت بلاد المسلمين على عمر

واتسع معها مقدار ما يحمل من المسؤولية وليكون على قدرها فقد أمر أمراءه بأمرين وسن بهم هذه السياسة وهي:

1. أنه كان يطلب من أمرائه أن يوافوه أولاً بأول بالأرض التي ينزلون فيها وجغرافيتها وطرقها وأن توصف له وصفاً دقيقاً حتى لكأنه يرى الموقع بعينه ليكون ذلك أعون له على إبداء الرأي والمشورة، ثم يصدر أمره بعد ذلك على بينة فقد كتب إلى سعد ابن أبي وقاص: إذا بلغت القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم، وهو منزل رغيب خصيب دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر وجاء في كتاب آخر: "اكتب إلى أين يبلغك جمعهم، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم فإنه منعني من بعض ما أردت الكتابة به قلّة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها"، وبناء على هذا الكتاب كان ردّ سعد بالوصف المطلوب فأجابه عمر: قد جاءني كتابك وفهمته، فأقم بمكانك حتى ينغض الله لك عدوك، واعلم أنّ لها ما بعدها فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها إن شاء الله. وعمر بذلك يرى عماله وأمراءه إنما يجب أن يشاركوه أو يشركوه في حمل المسؤولية بوجه يستطيع معه أن يصدر قراره الصائب بعد أن يستشير الصحابة في المدينة.

2. والأمر الثاني الذي كان من عمر وأمرائه فهو أنه كان يجمع عماله بمكة في

موسم الحج من كل عالم يسألهم عن أعمالهم ويسأل الناس عنهم ليرى مبلغ دقتهم في الاضطلاع بواجبهم وتنزههم حين أدائه عن الإفادة لأنفسهم أو لذويهم، فقد كانت النزاهة مقدمة عنده على كل شيء، ولذلك كان يحصي أموال الولاة قبل ولايتهم، فإذا زادت بعدها زيادة تضع نزاهتهم موضع الشبهة قاسمهم ما لهم ويستولي على كل زيادة لهم فيه ثم يقول لهم: نحن إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجاراً. فقد قاسم أبا ذر الغفاري ماله وكذلك قاسم عمرو بن العاص ماله في حديث يطول وعزل عمراً لذلك، وكذلك عزل يعلى بن أمية واليه على بعض اليمن لأنه حمى لنفسه حمى[1].

ولو ذهب الإنسان يستقصي مواقف عمر مع أمرائه لما وسع الجهد ذلك، لأنه كان أكبر من أن يأتي على موقفه واحد مثلي ما وقف مثلها في واحدة قط، ولكنّ الذي أريد أن أقوله أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مستوعباً لصحبته للنبي الكريم وخليفته الأول فقدم من نفسه ما كان يراه يجزئ عند الله، لقد كان كما قال عنه عليّ لعثمان: هذا القويّ الأمين[2].

لقد كان أحرص شيء على رعيته، وكان يأمر بذلك أمراءه ويريدهم أن يكونوا طبق منهاجه بلا اختلاف، وكان يتهددهم بالقصاص إن ظلموا الناس وقصاصه من ابن عمرو بن العاص مشهور في التاريخ، وهو يقول: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" عمر هذا كان دائماً يسأل الوفود عن الأمراء فيقولون خيراً فيقول: هل يعود مرضاكم؟

(1) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ج3، ص668.

(2) الطبري، ص17، ج5.

فيقولون: نعم، فيقول: كيف صنيعه بالضعيف؟ هل يجلس على بابه؟ فإن قالوا لخصلة منها: لا؛ عزله[1].

ولقد تمنى على الله يقول: "لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أنّ للناس حوائج تقطع دوني، أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا"[2].

ولكنّ الأيام لم تمهله حتى يعيش هذا الحول فيرى امرأة في مراكزهم وولاياتهم فيرى بعينه ما يسمعه عنهم.

وقال خزيمة بن ثابت: كان عمراً إذا استعمل عاملاً كتب له واشترط عليه أن لا يركب برذوناً ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات، فإن فعل فقد حلت عليه العقوبة[3].

وكان يقول: وددت أن لي رجلاً مثل عمير بن سعيد استعين به على أعمال المسلمين وكان عمير هذا واليه على حمص، فشكاه له أهل حمص، فحقق في شكواهم فلم يجد عليه فيها شيئاً، وإنما كانت أمور تحدث لرقة حاله وورعه. ثم جدد له عليهم عهداً.

---

(1) الطبري، ص33، ج5.

(2) تاريخ الطبري، ج5، ص18.

(3) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص128.

هذه بعض مواقف عمر وقفها خالصة لوجهه الكريم، ثمّ تولى إلى الجنة وترك العبء على من يليه، وهيهات أن يجهد جهده من بعده أحدٌ من الناس.

عن عاصم قال: استعمل عمر رجلاً على مصر، فبينا عمر يرى مارّاً في طريق من طرق المدينة، إذ سمع رجلاً وهو يقول: الله يا عمر، تستعمل من يخون وتقول ليس على شيء وعاملك يفعل كذا. قال فأرسل إليه فلما جاء فأعطاه عصا وجبة صوف وغنماً فقال ارعها، واسمه عياض بن غنم، فإن أباك كان راعياً، قال: ثم دعاه فذكر كلاماً، فقال: إن أنا رددتك فرده إلى عمله، وقال لي: عليك أن لا تلبس رقيقاً ولا تركب برذوناً وكان إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار[1].

ولما ولي عثمان رضي الله عنه سار على نهج الصاحبين كما أخذ عليه العهد بذلك، فكان أوّل كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد: أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منا ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير أو تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه[2].

وأوّل من ولاه عثمان سعيد بن أبي وقاص على الكوفة وعزل المغيرة بن شعبة بوصية[3] من عمر فإنه قال أوصي الخليفة من بعدي أن يستعمل سعداً فإني لم أعزله عن سوء

---

(1) الطبري، ج5، ص21.

(2) الطبري، ج5،ص44.

(3) الكامل في التاريخ، ج3، ص41.

ولا خيانة وكان عمر عزله لشكاة الناس منه وحرق باب قصره ولم تكن شكاتهم أكثر من سوء تأويل من الناس. وجعلت الفتن في النصف الأخير من خلافة عثمان. قال الزهري: ولي عثمان الخلافة اثنتي عشرة سنة يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً، وإنه لأحبّ إلى قريش من عمر بن الخطاب لأنّ عمر كان شديداً عليهم، فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم، ثم توانى في أمرهم واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الستّ الأواخر، وكتب لمروان بخمس إفريقية وأعطى أقرباءه وأهل بيته المال فأنكر الناس عليه ذلك[1].

وعن سعيد بن المسيب قال: إن عثمان لما ولي كره ولايته نفر من الصحابة، لأن عثمان كان يحب قومه، فولي الناس اثنتي عشرة سنة، وكان كثيراً ما يولي بني أمية ممن لم يكن له مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبة، فكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحاب محمد، وكان عثمان يستعتب فيهم فلا يعزلهم.

وأما علي بن أبي طالب فقد دهمته الفتن قبل أن يتولى الخلافة ولما تولاها خرجت عليه الشام، وخرجت عليه عائشة وطلحة والزبير، وخرج عليه الخوارج، وأمضى كل وقته في قتال مرير دميت منه جبهة الإسلام، وكانت فترة حرجة جداً من تاريخ الأمة، فقضى علي دون أن يستطيع أن يقوم بشأن الأمة كما أمره الله ورسوله، لأنّ الخارجين لم يعطوه وقتاً ينفذ فيه حكم الله في الناس. وإني لأظن أن علياً كان يكون عمراً آخر لو طالت به الأيام وهدأت الحوادث.

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص156.

الباب الثالث

المدرسة العسكرية الإسلامية

الفصل الأول: ما أضافته العسكرية الإسلامية للتاريخ العسكري في موضوع القيادة.

الفصل الثاني: بحث تاريخي في كيفية اختيار القادة وما يتعلق بكافة شؤونها.

الفصل الثالث: أمراء الجيش الإسلامي في السلم والحرب.

الفصل الرابع: أمراء الجيش الإسلامي وعلاقتهم بالجند.

الفصل الخامس: صفحات مشرقة وشخصيات نادرة من قادة الجيش الإسلامي.

الفصل الأول

ما أضافته العسكرية الإسلامية للتاريخ العسكري في موضوع القيادة

منذ وجد الإنسان وجدت معه الحرب وبتطوره وارتقائه تطورت الحرب وارتقت.

فالفكر الإنساني لا يقف جامداً مع مرّ الزمن في أي ناحية من النواحي التي تهمّه، بل يذهب مجدداً ومتغيراً في كل شأن من شؤونه بما يتلائم مع تركيبه ويخفف عنه ثقل الحياة ومستلزماتها.

والحرب مادة من مواد الإنسان له فيه مصلحة وعمل فهو يعمل فيها بما يحقق أهدافه ومقاصده فعندما كانت حربه حرب أفراد طور أدواتها وشحذها واستعمل لها المعادن لتكون أسهل في يده وأقطع لخصمه، ولما ارتفع عن هذا المستوى وصارت هناك الجيوش المنظمة التي تدين بالولاء لفرد أو لقطعة من أرض هي الدولة، وامتدت يد الإصلاح والتغيير والتطور إلى هذه الجيوش في مختلف مظاهرها وجوانبها، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى حدوث تغيير كبير في الحرب ذاتها وفي أصولها وفنونها، وأدى هذا من غير شك إلى ظهور عبقريات عسكرية على طول التاريخ الحربي سادت لفترات طويلة في ميدان القتال، وأصبح اسمها علماً من أعلام الحرب، ونبراساً يهتدى به[1].

وبدائية الإنسان وجهله هي التي حرمته من أن يكون مهذباً في حروبه وله أسس

---

(1) المدرسة العسكرية الإسلامية لمحمد فرج، ص18.

سليمة تقوم على خدمة الإنسانية وفي سبيل سعادتها، لذلك تطاولت الأزمنة والأعصر التي كان فيها الإنسان يعيش على همجيته بدون قيادة واعية تسوقه نحو الهدى، ولذلك تكفل الخالق رب العالمين بمعالجة هذا الوضع ومساعدة الإنسان للخروج من مآزقه المتلاحقة إلى سعة الحياة الصحيحة، فالفراعنة مثلاً كان لهم تاريخ عميق في التاريخ وبنوا حضارات وكانت لهم أمجاد وسوابق في ذلك الزمن السحيق، وإن بقي الكثير منها حتى اليوم يشير إلى تقدمهم ونبوغهم وكانت لهم حروب مأثورة ورجال حرب كرمسيس وتحتمس خاضوها وأبلوا فيها في مجدو وقادش وغير ذلك، ولكن بانطواء صفحة هؤلاء القادة انطوى معهم كل خبر لهم، وبقيت الآثار التي لا تحمل سوى العظة والعبرة والتذكار، ومثل الفراعنة كانت مقدونيا واسكندريا وقرطاجنة وهانيبال والروم والفرس والصين وأمم كثيرة نعرف أو لا نعرف، كلهم مضوا ولم يبق الزمن لنا منهم سوى ذكريات باهتة لا تحرك في المطلع عليها الآن من عزم وقوة ولا توحي له بنشوة أو اقتداء حتى كانت خاتمة الرسالات وهي الإسلام وأكملها الخالق نصاً وروحاً تضمنت في ثناياها كل ما له علاقة بالحروب من ناحية القيادة واختيارها وتصرفاتها والحرب وعدتها وبواعثها والسلم ونظمه وإدارته، بل نظمت الإنسان من لدن خلقه إلى أن يمضي حياته المكتوبة إلى وجهتها.

فالإسلام وهو رسالة الله للإنسان لإعانته على الهدى والسير على المنهج القويم طلباً لراحته وسعادته قد تضمن في عداده نظم الحرب كاملة، وهذا ما لم يكن موجوداً في في تاريخ حربي سابق أو لاحق، فقادة الحرب في القديم لم يكونوا أصحاب رسالة للإنسان، بل كانوا أصحاب هدم للإنسان ولم تتضمن تعاليم حروبهم ما يوحي بأنها للاستمرار مع الإنسان ما

دام في الحياة، بل نرى أنها شعلة قشّ سرعان ما توهجت، ثم سرعان ما خبت وأصبحت رماداً تذروه الرياح.

أما المسلمون فقد خاضوا معارك كثيرة وقابلوا أعداداً يخطئها العد، وانتصروا في الكثير الكثير من حروبهم وانهزموا في البعض، ومضى بهم التاريخ، ولكن الإسلام ورسالته ما زالت واضحة المعالم في الشرق والغرب الذي فتحوه وتوحي بأنهم رسل حضارة وتقدم لا هدم وتخريب.

إنّ معارك المسلمين مع غيرهم على تطاول الزمن وخاصة في أول الإسلام لا زالت وستظل نبراساً للقادة وهدى للعسكريين ومثالاً إنسانياً مخلصاً لإنسانيته يقتدى به في مختلف العصور والأزمنة، ومعنى هذا أنّ للإسلام مدرسته العسكرية المتميزة عن كل ما سواها.

وإن المصنف حين يطالع تاريخ الحروب الإسلامية، ويقف على ما خلده المسلمون في تاريخ الحرب من دروس ونظريات وأسس لا يملك إلا أن يعترف بقيام المدرسة العسكرية الإسلامية كأول مدرسة عسكرية في التاريخ [1] كانت لها مبادئ وقيم وأهداف وأسس لم يعرفها العقل البشري من قبل، فهي التي طورت نظرية الحرب وعدلتها بما يناسب طبيعة القتال، وهي التي هذبت فكرة الحرب وسمت بأسبابها ودوافعها وأغراضها، وهي التي وضعت أسس الإعداد للمعركة إعداداً سليماً يضمن كسبها، وهي التي أرست القواعد والأصول والمبادئ التي تحقق النصر في المعركة، وأخيراً فهي التي أخرجت جيلاً من

---

(1) المدرسة العسكرية الإسلامية لمحمد فرج، ص22.

العسكريين كانت لهم صفحات مشرقة في التاريخ الحربي.

وهذه الناحية الأخيرة هي التي عليها مدار بحثنا، وذلك لأن موضوع القيادة من أهم المواضيع الحربية على الإطلاق في القديم والحديث، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه قال: "والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد" [1]، عندما رأى أن ينهي موضوع القتال معهم، فاختار لهم القائد المختار الذي يعتمد عليه ويرى أنه أهل لكل هذا وهو بالفعل قد أنساهم الشيطان لا وساوسه فقط.

والإسلام قد أولى موضوع القيادة جلّ اهتمامه فجعل القائد هو الجندي الأول في جيشه.

والمتتبع لمعارك المسلمين ولقادتهم على مرّ الزمان يستطيع أن يلحظ بوضوح ما أضافته العسكرية الإسلامية للتاريخ العسكري في موضوع القيادة، لأنّ نظرة هذه المدرسة إلى القائد كجندي أول في مقدمة الجيش، لذلك فقد وضعت المدرسة العسكرية اهتمامها الشديد في تربية هذا الجندي من الجيش تربية إسلامية مستقيمة تجعله ما طال عمره لبنة صالحة في بناء أمته، لا تؤتى من قبله، وبذلك يحمله السؤولية الكاملة عن مصير أمته كلها.

وأستطيع بعد ذلك أن أعدد ما أضافته العسكرية الإسلامية للتاريخ العسكري في المواضيع التالية: 1. قيادة القائد وتدينه. 2. الأخلاق المثالية 3. الكفاءة العسكرية. وسأذكر شيئاً يسيراً عن كل واحدة من هذه.

---

(1) الطبري،ج4، ص40.

1. عقيدة القائد وتدينه:

المعروف أن المقاتل لا يمكن أن يقاتل في الحروب قتالاً مستميتاً ويضحي بروحه مقبلاً غير مدبر إلا إذا كان يؤمن بعقيدة تدفعه إلى التضحية والفداء وتجعله صابراً في البأساء والضراء وحين البأس[1]، وبخلافه ذلك الذي يقاتل ليس معه عقيدة فتثبت قدمه أو ترحم إنسانيته، وليس له من الحياة إلا هدف العيش فقط، فسرعان إذا ما اشتد البأس وحمي الوطيس من أن يدور على عقبه ويولي طالباً العيش.

وقادة المسلمين وأمراؤهم هم صفوة الجنود ومختاروهم، وهم أكثرهم حملاً لأمانة القتال وثقلاً لأرواح جنودهم ومصير عقيدتهم وتاريخ أمتهم.

وهناك صفات مثالية أوجدها الإسلام وربى بها قادته وجيشه، هذه الصفات وردت جميعها في القرآن الكريم وفي السنة النبوية ومن أهم هذه الصفات وأبرزها:

أ. الطاعة التامة المتسلسلة من القاعدة إلى القمة، فالجندي الصغير يطيع العريف، والعرفاء يطيعون من هم أعلى منهم، وهكذا حتى يصل الأمر إلى القائد الخليفة الذي يطيع الله ورسوله.

ب. الشجاعة، وقد وردت كلمة "ثبت" ومشتقاتها في ثماني عشر آية من آيات الذكر الحكيم، وهي من أهم صفات الجندي وإذا لم تكن موجودة فإن الجبان يخرج عن إيمانه بالله والقضاء والقدر.

---

(1) الإسلام والنصر، محمود شيت خطاب، ص36.

ت. وهناك صفات أخرى كثيرة كالحذر واليقظة والتضحية بالمال والنفس.

هذه الصفات وغيرها كان يوجد مثلها في بعض الناس قبل الإسلام، ولكن من غير الممكن أن تجمع كاملة في جيش واحد بقادته وجنده، فلما جاء الإسلام إلى الأمة العربية وحد عقائدها وأعمالها وصفوفها وغرس فيها روح الضبط والطاعة، وطهر نفوسها من كل الشوائب، ونقى الأرواح وارتقى بها في سلم الكمال، وخلق الانسجام التام بين القبائل المتنافرة، فجمع قواتهم المبعثرة، وجهودهم المضاعة لتصبح سلسلة واحدة بقيادة واحدة، ولهدف واحد، وأصبح الجميع أمة واحدة تحيتها السلام ودينها الإسلام، يقول الله تعالى: "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم".

إذن؛ فتربية هذه الأمة تربية قرآنية بدأت بالإيمان بالله تعالى، وقامت على تنفيذ شرائعه وقوانينه في الأرض لتنتهي عند جنات عدن التي وعد المتقون، فالمسلم هذا على كل أحواله ما دام متتبعاً وليس مبتدعاً، فهو سائر لا محالة إلى ربه على ما رسم له من طريق.

هذا القائد الذي نبت على هذا الإيمان يعمل لله، ويعيش تنفيذاً لأمر الله، ويموت جهاداً في سبيل الله، هو الذي تسلم قيادة الجيوش المسلمة التي خرجت تحارب أئمة الكفر في الأرض، وبسبب هذا الإيمان كان أمير الجيش المسلم يتميز بصفات ثلاث لم يعرفها التاريخ العسكري القديم، ولن يعرفها الحديث ولن يعمل إلا المسلم بها، وهي:

1. أنه لا يحارب لإنشاء مجد شخصي له، يرثه أهله من بعده أو يوهب بسببه الأوسمة والشارات وما إلى ذلك، نقول: إن نبي الإسلام محمداً عليه السلام وهو يقود جيوش الفتح إلى مكة والعباس بن عبد المطلب قد حبس أبا سفيان بمضيق

الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها، فيرى شيئاً كثيراً فيقول: "ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن"[1]، فشتان بين الاثنين، ملك أرض ونبوة سماوية، إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن ملكاً أرضياً/ ولكن كان نبياً سماوياً، فكل جهد بذله في الأرض وكل فتح قاده وكل مسلم هداه لم يكن يريد من أحد منهم أجراً ولا ثواباً، وإنما أجره على الله رب العالمين، فليس المجد الشخصي وبناء الملك الأسروي هو هدفه أو مقصده، ولا لاستكثار من المال والمتاع والضياع والقصور والأثاث، ولكنه عليه السلام توفي درعه مرهونة عند يهودي ولم يورث درهماً ولا ديناراً، وكذلك خليفتاه أبو بكر وعمر لم يخلف أحد منهما شيئاً يورث، ولكن كان هم الواحد منهما أن يخرج من هذه الدنيا كفافاً لا له ولا عليه.

والقائد على هذه الصورة، أي صورة الرسول وخطاه هو المرسل رحمة للعالمين، إنما يقود ويحارب من أجل سعادة الإنسان وإخراجه من عبادة العباد إلى عبادة الله، فهو لا يقتل إلا عدو الله الإنسان، ولا ينكل إلا بمن نكل بعباد الله ظلماً وعدواناً، فحربه حرب عادلة لا تكون إلا على الظالمين، وفتوحه فتح خير على المظلومين فليس غريباً أن يستقبل وتفرش له الأرض.

2. لا يمكن أن يهرب من المعركة، وذلك لأنه رجل يؤمن بالله ورسوله ويعرف

(1) سيرة ابن هشام، ج4، ص46، وعيون الأثر، ج1،ص170.

أن العمر محدود وأن سبب الموت هو انقضاء العمر وحضور الأجل، فالمعارك لا تقدم الموت ولا تؤخره، قال تعالى: "قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم" [1]، وكذلك فهو يسمع قول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير" [2]، والذي يسمع هذا الوعيد الشديد من رب العالمين وهو يسعى لرفع شأن دين الله، فأنى له أن يهرب من الموت أو المعركة، إنّ ذلك غير ممكن ولا متصور إطلاقاً عند المؤمنين، وذلك لأنّ التولي يوم الزحف من صفات الكفار والمنافقين قال تعالى: "ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً "، وقد ورد التولي يوم الزحف في السبع الموبقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتاريخ قادة المسلمين يثبت ذلك، ففي معركة احد وكان يقودها الرسول القائد أثخن القرشيون في المسلمين قتلاً، وتجريحاً فثبت القائد عليه السلام، وقال وقد ولى بعض الناس: من رجل يشري لنا نفسه[3]؟ فقام بعض الأنصرا ودافعوا عن القائد حتى فاء إليه المسلمون، يقول الله تعالى: "إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في اخراكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما

(1) آل عمران، 154.

(2) الأنفال 15-16.

(3) سيرة ابن هشام،ج3،ص86.

أصابكم، والله خبير بما تعملون".

وكذلك يوم لقاء هوازن في حنين يوم شد الكافرون على المسلمين فانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ثم قال: أين أيها الناس هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله، فثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته[1].

هذا صمود الرسول عليه الصلاة والسلام وقادة المسلمين إنما كانوا من أتباعه وأصحابه، فلا يعقل ولم يذكر لنا التاريخ هزيمة لأحدهم يولي فيها دبره إلى الأعداء حرصاً على حياته، إنما كان المنهزم ينحاز منهم إلى فئة أخرى ليشنّ الهجوم مرة أخرى، وسبق أن ذكرنا ما كان من شرحبيل بن حسنه مع الأسود، وقول أبي بكر له: لا أرينك ولا تراني، وكذلك أبو عبيد الثقفي، فرغم الهزيمة التي حاقت بجنوده إلا أنه صمد في القتال حتى قتل "حدثنا إبراهيم، حدثنا محمد، حدثنا سعيد قال: سمعت ابن المبارك عن عبدالله بن عوف عن محمد بن سيرين قال: "لما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبر أبي عبيد قال: إن كنت له لفئة لو انحاز إليّ"[2].

وقال سليمان التيميّ عن أبي عثمان قال لما قتل أبو عبيد قال: جاء الخبر عمر، فقال: يا أيها الناس أنا فئتكم[3]، ويقول المحقق لكتاب ابن المبارك في الهامش تعليقاً على الحديث

---

(1) سيرة ابن هشام، ج4، ص85.

(2) كتاب الجهاد لعبدالله بن المبارك المروزي تحقيق نزيه حماد.

(3) المرجع السابق.

الأول: قال السرخسي ففي هذا بيان أنه لا بأس بالانهزام إذا أتى المسلمين من العدد ما لا يطيقونه، ولا بأس بالصبر أيضاً بخلاف ما يقوله بعض الناس أنه إلقاء النفس في التهلكة، بل في هذا تحقيق بذل النفس لابتغاء مرضاة الله تعالى، فقد فعله غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم، منهم عاصم بن ثابت حمى الدبر، وأثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فعرفت أنه لا بأس به[1].

وقادة هذه هي أخلاقهم ومواقفهم قل أن يذكر مثلهم في التاريخ إلا في ظل الإسلام.

3. لا يكون دائماً إلا في مقدمة عسكره وأول من يخوض المنايا ويضرب بالسيف وذلك لأنه يطلب الشهادة ويسعى لها، فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائماً في مقدمة المعارك التي قادها بنفسه وكذلك كان خلفاؤه وقادتهم.

وفي الوقت الذي كان فيه الأكاسرة والقياصرة يتخلفون في قصورهم وبين خدمهم وحشمهم ويرسلون كما اتفق من ينوب عنهم ويقود المعارك، كان عليه السلام قائداً لكلّ المعارك الهامة التي خاضها جيشه، ولم يخلف عنه إلا في السرايا والغزوات الصغيرة.

وكذلك كان شأن أبي بكر وعمر، فلولا أنّ الأمة منعتها من الخروج لحاجتها إليهما في مركز القيادة لكانا خرجا قادة محاربين لا يقعدهم عن ذلك هم دنيا أو ابتغاء راحة فيها.

---

(1) شرح السير الكبير، ج1، ص125.

إنّ التدين العميق والعقيدة الصحيحة هي التي تخرج القادة وتربيهم وتهذبهم وتجعلهم أفضل من تحمل الأرض لخير الإنسان وبقائه، ولن يستطيع أحد أن يذكر قائداً عربياً واحداً كان له في ميدان النصر تاريخ إلا وهو متدين إلى أبعد الحدود، وقادة الفتح الإسلامي كلهم من صحابه محمد عليه السلام تديناً وإخلاصاً ولقد أحصاهم محمد شيت خطاب فكانوا(256) قائداً عربياً مسلماً منهم (216) من الصحابة و(40) من التابعين[1]، توقف الفتح بعدهم وأصبح الجهاد بعدهم دفاعياً بعد أن كان معهم وقبلهم هجومياً.

2. الأخلاق المثالية:

مدح القرآن العظيم محمداً عليه السلام، يقول الله تعالى: "وإنك لعلى خلق عظيم"[2]، وهذب خالق العباد محمداً وعلمه فأحسن تعليمه وأدبه فأحسن، ولقد عرف العرب في جاهليتهم لمحمد ذلك، فما استطاعوا أن يغمزوا في خلقه شيئاً ولم يتعرض في يوم من الأيام لريبة مهما كانت، ذكر الواقدي حديث ابن عباس ومن حديثه خرج في الصحيحين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، فطلب قيصر ناساً من قومه يسألهم عنه، فوجد أبو سفيان ابن حرب في تجارة هناك فجيء به إلى

(1) الإسلام والنصر، محمود شيت خطاب، ص118.

(2) القلم، آية 4.

قيصر، فسأله عن نسبه عليه السلام وسأله إن كانوا يتهمونه بالكذب قبل الرسالة، فأجاب بالنفي فسأله إن كان يغدر، فأجابه بالنفي أيضاً، وسأله عما يأمرهم به، فقال: "يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة..."[1] الحديث.

هذا قول الذين يحاربونه وكان وقتها معهم في هدنة الحديبية.

وقد أورد صاحب الرسول القائد[2] ما قاله: سير وليم موير عن سيدنا محمد عليه السلام، فقد قال ذلك الكاتب: "تجمع كل مراجعنا وأسانيدنا – فيما ينسب إلى محمد في شبابه من سيرة التواضع والاحتشام وطهار الخلق- على صورة نادرة الوجود بين المكيين"، ثم يقول: "كانت طباع الرسول هادئة متلائمة وكان يمرح أحياناً، ولكنه كان في معظم الأحوال جاداً، وكانت جميع تصرفاته تدل على رحمة عظيمة يعامل كل الناس على قدم المساواة، وكانت عامة الناس تحب الرسول، وكان حسن الطباع حليماً رحيماً صبوراً".

هذه الأخلاق المثالية كانت للرسول عليه السلام قبل بعثته، فلما جاءت الرسالة زادت همومه وأشغلت وقته "يا أيها المدثر، قم فأنذر"، فتولى عهد النوم والراحة، كما قال عليه السلام لعائشة وأمضى سني بعثته، وهي تقارب ربع قرن وهو يجاهد الشرك والمشركين ويدعو إلى الله وحده دون أن يمتلك ديناراً أو عقاراً، بل كفاه ما يقول:

---

(1) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيرين، ص260.

(2) الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ص446.

"حسب ابن آدم لقيمات يقمن أوده" ونهج نهجه أبو بكر أوصى قادته بهذا المنهج، وكذلك خلفاؤه الراشدون، فكانوا مثال الأخلاق الفاضلة فكانوا قادة الهدى والخير وإن كانوا على رأس جنود يحملون السيوف والرماح.

3. الكفاءة العسكرية:

كانت هذه وحدها هي مقياس الاستحقاق لقيادة جنود المسلمين ضد الكفر والكافرين فكان عليه السلام يختار أمراءه منهم وقد أخرج البيهقي من طريق أبي معشر عن بعض مشيختهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إني لأؤمر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب"[1].

وعندما كان من رأى بعض الناس ألا يكون أسامة بن زيد أميراً على الجيش الذي بعثه عليه السلام في آخر أيامه غضب لذلك، وعنف الناس وأعلمهم أنه خليق للإمارة وأهل لها[2].

وكان أبو بكر الصديق يستشير الصحابة في تولية أمراء الجيش، وقد مرّ معنا كيف استشار الصحابة في تولية الجيش لمحاربة فارس، وكيف أشاروا عليه بسعد بن أبي

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص106.

(2) المرجع السابق.

وقاص فولاه[1].

وكذلك عزل عمر بن الخطاب شرحبيل بن حسنة لا لريبة فيه، ولكنه اتهمه بالضعف في الأمور العسكرية، أمّا خالد بن الوليد صاحب الحروب الطويلة، فلسنا نبدي فيه رأياً جديداً، فلقد عرفه معاصروه وقاسوا ويلات الحرب معه ما جعلهم يؤمنون بعسكريته وخبرته من بعيد ويحسبون لذلك ألف حساب، فقد قال أكيدر بن عبد الملك يحذر أهل دومة الجندل بعد الردة عندما سمع بمقدم خالد بن الوليد "أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أحد في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم كثروا أو قلوا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم"[2] فأبوا عليه، فدهمهم خالد إن تقوى الله في الإسلام ومخافة عقابه ورجاء ثوابه والعمل له وحده هي التي خرجت القادة المسلمين المتميزين بين قادة العالم، فهؤلاء رسل سلام وخير لعباد الله وشر وويل لجنود الشيطان وأتباعه، ومن هذا حالهم فإن لهم مع السماء سبب وأي سبب ذوالإسلام، وقد أنزل على محمد من السماء ربط هؤلاء القادة مع الله فاتخذوا طريقه منهجاً يقيسون عليه كافة أعمالهم فأطاعوا الله فأطاعهم الناس، فصارت طاعتهم بذلك جزءاص من طاعة الله، أما إذا ما اختلفوا وخرجوا عن منهج الله فإنهم بذلك يشقون ويشقى بهم غيرهم.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علقمة بن مجزز – قال أبو سعيد الخدري

---

(1) المرجع السابق.

(2) الطبري، ج4، ص22.

وأنا فيهم- حتى إذا بلغنا رأس غزاتنا أو كنا ببعض الطرق، أذن لطائفة من الجيش واستعمل عليهم عبدالله بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت فيه دعابة فلما كان ببعض الطريق أوقد ناراً، ثم قال للقوم: أليس لي عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى، قال: أفما أنا آمركم بشيء إلا فعلتموه؟ قالوا: نعم، قال: فإني أعزم عليكم بحقي وطاعتي إلا تواثبتم في هذه النار، قال: فقام بعض القوم يحتجز حتى ظهر أنهم واثبون فيها فقال لهم: اجلسوا فإنما كنت أضحك معكم[1]، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قدموا عليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمركم بمعصية فلا تطيعوه[2].

وهكذا؛ فإنّ العسكرية الإسلامية قد أقامت بناء القيادة العسكرية على الأسس السليمة والصحيحة ضاربة عرض الحائط بكل ما تواضع عليه الناس في السابق من تعيين أشخاص للقيادة دون أن تكون لهم في فنون الحرب ممارسات، بل بناء على أحسابهم وأنسابهم وصلتهم بالملوك، ثم هي فوق هذا قد ربطت هذه القيادة مع السماء، فجعلت عملها خالصاً لوجهه والجزاء عن هذا كله من عند الله وحده لا من عند الناس ولا من عند الجبابرة في الأرض.

إنّ العسكرية الإسلامية خلقت القيادة خلقا جديداً، وأصبحت بذلك مدرستها

---

(1) سيرة ابن هشام، ج4، ص289.

(2) سيرة ابن هشام، ص289.

في موضوع القيادة مثالاً يحتذى وتدرس أفكاره ومعاركه وقياداته وشؤونها دراسة أكاديمية في جامعاتها العسكرية.

الفصل الثاني

بحث تاريخي في كيفية اختيار القادة وما يتعلق بكافة شؤونها

إن عملية اختيار القادة في التاريخ القديم ليست على ما يبدو بالعملية الصناعية، ومعنى ذلك أنها لم تكن وليدة صدفة أو لحظة ما من لحظات الزمن، ثم أصبحت شيئاً قد تم تحديده، وانتهى الأمره هكذا، وذلك لأنّ مفهوم القيادة العسكرية هو عبارة عن تجارب طويلة متنوعة باشرها الإنسان منذ بدأ يستعمل الحرب كوسيلة من وسائل حياته.

ولم يظهر المفهوم المعاصر للاستراتيجية العسكرية بوصفه علماً من العلوم بين عشية وضحاها، لأن صياغة أية مجموعة من الفاهيم لا بد أن يسبقها تجميع الكثير من المعلومات، فالإنسان ينتقل من الملاحظة والتجربة إلى النظرية في دراسته للكون، وقد أدت التجارب العسكرية خلال سنوات طويلة كانت فيها مصدراً لمعرفة الإنسان لشؤون العسكرية إلى الحافز على تطور الاستراتيجية العسكرية ونموها[1]، وغدت الحرب ظاهرة حتمية في حياة الأمم، ونشأت الجيوش المحترفة.

وكثيراً ما كان رئيس الدولة هو قائد البلاد العسكري، وكان مؤرخو السير يدفعون حملاته العسكرية وانتصاراته وهزائمه، وبات في وسع الناس عن طريق تجميع التجارب العسكرية والمقارنة بين عوامل التاريخ العسكري الوصول إلى استنتاجات

---

(1) المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية،ص10.

تتعلق بالظواهر المتكررة للحرب ووضع القواعد والصيغ العامة بما تضمه من قواعد ومبادئ، ولم تتخذ هذه القواعد العامة في البداية أي شكل محدد على الرغم من الحقيقة الواقعة، وهي أنّ القادة العسكريين في القرون القديمة من أمثال الإسكندر وهانيبال ويوليوس قيصر غيرهم كانوا يحملون مقاهيم محددة عن فن الحرب، وهذه المفاهيم لم تتعد حدود التعميمات والاستنتاجات الفردية[1].

ومعنى هذا أن القيادة العسكرية وما يتعلق بها من فنون لم تكن علماً ذا أسس علمية راسخة متعارفاً عليها من شتى الأمم، يمكن بواسطته قياس مقدرة القائد ومعرفة اتجاهاته، ولكن هذا الأمر كان موهبة فردية خاصة يتمتع بها أفراد يتهيأ لهم الزمن، بحيث يكونون في يوم من الأيام على رأس جيش يخوضون به المعارك فيحققون به النصر وتكون نتائج النصر لذلك خاصة بهم وحق لهم فقط.

لذلك؛ فإنّ التاريخ القديم قليلاً ما يذكر قادة عسكريين فقط، أي لا صفة لهم أخرى غير الأمور العسكرية، ودون أن يختلط هذا الأمر اختلاطاً لا يمكن فصله عن السلطان والحكم، فالإسكندر وهانيبال ويوليوس قيصرجميعهم كانوا أباطرة قبل قيادة الجيوش، ووضعهم هذا في رأس الدولة هو الذي مكن من بروز قدراتهم العسكرية التي أحسنوا استغلالها، فكان لهم هذا الذكر في التاريخ، ولكن المهم في الأمر أن هذه الإمبراطوريات سرعان ما انهارت بانهيار هؤلاء القادة وأصبحت إمبراطورياتهم الواسعة

---

(1) المصدر السابق، محمد جمال محفوظ.

الممتدة بين عشية وضحاها أثراً بعد عين ونقطة لها في التاريخ مكان فقط، ولذلك لم يخلفوا مدرسة عسكرية أو تاريخاً فنياً يعتمد على دراسته ويحتذى في القيادة أو غيرها.

ولكن عندما قامت الإمبراطوريات الوراثية التي يتداول الحكم فيها أفراد أسرة واحدة ومع مرور الزمن أصبح هؤلاء يرغبون في البقاء في قصورهم ويبعثون من ينوب عنهم في قيادة المعارك وترتيب أمورها، بل أصبح من ترتيب الدولة أن تكون هناك بعض الوظائف الوراثية أيضاً كإدراة شؤون الحرب[1] وقيادة الفرسان وفي أيام الساسانيين كانت هناك ثلاث وظائف حربية وراثية هي: رئاسة الشؤون العسكرية ورئاسة الفرسان والقيام على الأهراء(الميرة والتموين).

وكذلك كان الحال عند الرومان وأسرهم، ولذلك لمّا اضمحل الجيش الروماني ووهن كان من أهم أسباب هذا الوهن أنّ مناصب القيادة فيه كانت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وقفاً على الكفاءة[2]، ويبدو أن هذا الأمر لم يكن متوقفاً على الفرس والروم بل هو الحكم الشائع عند كل الخلق حينئذ، فبلقيس عندما وردها كتاب سليمان عليه السلام: "وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين"[3]، قالت: "يا أيها الملأ أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون، قالوا نحن أولوا قوة وبأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين"، وقد قال القرطبي في تفسير ذلك:

---

(1) قادة فتح بالد فارس، محمود شيت خطاب.

(2)قادة فتح بلاد الشام ومصر، محمود شيت خطاب، ص23.

(3) سورة النمل آية 31،30.

الملأ: أشراف القوم قال ابن عباس: كان معها ألف قيل، وقيل اثنا عشرة قيل، مع كل قيل مائة ألف مائة ألف والقيل الملك دون الملك الأعظم فأخذت في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يعرض بقولها: "ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون"، فكيف في هذه النازلة الكبرى فراجعها الملأ بما يقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع. قال قتادة: ذكر أنه كان لها ثالثمائة وثلاثة عشر رجلاً هم أهل مشورتها كل رجل منهم على عشرة آلاف(1).

فهؤلاء الأقيال ما هم إلا قادتها العسكريون جمعتهم لترى رأيهم في هذه النازلة ولتعلم مقدار ما عندهم إذا ما قررت دخول الحرب مع سليمان بناء على كتابه المذكور أعلاه.

والملاحظة الجديرة بالنظر هنا: هو إرجاع الأمر إليها بعد أن ذكروا قوتهم وبأسهم في الحرب واستعدادهم لخوضها. هل الحرب أمر سياسي يقرره حكام البلاد أم هو قرار عسكري يصدره أمراء الجيش بما يعلمون أن عندهم من جند وعتاد وتنظيم وتجهيزات.

إن المفهوم من هذه الآية الكريمة أن دخول الحرب أو عدمه هو قرار سياسي يعتمد على رأي عسكري، مما يدل على الفصل بين الأمور العسكرية والسياسية فصلاً

---

(1) تفسير القرطبي، المجلد13-14،ص194.

جيداً يوحي بمعرفة اختصاص كل واحد منهم لحدود مهامه.

وفي القرن الخامس الميلادي جرت المحاولات الأولى لتنظيم معلومات التجارب والخبرات العسكرية المكتسبة ووضع المفكرون العسكريون في الشرق الأقصى من أمثال كونفوشيوس وسان تزو وود تزو مفاهيم أساسية ومبادئ رئيسية للحرب وفي مقدمتها القنون الخاص بتنمية الوحدة بين القائد والأمة. وذاك المتعلق بعامل الزمن وذاك المتعلق بالأوضاع الجغرافية لمسارح الحرب أو بعبقرية القائد[1].

ولكن أهم حدث في تاريخ الحرب هو ظهور الإسلام. وذلك لأن الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين كانت القاعدة الأساسية التي وضعها للحياة هي الطمأنينة والسلام والاستقرار، ولكن الإسلام مع هذا دين يواجه الواقع ولا يفر منه، وما دامت في الدنيا نفوس لها أهواء ونوازع ومطامع، فلا بد إذن من الاشتباك والحرب.

وبناء عليه؛ فلن تكون الحرب في الإسلام إلا لردع المعتدي وكف الظالم ونصره الحق والانتصاف للمظلوم، وهو بذلك – أي الحرب- فضيلة من الفضائل تنتج الخير والبركة والسموّ للناس[2].

ومن حيث إن دوافع الحرب في التاريخ كله هي التي كانت تخلق القادة وترسم لهم طريقهم، لأنهم بعيدون عن نظام العقيدة الإلهية أو مصادرها، ولذلك غلبت عليهم

---

(1) المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية، محفوظ، ص21.

(2) السلام في الإسلام، حسن البنا، ص29.

الشرور وحروب الإبادة، وذلك بسبب سوء نواياهم ومطامعهم ووحشية أهدافهم وأغراضهم، فإن دوافع الحرب في الإسلام هي التي تكون فيصلاً في اختيار القادة وما يتعلق بكافة شؤونهم، ويمكن حصر أسباب الحرب في الإسلام في نقاط قليلة هي:

1. رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال الوطن والدين وفي ذلك يقول الله: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين".
2. تأمين حرية انتشار الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم.
3. حماية الدعوة والدعاة حتى تبلغ إلى الناس جميعاً من غير عقبات أو ظلم.
4. تأديب ناكفي العهد من أي جنس كانوا لقوله تعالى: "وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون"(1).

هذه المبادئ السامية للحرب هي التي أخرجت قادة المسلمين للفتح وما في نفوسهم شيء من نوازع الدنيا أو الحرص عليها أو من شواغل الملك والسلطان إلا سلطان الله.

فهؤلاء الناس لا يعملون لحسابهم الخاص فهم حريصون على أموالهم وأهليهم وأمجادهم ولا هم يعملون لحساب بشر آخر فهم حريصون على نصرته ليحرزوا عنده الحظوة والمكانة ولكنهم يعملون لله فهم حريصون على الشهادة لينالوا بها جنات عدن

---

(1) سورة التوبة، آية 12.

التي وعد المتقون.

وروى النسائي عن شداد بن الهاد رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب جاء فآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: أهاجر معك فأوصى النبي به بعض أصحابه، فكانت غزاة غنم النبي فيها شيئاً فقسم وقسم له فقال ما هذا؟ فقال: قسمته لك قال ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى ها هنا وأشار بيده إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة. فقال: إن تصدق الله يصدقك فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو، فأتى به النبي محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي: أهو هو، قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه ثم كفن في جبة النبي ثم قدمه فصلى عليه فكان مما ظهر في صلاته: اللهم إن هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً وأنا شهيد على ذلك[1].

إنّ تعاليم الإسلام السامية التي لا تعمل أبداً لشهوات الأرض المتغلبون عليها تجعل اختيار القادة وما يتعلق بشؤونهم أمانة يحاسب الله عليه لوضع الرجل المناسب في المكان المناسب والأمانة عصب الأمة في جميع شؤونها والله تعالى يأمرنا بأدائها فيقول: "إن الله يأمركم أن بؤدوا الأمانا إلى اهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحموا بالعدل".

وأمانة الاختيار تعني استقامة الضمير ونقاء النفس وشجاعة الرأي وخلوص القلب من الجبن والرياء والنفاق على أساس من التقوى والعلم والمعرفة وتنزه الإنسان

---

(1) السلام في الإسلام.

عن اختيار غير الأكفاء للهوى[1].

وشأن من اختار من لا يصلح كشأن شهادة الزور، وهي من الموبقات، وهي من مظالم اللسان التي يضيع بها الحق وتختفي معالم العدل والله سبحانه وتعالى يحذر من ذلك أشدّ الحذر.

والرسول الكريم عليه السلام أيضاً يحذر من سوء الاختيار فقد روي عنه عليه السلام أنه قال "من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار".

وعن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبو بكر الصديق حين بعثني إلى الشام يا يزيد إن لك قرابه عسيت أن تؤثرهم بالإمارة وذلك أكثر ما أخاف عليه بعد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة، فعليه لعنة الله، لا يقبل من صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم"[2].

فالذي يقدم ويؤخر في نظر الإسلام في القيادة هو أهلية التحمل والكفاءة للقيام بمهامها ليس إلا، وإلا فما معنى تأمير أسامة بن زيد وهو شاب لما يبلغ العشرين على شيوخ الأنصار والمهاجرين في بعثه، وما معنى عزل عمر لشرحبيل عن قيادته، وقد أبلى جيداً في الجهاد في فلسطين والردة.

إنه ليس هناك من معنى إلا أن سمو نظرة الإسلام للقائد جعلته يختار دائماً من لا

---

(1) المدخل إلى العقيدة الإسلامية والاستراتيجية، محفوظ، ص34.

(2) المرجع السابق، ص278.

ترقى إليهم الشبهات، فلما خالفوا خالف الله عليهم فتولاهم غير الكفء وسار فيهم بغير الحق حتى التوى عليهم كل أمر سهل.

وفي العصور الحديثة لم يتحقق شيء ذو قيمة عن موضوع القيادة وشؤونها حتى القرن السادس عشر حتى كان مكيافلي الإيطالي، فقام بمحاولات جادة للبحث في كافة القضايا والأمور المتعلقة بتسيير دفة الحرب ووضع كتابه "فن الحرب" الذي اعتمد فيه على تجارب القادة العسكريين القدامى[1].

وبعد هذا قامت المدارس العسكرية الأوروبية بمختلف أسمائها، وبدأت بوضع مبادئ لها عن الحروب تسجلها وتدرس المعارك القديمة وتضع لها مخططاتها وقيمتها وتجعلها من عداد المواد التي تدرس للعسكريين في جامعاتهم.

إنه مما لا شكّ فيه أن العالم سيظل يتجه نحو الخسران والنهاية ما دام مصراً على الابتعاد عن منهج الله في ترتيب شؤون الحياة بأكملها، ومن أهم هذه الشؤون الحرب وقادتها وما يتعلق بكافة شؤونها.

---

(1) المدخل للعقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية اللواء محمد جمال الدين محفوظ، ص21.

الفصل الثالث

أمراء الجيش الإسلامي في السلم والحرب

إنّ أمراء الجيش الإسلامي في السلم والحرب صورة طبق الأصل من قول الله تعالى: "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً"[(1)].

الرسول القائد عليه الصلاة والسلام هو القدوة والمثل في هذا، فلقد كانت حياته كلها جهاداً في سبيل الله، فإذا ما انجلى غبار المعركة وعاد الجند إلى منازلهم، فإنّ الرسول الكريم يبغي نبياً رسولاً لا يفتر عن ذكر الله وتبليغ الرسالة وأداء الأمانة طرفة عين، فهو عامل دائماً في السلم والحرب؛ في الثانية يدفع أعداء الله عن خلق الله، وفي الأولى يقود المؤمنين إلى ربهم راضية نفوسهم، فقيادته عليه السلام للناس إنما كانت قيادة إقناعية تقرّ على أن المرؤوسين يطيعون أوامر القائد عن رغبة واقتناع ذاتي وليس عن رهبة

---

(1) الفتح الآية، 29.

وخوف[1]، وذلك لأنّ القائد الرسول يضع في حسابه العامل البشري، وأن قدرات البشر تختلف باختلافهم وتتنوع بتنوعهم.

وهذه القيادة تعتمد إلى حدٍّ كبير على قدرة القائد ومهاراته في السلم والحرب ومواجهة كافة المواقف بحلول جذرية، بعكس القيادة الإرغامية التي تقوم على قوة القائد وسلطته. فبينما القيادة الأولى تولد الرضا وارتفاع الروح المعنوية والمحبة والإخلاص وتوخي الكفاءة العالية لدى الجميع، بينما الأخرى تجعل الأفراد أدوات صماء في آلة يطيعون طبقاً للنظام أو رهبة من السلطان.

ومحمد عليه الصلاة والسلام كان قائداً إقناعياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة سواء في الحرب أو السلم، فجنوده يحاربون معه، لأنهم مقتنعون تماماً أنه على الحق المبين، وهو قائد إرغامي أيضاً، لأن ما جاء به من الفكر والسياسة لا يملك الجند أن يخالفوه للإيمان العميق في نفوسهم بأن رضا الله سبحانه هو رضا رسوله عليه السلام، والله سبحانه وتعالى يقول: "قل إن كنتم بحبون الله فاتبعوني يحببكم الله".

وهنا تنسجم القيادة الإقناعية مع ما قرره الإسلام من مبادئ الحرية والكرامة الإنسانية، وهي من المبادئ الأساسية التي صنعت أمة ذات حضارة عريقة أضاءت للعالم طريق الحرية والتقدم، كما صنعت جيشاً لا يقهر وقادت أبطالاً وعباقرة في فنون الحرب، وهنا تكمن فلسفة نظرية الإسلام في القيادة، لأن الذين يساقون لا يمكن أن يكونوا قادة

(1) المدخل إلى العقيدة محمد محفوظ، ص289.

فكر ولا أبطال جهاد، ولذلك فقد كان الرسول عليه السلام لا يقود بمقتضى السلطة "بل بالكفاءة والمقدرة والأخلاق والحب والشخصية والثقة"[1].

وما دام الأمر كذلك لا يتعلق بمنفعة دنيوية ومادية ولا تؤثر فيه مكاسب شخصية بل الكل متجه نحو الله وفي سبيله، فلا شك أن قادة هم هؤلاء سيكونون في حربهم رسل السلام والهدى والخير والحرية للناس أجمعين، لأنهم يجتمعون مع الناس على صعيد واحد إذا ما أعلنوا إسلامهم وآمنوا بالله وأعطوا الحق، وما عدا ذلك فلا سلام ولا أمان لكافر أثيم.

هذا وقد أوسع الإمام الماوردي[2] أمر أمراء الجيش في الحرب والسلم بحثاً فقال: والذي يتعلق بها من الأحكام إذا عمت ستة حقوق: القسم الأول في تسيير الجيوش وعليه في السير بهم سبعة حقوق:

1. الرفق بهم في السير الذي يقدر عليه أضعفهم وتحفظ به قوة أقواهم ولا يجد السير فينهك الضعيف ويستفرغ جلد القوي فقد روى عنه عليه السلام أنه قال "المضعف أمير الرفقة".

2. أن يتفقد خيله التي يجاهدون عليها وظهورهم التي يمتطونها فلا يدخل في الخيل إلا الصالح.

---

(1) المدخل إلى العقيدة، محفوظ، ص291.

(2) الأحكام السلطانية، ص35.

3. أن يراعي معه من المقاتلة من المسترزقة والمتطوعة فيفرض لهم كل في ماله الذي لا يشاركه في أحد.

4. أن يعرف على الفريقين العرفاء، وينقب عليهم النقباء ليعرف أحوالهم وتقرب عليه دعوتهم إليه.

5. أن يجعل لكل طائفة شعاراً يتداعون به ليصيروا متميزين وبالاجتماع متضافرين.

6. أن يتصفح الجيش ومن فيه ليخرج منهم من كان فيه تخذيل أو إرجاف أو عين للمشركين.

7. أن لا يمالئ من ناسبه أو وافق رأيه ومذهبه على من باينه في نسب أو خالفه في رأي أو مذهب.

وأما القسم الثاني من أحكام هذه الإمارة إذا عمت فهو في تدبير الحرب وشأنها مع صنفي المشركين في دار الحرب الذين وصلتهم دعوة الإسلام والذين لم تصلهم فهو مخير بين ذلك في فعل الأصلح للمسلمين والأنكأ للمشركين، وعليه أن يدعوهم للإسلام ويعلمهم معجزات الرسول قبل حربهم وهم الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام قط ولم يعلموا عنها شيئاً[1].

وأما القسم الثالث من أحكامها فهو ما يلزم من أمير الجيش في سياستهم وهو

(1) الأحكام السلطانية للماوردي.

عشرة أشياء:

1. حراستهم من غرة يظفر بها العدو.
2. أن يتخير لهم موضع نزولهم لمحارة عدوهم.
3. إعداد ما يحتاج الجيش إليه من زاد وعلوفة تفرق عليهم في وقت الحاجة وليكونوا على الحرب أوفر.
4. أن يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليه ويتصفح أحواله حتى يخبرها فيسلم من المكر.
5. ترتيب الجيوش في مصاف الحرب والتعويل في كل جبهة على من يراه كفؤا لها.
6. أن يقوي نفوسهم بما يشعرهم بالظفر ويقرب إليهم أسباب النصر ليقل العدو في أعينهم.
7. أن يعد أهل الصبر والبلاء منهم بثواب الله لو كانوا من أهل الآخرة وبالجزاء والنفل من الغنيمة إن كانوا من أهل الدنيا، قال تعالى: "ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها".
8. أن يشاور ذوي الرأي فيما أعضل ويرجع إلى أهل الحزم فيما أشكل ليسلم من الزلل.
9. أن يأخذ جيشه بما أوجبه الله تعالى من حقوقه وأمر به من حدوده حتى لا يكون بينهم تجوّز في دين ولا تحيف في حقّ، فإن من جاهد عن الدين كان أحق الناس

بالتزام أحكامه والفصل بين حلاله وحرامه.

10. أن لا يمكن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بها عن مصابرة العدو وصدق الجهاد.

وأما القسم الرابع من أحكامها فهو ما يلزم المجاهدين معه من حقوق الجهاد في حقّ الله تعالى وفي حقّ الأمير، فأما اللازم لهم في حق الله تعالى فهو مصابرة العدو عند التقاء الجمعين، وأن يقصد بقتاله نصرة دين الله تعالى وإبطال مخالفه، وأن يؤدي الأمانة فيما حاز من الغنائم، ولا يغل أحد منهم شيئاً، حتى يقسم بين جميع الغانمين والشاهدين للمعركة، وأخيراً أن لا يمالئ من المشركين ذا قربى ولا يحابي في نصرة دين الله ذا مودة، فإن حق الله أوجب ونصرة دينه ألزم.

وأما ما يلزمهم في حقّ الأمير؛ فالتزام طاعته والدخول في ولايته، لأن ولايته عليهم انعقدت وطاعته بالولاية وجبت قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"، وأن يفوضوا الأمر إلى رأيه ويكلوه إلى تدبيره حتى لا تختلف آراؤهم فتتلف كلمتهم ويفترق جمعهم وأن يسارعوا إلى امتثال الأمر والوقوف عند نهيه وزجره، لأنهما من لوازم طاعته، وأن لا ينازعوه طاعته، وأن لا ينازعوه في الغنائم إذا قسمها، ويرضوا منه بتعديل القسمة عليهم[1].

وأما القسم الخامس من أحكامها فهو مصابرة الأمير، فقتال العدو ما صابر، وإن

---

(1) الأحكام السلطانية للماوردي.

تطاولت به المدة ولا يولي عنه وفيه قوة، قال تعالى: "يا أيها الذي آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون"(1).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا فيما دماءهم وأموالهم إلا بحقها"(2).

وأما القسم السادس من أحكامها فهو السيرة في نزال العدو وقتاله، ويجوز لأمير الجيش في حصار العدو أن ينصب عليهم العرادات والمنجنيقات، وأن يهدم عليهم منازلهم ويضع عليهم البيات والتحريق وقطع الشجر.

هؤلاء هم أمراء الجيش في الحرب جنود يقومون أثناء الليل والنهار بإدارة شؤون المعركة إدارة كاملة وهو يتحمل مسؤوليتها أمام الله إذا ما قصر في صغيرة من متطلباتها وهو بذلك رأس الأمر كله فيها، هو أب الجنود جميعاً ومسؤول عن أرواحهم ويحزنه من يفقد منهم وهو خليفتهم في الأهل والولد يرعى شؤونهم ويتحمل مسؤوليتهم كاملة، وهو بعد المعركة يبحث نتائجها ويستمر في رسم خططها ويعمل على تقسيم الغنائم بحقها وينفل من يرى مصلحة المسلمين في تنفيله، ثم هو يفادي الأسرى أو يمنّ عليهم حتى تضع الحرب أوزارها، وهو على الكفار شديد لا تأخذه في الله لومة لائم، ثم هو يواسي الجرحى ويداوي جراحاتهم ويدفن موتاهم، وهو في كل شيء وقبل كل شيء ينسى نفسه فأقل اهتمام بيديه في شيء من

(1) سورة آل عمران، آية 200.

(2) الأحكام السلطانية للماوردي.

شؤون الحرب هو شأن نفسه، وما يزيد عن أن يكون فرداً من أفراد المسلمين له حصته كحصتهم فقط زيادة عن أعبائه الكثيرة التي لا يشاركه فيها غيره من الجنود.

قال ابن إسحق: ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله، اقسم علينا فيأنا من الإبل والغنم حتى ألجأوه إلى شجرة، فاختطفت عنه رداؤه، فقال: ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً، ثم قال إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها، ثم قال: أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة.

صمد عليه السلام في المعركة صمداً ولولاه لتغير وجه المعركة، فلما انتهى الحرب وجاء عليه السلام رد على هوازن نساءها وأبناءها. ويوم الفتح دخل مكة على تعبية كاملة وعندما أمكنه الله من قريش وكل كفارها قال اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وعمر بن الخطاب يهابه الناس لشدته قبل خلافته، فلما تولى الخلافة زاد خوف الناس منه فطمأنهم، وبينما هو يتربص وقعة القادسية، إذ لقيه راكب على ناقة عرف حين سأله أنه مقبل من هناك، فقال له يا عبدالله حدثني قال الرجل: هزم الله المشركين وجعل عمر يخب معه يسأله، والراكب يحدثه وهو على ناقته لا يعرفه، وكان هذا الراكب سعد بن عميلة الفزاري رسول سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين، وكان يحمل رسالة إلى عمر بالفتح وبعدة من أصيب من المسلمين وأسماء من عرف منهم، فلما دخل الرجلان المدينة وسلم الناس على عمر

بإمرة المؤمنين قال ابن عميلة: هلا أخبرتني رحمك الله إنك أمير المؤمنين، وأجابه عمر في بساطة: لا بأس عليك يا أخي وتناول منه كتاب سعد وقرأه على الناس(1).

ولقد دهش عمر بن الخطاب لما رأى من كثرة الفيء في القادسية وفتح المدائن ونفاسته وإحضار المسلمين له كاملاً، فالتفت إلى من حوله يقول: "إن قوماً أدوا هذا لأمناء وأجابه علي بن أبي طالب إنك عففت فعفت رعيتك ولو رقعت لرقعوا".

هذه هي الصور الحية التي يقتدي بها قادة الجيش الإسلامي أينما كان محمد عليه السلام وهو الأسوة والخلفاء الراشدون من بعده ساروا على هديه وسنته، وكذلك كان الصحابة جميعهم رضوان الله عليهم أناس قد فرغوا من أمر الدنيا، فلا يريدونها إلا ممراً للدار الباقية أو كما قال عليه السلام: إنما مثل الدنيا كركب بفلاة نزلوا بظل شجرة وارفة، ثم تركوها وانصرفوا، فلم يكن المقام بها مدعاة لترك التقى والدين والسفر الطويل.

لقد كان هؤلاء الأمراء فرساناً بالنهار رهباناً بالليل، ما يفترون، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم.

أما أولئك الذين خرجوا فاتحين في العراق والشام ومصر فكانوا على هذا المنهج القويم لا يميلون عنه شيئاً، بل يخافون الله شديد الخوف فلا يأكلون إلا الكفاف وما سدّ الحاجة، ثم هم بعد ذلك يقومون بما يجب عليهم تجاه الناس من إدراة لشؤونهم ورعاية لضعيفهم وإمامة لصلاتهم وفضاً لمنازعاتهم وحماية لثغورهم وتوقيداً لأمنهم وتسييراً

---

(1) الفاروق عمر، محمد حسين هيكل، ص182،ج1..

لحجيجهم، وبكلمة أخرى كانوا أصحاب الحائط يتولونه بالرعاية والإصلاح والسقي والتنظيم، فإذا ما طابت ثماره وزكت أزهاره ونواره أخرجوه صدقة في سبيل الله للفقير والمحتاج وطلبوا ما عند الله مما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

الفصل الرابع

أمراء الجيش الإسلامي وعلاقتهم بالجند

كانت دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام دعوة رحمة للعالمين بدأ بدعوته هذه في مكة المكرمة يدعو الناس لعبادة الله الواحد الأحد، ولكلما آمن فرد من الناس انتظم مع هذه الجماعة المسلمة له ما لها وعليه ما عليها، وفي بيعة العقبة الثانية قال عليه السلام للأنصار: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم[1]، قال فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، وتمت البيعة على ذلك، وكانت هذه البيعة على حرب الأسود والأحمر، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه اشترط عليهم لربه وجعل له على الوفاء بذلك الجنة.

ثم هاجر عليه السلام إلى المدينة المنورة واستقبلته المدينة بما يليق به من إجلال وإكرام وهاجر معه صحابته رضوان الله عليهم فآخى عليه السلام بين المهاجرين والأنصارفكان ذلك أول عقد اجتماعي لم يشهد مثله التاريخ ولا عرفته الدنيا إلا يومذاك يوم يكون للرجل أخ لم تلده أمه وهو في حقيقة الأمر أقرب إليه ممن ولدته له أمه وبذلك توثقت العرب بين هؤلاء الناس وخرج عليه السلام يوم بدر ونظر يمنة ويسرة وقال: أشيروا علي أيها الناس وعرف الأنصار أنه إنما يريدهم بذلك فقال سعد بن معاذ: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا إن ما جئت

---

(1) عيون الأثر لابن سيد الناس، ج1، ص163.

به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلفنا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصُبَّر في الحرب صُدَّق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله تعالى[1].

إن العقد الذي تم يوم العقبة ويوم التآخي قد ازداد توكيداً هذه الأيام، فهذه الناس المجتمعة اليوم إنما هي صف واحد وجسم واحد وروح واحدة لا أفراد متعددين، فكانت علاقة القائد بالجند في هذا اليوم وقبله وبعده علاقة عضو بجسم واحد.

أجار العباس أبا سفيان قبيل الفتح فقبل عليه السلام هذه الإجارة.

وأجاز إجارة عمته صفية لاثنين من أحمائها وقال: قد أجرنا من أجرت.

وقال عليه السلام قولته المشهورة: "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم"، فليس هناك حقير ورضيع وصغير وكبير، وإنما كما قال الله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، وقال تعالى: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص".

من هذه المنطلقات التي ذكرت كانت بداية علاقة القائد بالجند من ناحية عامة. والرسول عليه السلام عالج الأمر علاجاً جذرياً، فجمع بين أرواحهم على التقوى فتقاربت أجسامهم وأضاع شطراً غير قليل من حياته وهو يؤكد على وحدة هذه الأمة، "وأن هذه

---

(1) عيون الأثر لابن سيد الناس، ج1، ص163.

أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون".

ولا يشك أحد أن العلاقة الطيبة والوطيدة التي تربط بين القائد وجنده عامل هام من عوامل الانتصار في المعركة، ولقد بنى الإسلام هذه العلاقة على أعلى مستوى من تقوى الله فجعل المؤمنين إخوة بنص القرآن وهيهات أن تنفصم هذه الأخوة.

فقال عليه السلام: "مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر".

فعلاقة القائد بالجند إذن في الإسلام هي رابطة الأخوة المقدسة التي يحترمها الإسلام وهي تنبت مع المؤمن والمسلم منذ يوم إيمانه وإسلامه، لأنها كالدم في الجسم يكون موجوداً معه من يوم خلقه، فهذه العلاقة بين المسلمين ليست حادثة جديدة، ولكنها علاقتهم الأزلية.

وحيث إنه لا بد لتحمل المسؤولية في كل الميادين من تواجد هذا العلاقة بين القادة والجند فقد قواها الإسلام وأحكم رابطتها وأوجد من الثقة بينهما ما يجعل مشاربهم تتحد وقلوبهم تتقارب.

وقد ذكرنا آنفاً ما أورده الإمام الماوردي من الحقوق والأحكام التي تربط الجندي بالقائد وتربط القائد بالجندي، فعليه أي القائد من الحقوق لجنده في القسم الأول سبعة حقوق، وعلى القائد في القسم الثاني جمع الحقوق وتدبير أمر الحرب مع المشركين وحقوق القسم الثالث وهي عشرة كلها تلزم الأمير لجنده.

وأما القسم الرابع فنصفه يلزمهم والنصف الآخر يلزمه، وهو أربعة حقوق من كل منهما تجاه الآخر، وأما حقوق القسم الخامس والسادس فكلها تلزمه.

فالأمير لابد أن يحافظ على جنده، وألا يحملهم من الأمر مالا يطيقون وأن يحرص على سلامتهم وألا يفرق فيهم في المعاملة وأن يكون لهم المثل والقدوة في كل التصرفات وألا يكون بينة وبينهم حاجز وأن يتصرف معهم بحكمة وأن يكون أهلاً لثقتهم واطمئنانهم(1).

والجند في مقابلة ذلك ملزمون بالولاء ولاطاعة للقائد وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه لا يخالفونه ولا ينشقون عنه ويسعون إلى أن يكونوا عد حسن ظنه بهم جميعاً.

والرسول الكريم هو أول من تولى قيادة المسلمين، وقد حرص أن تكون علاقته بجنده قائمة على الودّ والحبّ والاحترام والتقدير، وأن تقوم على أساس الثقة الكاملة المتبادلة فهم مؤمنون به وبرسالته وهو يثق بإيمانهم ويكلهم إليه.

وحيث إنه هو الوحيد من خلق الله الذي أمرنا باتباعه. والاقتداء بهديه وسنته فإن لنا في ذلك مندوحة عن أن نبتدع وأن نتزيد مما ليس من الحق في شيء، فمعاملته وعلاقته بجنده هي النبراس الذي ينتهي إليه كل فضل وخير.

إنّ موقفه من جنده وأصحاب الرجيع وما أصابه من هم عليهم وتجريده حمله للانتقام لهم ملفت للنظر، وكذلك أصحاب بئر معونة فقد قال عليه السلام: هذا عمل أبي براءة قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً(2)، وكذلك موقفه عليه السلام من البجليين الذين عدوا على راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم فذبحوه، فقد لحقهم كرز بن جابر فقطع عليه السلام

---

(1) المدرسة العسكرية الإسلامية، محمد فرج، ص331.

(2) سيرة ابن هشام، ج3، ص195.

أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم.

إن قتل نفس واحدة بغير الحق أو فساد في الأرض كقتل الناس جميعاً وبعكس ذلك إحياؤها إن الدين الإسلامي وهو يضع هذه القيمة العظيمة للنفس الإنسانية لهو أحرص ما يكون على ترابطها ووحدتها، أقول أن النفس لا تزال تغلو ما دام منهج الله هو الذي يحكم الأرض وبهذا الغلو ترخص الأشياء والمواد، وعندما يغيب منهج الله ترخص الدماء ويغلو التراب وأسيري المسلمين في يد قريش سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ضلا طريقهما وهما يبحثان عن بعير لهما فأسرتهما قريش فأبى عليه السلام يطلق أسيري مكة حتى رجع المسلمون إليه.

وفي بدر أخرج للمبارزة حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث وهم أقرب الناس إليه لمنازلة رجال قريش حين نادى مناديهم: "يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا"، فكان الثلاثة عند حسن الظن، ولقد شارك القائد الرسول في المعارك بنفسه ترك العريش يوم بدر ونزل إلى المعركة وفي أحد أصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته وفي الخندق كان يحمل التراب على عاتقه فهو أول المسلمين، وكذلك أول الجنود في الدفاع عن قلعة الإسلام وبيضته وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين كانوا في معاركهم يقابلون آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم الأدنين، فيكونون أحرص ما يكونون على قتلهم تحت راية محمد نبي الإسلام يقول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون" "قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها،

ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتبرصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين"[1].

وهذا الجندي عبدالله بن عبدالله بن أبي يتقدم إلى رسول الله يطلب منه الإذن بقتل أبيه عندما سمع أن الرسول ينوي قتله، ولكنه عليه السلام لم يكن ينوي ذلك ولم يأمر به.

إن هذا القدر العظيم من العلاقة الوثيقة بين القائد وجنده والتي بناها الإسلام لم يسجل لها التاريخ مثيلاً، ذلك لأنّ دين الله يجمع الناس وعبادته ترفعهم وتجعلهم سواسية، بينما حكام الأرض يسترقون الناس ويستعبدونهم ويأخذون منهم أموالهم وأعراضهم وراحتهم وسعادتهم.

وعلى هذه السنة سار أبو بكر والخلفاء من بعده، فخطب أبو بكر يقول: إني وليت عليكم ولست بخير منكم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. وقال في خطبة أخرى: إنما أنا مثلكم ووقف ابن الخطاب يخطب، فقام إليه أعرابي وقال: الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم عمر.

وفي القادسية؛ عاود سعد بن أبي وقاص مرض كان يتردد عليه جعله لا يستطيع أن يركب أو يجلس فهو مكبّ على وجهه في صدره وسادة يعتمد عليها ويشرف على الناس من القصر يرمي بالرقاع فيها أمره ونهيه، وبلغ سعداً ما يتندر به الناس، وأن طائفة تتهمه وتشغب عليه، فحز ذلك في نفسه وأثار غضبه، فقال لمن حوله: احملوني وأشرفوا به على الناس وارتقى

(1) سورة التوبة، آية 23-24.

به من حوله، ورأى الجند ما به من الوجع فعذروه، ولكن ذلك لم يكفه، فقال: "أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالاً لغيركم، والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننت بهم سنة يؤخذ بها من بعدي"[1].

فانتهى القوم عن شغبهم وتذكروا حق الله عليهم من طاعة الأمير وإن كان عبداً حبشياً، وفي كتاب أبي بكر للمرتدين مع أصحاب الألوية يقول: "لا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به جهرة"، وذلك من شدة ألمه وغضبه حين علم أن بعض المسلمين قد تعرضوا للقتل ظلماً وعدواناً من مرتدي العرب وهو بهذا ضنين بهم وشديد الحرص عليهم.

ووصايا أبو بكر إلى أمرائه وكذلك عمر إلى أمرائه أكثر من أن تحصى فهو يأمرهم بارتياد منازلهم وألا يقدموا بهم على هلكة لا يعلمونها ولشدة حرصه عليهم كان يقول: "وددت لو أن بين السواد والجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد، إني أثرت سلامة المسلمين على الأنفال"، وكان هذا بالنسبة إلى العراق الفارسي.

ووقف عمر وحزن لأبي عبيد الثقفي يوم الجسر، وقال: يرحم الله أبا عبيد "وإني فئتكم أيها الناس"، وهذا اقتداء بقول رسول الله للعائدين من مؤتة وقد لقيهم الصبيان يقولون: يا فرار، فقال عليه السلام إنهم ليسوا بفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله.

ولقد وصف رجل من رجال المقوقس جيوش المسلمين، فقال: "رأينا قوماً الموت

---

(1) الفاروق عمر، ص167،ج1.

أحبّ إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحبّ إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد"، فيقول المقوقس والذي يحلف به "لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقدر على قتال هؤلاء أحد".

ورفض ابن الخطاب أن يأكل من الطعام أهدي إليه من بلاد الفتوح، لأن المسلمين كلهم لم يأكلوا منه ورفض أميره أبو عبيدة الثقفي أن يأكل من طعام أهداه إليه دهاقين الفرس، لأنه لا يسع الجنود كلهم فيأكلوا، وقال: لا حاجة لنا فيه بئس المرء أبو عبيدة إن صحب قوماً من بلادهم وأهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوها فاستأثر عليهم بشيء يصيبه، لا والله لا نأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوسطهم[1] وأبو عبيد هذا هو الذي امتنع عن قتل جابان وقد أمنه آسره، لأن ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم.

إن الترابط الوثيق بين الجندي المسلم وقائده ليس رباطاً واهناً يقوم على شيء من الوعظ والإرشاد أو تقوم به الرتب المختلفة الصغيرة إلى الرتب الكبيرة أو يقوم به أناس ضعاف لآخرين أقوياء أو من عائلات معينة من البشر، كلا فكل هذا في الإسلام مرفوض رفضاً قاطعاً، فالناس كلهم سواسية كأسنان المشط وإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

ويوم أصبح هذا الرباط ينبت في رعاية غير رعاية الله وهدي رسوله محمد عليه

---

(1) المدرسة العسكرية الإسلامية، محمد فرج، ص340.

السلام انقلب الأمر رأساً على عقب فأصبحت الإمارة مغنماً دنيوياً يتقاتل عليها طلابها وأصبحت الروابط روابط مصلحة مؤقتة تقوم لوقتها وسرعان ما تزول.

فانكمشت عناية الله عنا، وقلّ النصر وكثر الخسران والانهزام، "وما النصر إلا من عند الله"، وكلما طلبناه من عند غيره أذلنا الله.

الفصل الخامس

صفحات مشرقة وشخصيات نادرة من قيادة الجيش الإسلامي

ليس من السهل في مثل هذه العجالة أن يلمّ الكاتب بالكثير من أخبار القادة الفاتحين في الجيوش الإسلامية، لأن كل قائد منهم يحتاج إلى مؤلف متكامل لاستقصاء تاريخ حياته وقدراته وفنه العسكري وما قامت عليه هذه المبادئ جميعها.

والذي سأذكره هنا ما هو إلا أطياف خفيفة نطيف بها حول بعض القادة لنذكر بعض المواقف لهم، مما يثير في النفس الشوقة والرغبة والحب لهم ولأعمالهم الشريفة.

ولقد اخترت أن أكتب بعض صفحات عن خمس شخصيات نادرة من قادة الجيش الإسلامي وأنا أعلم تمام العلم أن ما أكتبه لا يزيد التاريخ علماً ولا القادة تكريماً، ولكنه جهد المقل.

وهؤلاء القادة هم:

- أبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح القرشي.
- سعد بن أبي وقاص الزهري.
- النعمان بن مقرن المزني.
- رويفع بن ثابت الأنصاري.
- صلاح الدين الأيوبي.

1. أبو عبيدة بن الجراح القرشي

أسلم أبو عبيدة قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم. وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية تخلصاً من التعذيب، ولكنه عاد إلى مكة بعد أن اتصل الخبر الكاذب بأن قريشاً قد أسلمت(1).

شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل أباه الذي كان مشركاً يوم بدر(2)، فنزل فيه قول الله تعالى: "لا تجد قواماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون"(3)، وقال عليه الصلاة والسلام: لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيد بن الجراح(4).

وأرسله عليه الصلاة والسلام مع وفد نجران عندما طلبوا منه أن يبعث معهم رجلاً من أصحابه يرضاه لهم يحكم بينهم في أشياء اختلفوا فيها من أموالهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين، وكان عمر بن الخطاب يريدها لنفسه، فذهب بها أبو عبيدة. استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاث بعوث قائداً

---

(1) قادة فتح الشام ومصر، محمود شيت خطاب..

(2) الإصابة في تمييز الصحابة، ج3،ص253.

(3) سورة المجادلة، آية 22.

(4) الإصابة، ج3، ص152.

وكان على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم من المهاجرين يوم الفتح، وكان رضي الله عنه أثرماً، فقد سقطت ثناياه يوم نزع حديد المغفر من وجنتي الرسول عليه السلام يوم أحد، وعن عائشة أنه كان ثالث ثلاثة كانوا أحب إلى رسول الله من غيرهم.

واستعمله أبو بكر الصديق في فتوح الشام، فاجتمع وقادة المسلمين يوم اليرموك وبعد مشاورات فيما بينهم ولوا قيادتهم في اليوم الأول لخالد بن الوليد، وكان هو على القلب قاد فتح الشام كلها تقريباً.

وأخرج بن سعد بسند حسن أن معاذ بن جبل بلغه أن بعض أهل الشام استعجزا أبا عبيدة أيام حصار دمشق ورجح خالد بن الوليد فغضب معاذ، وقال: أبأبي عبيدة يظن، والله إنه لمن خير من يمشي على الأرض، وقال ابن المبارك في كتاب الزهد حدثنا معمر عن هشام بن عروة عن أبيه: قدم عمر الشام فتلقاه أمراء الأجناد فقال: أين أخي أبو عبيدة؟ فقالوا يأتي الآن، فجاء على ناقة مخطومة بحبل، فسل عليه وساءله حتى أتى منزله فلم ير فيه شيئاً إلا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر: لو اتخذت متاعاً! قال: يا أمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقيل.

كان أحد العشرة السابقين للإسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد كان المسلمون يريدون بيعته بعد وفاة الرسول الكريم، فأبى ذلك وقال: أتأتوني وفيكم ثالث ثلاثة يعني أبا بكر.

لقد كان رضي الله عنه معروفاً بسلامة الدين وقوة اليقين والخلق المتين، فكان رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا حسن الخلق، متبعاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأمر خلفائه من بعده، وكان يتمنى أن يكون كبشاً يذبحه أهله فيأكلون لحمه ويحتسون مرقه.

ولقد تمنى عمر أن أبا عبيدة حي بعد طعنه فقد كان يرى استخلافة من بعده.

ولقد كان قائداً عسكرياً ناجحاً بكل ما تعنيه الكلمة، وجهاده في الشام خير دليل على ذلك، توفي رحمه الله في طاعون عمواس ودفن بمنطقة فحل، وهناك مقام في غور الأردن يقال إنه قبر أبي عبيدة بن الجراح.

2. سعد بن أبي وقاص

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم[1] موتاً، أسلم وسنه سبع عشرة، ولاقى في ذلك معارضة شديدة حتى من أمه، قال سعد: كنت رجلاً براً بأمي. فلما أسلمت قالت: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي. فقلت لها: لا تفعلي يا أماه، فإني لا أدع ديني، فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ولا تشرب، فأصبحت وقد جهدت، فقلت لها: والله لو كان لك ألفا نفس فخرجت نفساً بعد نفس ما تركت هذا الشيء، فلما رأت ذلك مني أكلت وشربت، فنزل قول الله تعالى: "وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس بك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً"[2].

روى الترمذي من حديث جابر قال: أقبل سعد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذا خالي فليرني امرؤ خاله، وقال ابن إسحق في المغازي: كان أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم يستخفون بصلاتهم، فبينما سعد في شعب من شعاب مكة في نفر من الصحابة، إذ ظهر عليه المشركون فنافروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فضرّ سعد رجلاً من المشركين بلحي جمل فشجه، فكان أول دم أريق في الإسلام، وهو صاحب أول سهم رمي في الإسلام رماه سعد في سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في شوال من السنة الأولى من الهجرة.

---

(1) الإصابة، ج2، ص33.

(2) سورة لقمان، آية 15.

كان سعد يعمل في بري السهام وصناعة القسي قبل إسلامه[1].

شاهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أحد كان يرمي بالنبل دون الرسول عليه السلام وهو يناله، ويقول: "ارم فداك أبي وأمي"، قال سعد: جمع لي النبي صلى الله عليه وسلم أبويه يوم أحد، وقال علي بن أبي طالب: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدي أحداً بأبويه إلا سعداً".

استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على السرايا، ولذلك عندما اجتمع الفرس على يزدجرد بعد توليه عرش الأكاسرة وأراد مهاجمة المسلمين، كتب المثنى بذلك إلى عمر، فقال: "والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب"، فأرسل سعداً أميراً على جيوش العراق، وقال إنه رجل شجاع رامٍ، وقد وافقه الصحابة جميعهم على هذا الاختيار، فأوصاه عمر وقال له: يا سعد، سعد بني وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه، فإنه الأمر.

قاد سعد معركة القادسية فعرف العرفاء وأمر على السرايات رجالاً من أهل السابقة وولى الحروب رجالها وجلس لمرضه يشرف على الناس ويصدر أوامره حتى كان النصر للمسلمين، فأمره عمر بالتوجه إلى المدائن عاصمة الأكاسرة فوضع لذلك خطته وعبر البحر

---

(1) قادة فتح العراق والجزيرة، محمود شيت خطاب، ص248.

إلى الجهة الثانية على الخيول، ففاجأ أهل فارس بأمر لم يكن في حسابهم ففروا بأوراحهم تاركين كل شيء، فدخل المسلمون المدائن، وانتهى سعد إلى إيوان كسرى فجعله مصلى للمسلمين، وقرأ فيه: "كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين"(1)، لقد فتح سعد بلاداً شاسعة لم تنكص عنها رايات الإسلام منذ فتحها حتى اليوم، فكان فتحه فتحاً مستديماً وهو فاتح العراق العربي العجمي جميعه ويكفيه أنه فاتح المدائن.

وهو الذي اختط الكوفة لتكون منزلاً للمسلمين بعد أن استوخموا المدائن وأثر جوها على صحتهم وتغيرت ألوانهم وبنى له بها داراً من نقض أجر قصر كان للأكاسة، فادعى عليه أناس أنه قال: سكت عني الصوت، فأرسل عمر محمد بن مسلمة وأمره أن "اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بدئك"، ففعل وأقسم سعد أنه لم يقل ذلك، وقد عزله عمر عن إمارته سنة عشرين للهجرة ولم يعزله عن عجز أو خيانة، وعندما طعن عمر كان أحد الستة أصحاب الشورى لاستخلاف أحدهم فقال عمر: إن إصابة الإمرة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر. فإني لم أعزله في عجز ولا خيانة.

ثمّ استعمله عثمان على الكوفة مرة ثانية، وعاد فعزله، وبقي مستشاراً له في المدينة حتى قتل عثمان، فتألم من ذلك ألماً شديداً، واسترجع وأكب عليه يبكي، وقال سعد: ما بكيت من الدهر إلا ثلاثة أيام: يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ويوم قتل عثمان واليوم

---

(1) سورة الدخان، آية 25.

أبكي على الحق، فعلى الحق السلام.

اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان، وامتنع عن الذين أرادوه للخلافة ولزم بيته.

سأل ابن الخطاب عمرو بن معد يكرب عن سعد، فقال: "تركته في ولايته أكرم الناس مقدرة وأقلهم قسوة، هو لهم كالأم البرة يجمع لهم كما تجمع الذرة أشدّ الناس عند البأس وأحب قريش إلى الناس".

لقد كان سعد قائداً عسكرياً مغواراً ما انكسر له جمع ولا ارتد له زحف، وكان ميمون النقيبة، توفي رحمه الله بالعقيق، ونقل إلى المدينة فصلى عليه الناس وأمهات المؤمنين ودفن بالبقيع.

3. النعمان بن مقرن

هو أحد عشرة إخوة كلهم صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس ذلك لأحد من العرب غيرهم نزلت فيهم الآية الكريمة "ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله"[1].

أسلم في السنة الخامسة، وشهد مع الرسول بقية المشاهد كلها، وكان مع النعمان لواء مزينة في غزوة الفتح، وقد كان رئيسها وقائدها فأسلمت وثبتت على الإسلام بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

---

(1) الإصابة، ج3، ص563.

لقد كان رضي الله عنه على ميمنة أبي بكر الصديق يوم خرج لقتال الغازين للمدينة في أول خلافته، وكذلك كان النعمان على ميمنته أيضاً في غزوته الثانية[1].

أرسله سعد على رأس وفد إلى كسرى (يزدجرد)، وأمره أن يدعوه إلى الإسلام، وإن أبى فالجزية أولاً فالمناجزة، ولكن كسرى أبى فكان جزاؤه أن اقتحم عليه جند المسلمين، ومنهم النعمان بن مقرن، وعجل فلينزلوا بإزاء الهرمزان ويتحققوا أمره "فتحرك النعمان ففتح مدينة" "رام هرمز" وحاصر تستر ففتحها.

قدم المدينة بفتح القادسية[2]، وورد على عمر اجتماع الفرس لحرب المسلمين فشاور الصحابة فيمن يبعث للفرس، ثم قرّ رأيه، وقال: "لأستعملن عليهم رجلاً يكون لها"، فخرج إلى المسجد فوجد النعمان بن مقرن يصلي فيه فسرحه وأمره وكتب إلى أهل الكوفة بذلك، فلما فتح الفتوح أتى نهاوند فقال النعمان: "يا معشر المسلمين شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر اللهم ارزق النعمان شهادة بنصر المسلمين، وافتح عليهم، فأمن المسلمون، وقال لهم: إني أهز اللواء ثلاث مرات فإذا هززت الثالثة فاحملوا ولا يلوي أحد على أحد، وإن قتل النعمان فلا يلوي عليه أحد، فحمل وحمل معه المسلمون فكان أول جريح، ولما جاء نعيه عمر بن الخطاب فنعاه للناس على المنبر ووضع يده على رأسه يبكي".

---

(1) قادة فتح بلاد فارس. ص100،خطاب.

(2) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج3،ص546.

كان النعمان جندياً بمعنى الكلمة يفضل دائماً أن يكون غازياً في الصفوف الأولى، وكان فارساً مقداماً لا يعرف التردد مكيثاً غير متسرع، وكان يقدر المواقف العسكرية بكل دقة، وكان يحسن الحصول والتعرف على أخبار عدوه فلا يقدم إلا على تعبية، قال أخوه معقل: أتيت النعمان وبه رمق فغسلت وجهه من إداوة ماء كانت معنا، فقال: من أنت؟ قلت معقل: قال: ما صنع المسلمون؟ قلت: أبشر بفتح الله ونصره، قال: الحمد لله اكتبوا إلى عمر[1].

هذا هو النعمان لم يفكر في نفسه ساعة احتضاره، بل فكر بالمصلحة العامة للمسلمين، فلما اطمأن أنها بخير أسلم روحه قرير البال مرتاح الضمير. قال عبدالله بن مسعود: إن للإيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً وإن بيت بني مقرن من بيوت الإيمان.

4. رويفع بن ثابت الأنصاري

كان رويفع بن ثابت سكن بن عدي بن حارثة الأنصاري من بني مالك بن النجار صحابياً. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعرف متى أسلم ولم يذكر له الجهاد تحت راية النبي عليه السلام.

قاتل رويفع تحت لواء عمرو بن العاص في الشام، ثم سار معه إلى فتح مصر وليبيا والنوبة[2]، كما شهد معارك الفتح التي خاضها عبدالله بن سعد بن أبي سرح لفتح إفريقية

---

(1) قادة فتح بلاد فارس، ص107.

(2) قادة فتح المغرب العربي، ج2، ص153.

ومعاوية بن خديج السكوني لفتح المغرب وفي سنة خمس وأربعين من الهجرة غزا معاوية بن خديج السكوني المغرب، فاستعاد فتح طرابلس الغرب، وترك فيها رويفع بن ثابت والياً عليها، فغزا منها إفريقية (تونس) ودخلها وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر ثم انصرف إلى طرابلس.

كان رويفع صحابياً جليلاً، لا يعلم أنه شارك في الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية بقلبه أو بلسانه أو بسيفه، بل بقي مستقراً في مصر حتى انكشفت الغمة وعادت الوحدة الشاملة للمسلمين.

سكن مصر واختطّ بها داراً، وتولى طرابلس كما ذكرت وتولى برقة لمسلمة بن مخلد حتى مات بها وهو أمير عليها، وقبره لا يزال موجوداً حتى اليوم في مدينة البيضاء عاصمة برقة، وهو آخر من توفي من الصحابة هناك.

وروى عن الرسول الكريم ثمانية احاديث وكان فقيهاً من أصحاب الفتيا، وكان في إمارته إدارياً حازماً قوياً أميناً تقياً نقياً، ولا يؤثر عنه إثراء من الغنائم أو المناصب، بل عاش فقيراً لم يترك شيئاً.

بذل رويفع قصارى جهده مجاهداً في سبيل الله في ميادين الشام ومصر والغرب العربي، وقد شهد معارك كثيرة برية وبحرية، فقد سار بجيشه بحراً إلى جزيرة جربة وفتحها وقضى على فساد أهلها.

لقد قضى حياته كلها بعيداً عن المدينة مجاهداً في الله، واضطجع هناك في البيضاء، يذكر له المسلمون جهاده وصبره في سبيل الله.

5. صلاح الدين الأيوبي

لا يذكر صلاح الدين إلا وتذكر معه معركة حطين فيه مذكورة في التاريخ ومذكور قائدها، لأنها كانت معركة فاصلة في التاريخ الإسلامي وضعت حداً لوجود الفرنجة في بلاد المسلمين في أعقاب الحروب الصليبية وأعادت القدس إلى الساحة الإسلامية الطاهرة.

في سنة 573 هجرية اشتبك صلاح الدين بالصليبيين على مقربة من مدينة الرملة الفلسطينية فهزم صلاح الدين وقتل وأسر كثير من المسلمين ورجع صلاح الدين إلى القاهرة. ثم غادرها إلى دمشق، حيث أمضى هناك ثلاثة أعوام وهو مكب على الإعداد للحرب مادياً ومعنوياً، بحيث لم تذهب منه لحظة واحدة من غير فائدة، فأخرج السرايا للتدريب وللتأديب ولاستنزاف قدرات العدو وانتصر عليه في طبرية وصور وبيروت وهزم الصليبيين في حمص وعقد معاهدة مع ملك القدس الصليبي[1].

وعاد صلاح الدين للقاهرة عام 578هـ، فأمضى فيها عاماً ونصف يرسم الخطط ويعد العدة ويدرب رجاله ويكمل نواقصهم على هدى الدروس المستقاة من معاركه السابقة.

ثمّ خرج من القاهرة عام 578هـ عاقداً العزم على خوض معركة حاسمة يستعيد بها القدس الشريف وأمضى أربعة أعوام أخرى وهو يحشد كافة الطاقات لذلك، وفي عام 583هـ غادر دمشق إلى بصرى لحماية الحجيج، وقد سمع أن غدراً يبيت لهم فنزل الكرك والشوبك وعاث في أنحائهما ثم توافدت عليه جنود مصر بقيادة أخيه العادل، فخرج بحشده هذا إلى

(1) الإسلام والنصر، ص120، محمود شيت خطاب.

عكا فأخربها ثم سار جنوباً إلى طبرية فاستولى عليها، وفي هذه الأثناء كان الفرنجة قد جمعوا جموعهم لمحاربته وهناك في سهل قريب من طبرية مقفر لا ماء فيه وخرب الفرنج ما فيه من ماء اجتمع الفرنجة لمجابهة صلاح الدين الذي سار في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة 583هـ نحو معسكرهم.

ويفصل ابن الأثير[1] في تاريخه تفاصيل هذه المعركة، يقول عن الملك الأفضل ولد صلاح الدين، قال: كنت إلى جانب والدي في ذلك المصافّ وهو أول مصافّ شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على تل حطين في جماعة من الفرسان الأشداء حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي، قال فنظرت إليه وقد علته كآبة واربدّ لونه وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان، قال: فعاد المسلمون على الفرنج فصعدوا عليهم التلّ فصحت أنا قائلاً: هزمناهم. فالتفتّ إلى والدي وقال: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة – وهي خيمة ملكهم– قال: فهو يقول لي وإذا الخيمة قد سقطت ونزل السلطان وسجد شكراً لله، وبكى من الفرح.

وقد أسر المسلمون جميع من كان على التلّ وفيهم ملك الفرنجة وأرناط صاحب الكرك ولم يكن في الفرنجة أشد منه عداوة للمسلمين فقتله صلاح الدين.

يقول ابن الأثير: وكان من يرى القتلى من الفرنج لا يظن أنهم أسروا واحداً ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً وما أصيب الإفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة

---

(1) الكامل في التاريخ، ج9، ص178.

إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الموقعة.

وحيث إن هدف صلاح الدين استعادة القدس لذلك بدأ بمحاصرتها وعزلها من البحر، وأشرف عليها في منتصف شهر رجب سنة 583هـ، وكانت تموج بجموع الفرنج فحاصرها وشدد الحصار عليها ثم دخلها المسلمون صلحاً يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة 583هـ ورفعوا أعلامهم عليها.

إن من أهم أسباب النصر الذي هو من عند الله وجود صلاح الدين على قيادة الجيش، لأنه وهب حياته للجهاد في سبيل الله، وكانت العقيدة الإسلامية تملأ نفسه ومشاعره، ولا يؤمن بغيرها وكان وافر العلم جمّ التواضع متقشفاً في ملبسه وطعامه ينفق كل ما تصل إليه يده في أغراض الجهاد ومصالح المسلمين، فلما توفي لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري وأربعين درهماً ناصرية على رواية ابن الأثير[1].

وكان صلاح الدين يحمل صناديق مقفلة في أيام جهاده يحرص عليها أعظم الحرص وظنّ الذين من حوله أنها جواهر وأموال وبعد وفاته فتحت فوجدوا أنها تحوي وصيته وكفنه الذي اشتراه من كده وكمية من التراب ووجدوا في الوصية: أكفن بهذا الكفن الذي تعطر بماء زمزم وزار الكعبة المشرفة وقبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا التراب هو من مخلفات أيام الجهاد تصنع منه طابوق يوضع تحت رأسي في قبري. وقد دفنه ابنه الأفضل وهو يومئذ سلطان الشام، ويقال إنه دفن معه سيفه الذي كان

---

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج9، ص178.

يحضر به الجهاد، وذلك عن أمر القاضي الفاضل[1] وتفاءلوا بأنه يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه حتى يدخل الجنة إن شاء الله تعالى.

لقد كان رحمه الله كريماً[2] حليماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك، ويقال إنه أخرج في مدة إقامته على عكا قبالة الإفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل، وأما العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر، وأما تواضعه فإنه كان ظاهراً لم يتكبر على أحد من أصحابه وكان يعيب المتكبرين بذلك، فكان يحضر عنده القراء والصوفية ويعمل له أسماع فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقيم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير، ولم يلبس شيئاً مما ينكره الشرع وكان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه، وبالجملة فكان نادراً في عسكره كثير المحاسن والأفعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار وفتوحه تدل على ذلك[3].

وعندما توفي كأن أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وودّ كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، ولا غرو في ذلك فقد كان رحمه الله ردءاً للإسلام وحرزاً وكهفاً من كيد الكفرة اللئام.

---

(1) الكامل في التاريخ ابن الأثير هامش ص266،ج9.

(2) الكامل ص225،ج9.

(3) الكامل ص226،ج9.

الخاتمة

الحمد لله والمنة له وحده على ما أمكنني من نقل ما نقلت وكتابة ما كتبت ولست أرى لي فضلاً في شيء من ذلك سوى فضل الناسخ والناقل، فإن العلماء الأقدمين قد استوعبوا كل العلوم وكتبوا فيها فأغنوا، وما نحن من بعدهم إلا أتباع وأذيال لما دبجوا وكتبوا.

وكان من حسن الحظّ أنني استطعت الحصول على نسخة من كتاب مختصر سياسة الحروب للهرثمي صاحب المأمون، وكنت أتوق لقراءته، ورغم أنني قد نقلت منه بعض الكلام في صفة القائد وتدينه، إلا أنني نقلت ذلك عن كتاب آخر يذكره ورأيت بعد حصولي عليه أن ألخص شيئاً مما ورد فيه مما له تعلق بموضوعنا، وذلك لأنه كتاب مستوعب في بابه وجيد في بحثه يبدو أن مؤلفه قد ألف الحرب وشؤونها طويلاً فكتب ما كتب عن اطلاع جيد وتفسير واضح، ولو لم يكن كذلك لما خلا من عيب ونقص.

ويقول محققه[1]: وينبغي أن يلاحظ القارئ أن هذا الكتاب مختصر من كتاب كبير يسمى "الحيل والحروب" ألفه الهرثمي الشعراني للخليفة المأمون العباسي، وقد تحدث ابن النديم في الفهرست عن هذا الكتاب الكبير تحت عنوان (الكتب المؤلفة في الفروسية وحمل السلاح وآلات الحرب والتدبير والعمل بذلك لجميع الأمم)، فوصفه وصفاً يدل على ضخامته، فقد قال عنه ما نصه: (كتاب الحيل للهرثمي الشعراني) ألفه للمأمون في الحروب

---

(1) هو عبدالرؤوف عون صاحب كتاب الفن الحربي في صدر الإسلام.

جود في تأليفه، وجعله في مقالتين، المقالة الأولى ثلاثة أجزاء، والمقالة الثانية ستة وثلاثون فصلاً: ألف وخمسة وعشرون باباً، الجزء الأول عشرون باباً يحتوي على مائتين وأربع وستين مثلاً والجزء الثاني سبعة أبواب يحتوي على اثنتين وأربعين مثلاً والجزء الثالث أربعة وعشرون باباً يحتوي على مائة وأربعة وأربعين مسألة.

وقد استبان لي بالبحث والموازنة بين أبواب هذا المختصر وأبواب الكتاب المذكور في الفهرست أن كتاب الحيل لا وجود له الآن، لأن الشخص الذي اختصر هذا الكتاب هو شخص غير الهرثمي.

والمهم في الأمر أن هذا المختصر كما يقول مختصره: اعلم أن أمور الحرب وحوادثها أكثر وألطف من أن تحيط بها الكتب أو يبلغها الوهم، وإنما قصدنا في كتابنا قصد الأذكار والتنبيه، وقد رسمنا من معاني ما صار إلينا من كتب الأوائل فيها وأحاديثهم عنها إلى ما حضرنا في ذلك بعض ما رجونا أن يكون فيه كفاية لما قصدنا له، وقد صيرنا هذا الكتاب أربعين باباً مجردة.

وسأذكر بعض الأبواب هنا راجياً أن تكون لها فائدة:

ففي الباب الأول: وعنوانه "في أن نظام الأمر تقوى الله والعمل بطاعته" يقول: فينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده، وكثرة ذكره والاستعانة به والتوكل عليه والفزع إليه، ومسألته التأييد والنصر والسلامة والظفر وأن

يعلم[1] أن ذلك إنما هو من الله جل ثناؤه لمن شاء من خلقه كيف شاء، لا بالأرب منه والحيلة والاقتدار والكثرة، وأن يبرأ إليه جل وعز من الحول والقوة في كل أمر ونهي ووقت وحال، وألا يدع الاستخارة لله في كلّ ما يعمل به، وأن يترك البغي والحقد وينوي العفو، ويترك الانتقام عند الظفر إلا بما كان فيه لله رضى، وأن يستعمل العدل وحسن السيرة والتفقد للصغير والكبير مما فيه مصلحة رعيته، وأن يعتمد في كل ما يعمل به في حربه طلب ما عند الله عزّ وجل ليجتمع له به خير الدنيا والآخرة.

فعسى قائل الآن أن يقول: فقد نرى البغاة الظلمة بأهل العدل والإنصاف يظفرون، ونرى الكفرة بالله على أوليائه ينصرون، فليعلم أن ذلك من تقدير العزيز الحكيم في خلقه، لما هو أعلم به من مكنون غيبه، على أنه قد يكون ذلك للكافر الظالم إملاءً واستدراجاً وللمظلوم الموالي نظراً وابتلاءً، وأن العاقبة للمتقين فليتق ربه وليصدق يقينه، ويتجنب الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة مع ما ينال صاحبه من عاجل عقوبات الدنيا، ولا يعمل بشيء من كتابنا هذا أو بغيره إلا بما كان لله فيه رضى وبالله العصمة ومنه النصر.

والباب الثاني منه في حسن سياسة الرئيس أصحابه يقول: قالوا: الغرض الذي يجري إليه السائس الكامل في سياسة أصحابه ثلاث خصال: المحبة، والهيبة منهم له، والمحبة من بعضهم لبعض، وقد يحتاج في اجتماع هذه إلى آلات كثيرة وأعمال لطيفة.

تفقد من أمور أصحابك جميع ما يعود نفعه عليهم، وزد محسنهم بالتكرمة وقدم قبل

(1) انظر ص55 من هذه الرسالة.

الإساءة إلى مسيئهم بالمعذرة، واستعتب مقصرهم بحسن الأدب استعتاب مستصلح لهم غير مغتنم للزلة، ولا معترضاً للعثرة، ولا مستريحاً إلى كشف غامض العورة، فإنه لا يصلح الرعية إلا بعض تغابي الرعية عن فلتات زللها.

اجعل عامة أصحابك في لين الكلمة بمنزلة الخاصة، من غير أن تنقص أحداً من ذوي البلاء حقه وثوابه، ولا تسوّ به من لا بلاء له.

إنه لا سلطان لك على قلوب أصحابك، فاستعد موادتهم بلين الجناح وطيب الكلام وإعطاء الحق وحين النظر تصفو لك قلوبهم.

فوّض إلى قوادك وولاة جندك أمور أصحابهم ورضهم لهم من غير أنْ تأذن لأحد في بسط يده عليهم من أخذ مال أو عقوبة إلا عقوبة أدب في صغائر الأمور، فأمّا غير ذلك فلا يلينه غيرك أو صاحب أحداثك بأمرك.

أمّا الباب الثالث: فهو في ذكر فضائل الرئيس وأصحابه وقد سبق ذكره(1).

وزاد عليه قائلاً: من فضائل الرئيس في الحرب المعرفة عند اللقاء بهذه الخمسة والعشرين حرفاً وحسن التدبير لأصحابه عندها، وهي هذه: التحضيض، والتشجيع والإمعان، والتوقف، والتزاحف، والازدلاف، والمطاولة، والمشاولة، والمبارزة والمساورة، والكرة، والانحياف، والعطف بعد الحملة، والإنابة بعد الجولة، والرجعة بعد التولي، والسكون بعد الاستطارة، والطلب بعد الهزيمة، والركوب للمنهزمين، والإلحاح عليهم،

(1) انظر ص55 من هذه الرسالة.

والكف عنهم، والانصراف بعد بلوغ الحاجة منهم إلى موضع المعركة والتقدم للقتال، والتأخر عنه والأمن من الخوف، والهزيمة من الفلج.

وفي الباب الرابع في ذكر الحذر يقول: قالوا: أول العمل في الحرب ورأس التدبير فيها ألا يظهر عدوك على عوراتك، ولا تستتر عنك عوراته، ولن تحكم ذلك في نفسك إلا مع شدة الحذر وكتمان السرّ، ولن تعرفه من عدوك إلا مع التيقظ والتلطف وإذكاء العيون والجواسيس، واجعل الحذر رأس مكيدتك فإنه قليل ما تكون عورة مع حذر أو تضييع مع سوء ظن.

استعدّ لعدوك بأكثر من قدره، فإنك إن ألفيته صغيراً وقد أعددت له كبيراً لم يضرك ذلك بل نفعك، لا تتولين أمر عدوك على الهوينى بعمل على ترقيق المرققين وتصغير المصغرين، فربما كان في ذلك بعض ما يرجع بالمكروه عليك.

وفي الباب الخامس في ذكر الأناة والرفق يقول: اطلب الأناة ما استقامت لك، واقبل العافية ما وهبت لك، ولا تعجل إلى اللقاء ما وجدت لك إلى الحيلة سبيلاً.

لتكن الرغبة منك في طاعة العدو آثر من الغنيمة عندك، ومن كل عرض من الدنيا يعرض لك اطلب الظفر بالطاعة من عدوك ما استطعت تصب بذلك سلامة أصحابك ورعيتك. اقبل الطاعة ممن يعرضها واكفف عن القتل بعد الوثيقة ما استطعت، فإنّ الرغبة عن الدماء هي الغلبة المذكورة.

وفي الباب السادس في الاستشارة وترك الاستبداد بالرأي: قالوا شاور فيما تحتاج إلى المشاورة فيه من مصون أمرك ذا الرأي والمعرفة والثقة والنصيحة من خاصتك وبطانتك.

وإذا احتجت إلى المشاورة فيما يكره إذاعته لأحد، فاذكره بالنظائر والأشباه وأجره في خوض الأحاديث، قد يستغلق الرأي في بعض الأمور على الأكابر من ذوي الرأي ويوجد عند الأمة الأعجمية والصبي الصغير ولا تدع البحث والتلطف عند ذلك.

وفي الباب السابع: في حفظ السر وصيانته يقول: اكفف لسانك عن فلتة كل منطق ينكشف بها ما تضمره من أمرك أو تخفيه من سرك واعلم أنه قد يستدل بلحن المنطق على مصون الستر ومكنون الضمير لا تستهينن في إظهار سرك بصغير لصغره ولا بأعجمي لعجمته، فرب سر مصون قد أذاعوه واطلعوا عليه.

وفي الباب الثامن في ذكر النصحاء والمتنصحين قالوا: اقبل النصيحة من حيث أتتك وأحسن التهمة من حيث رابتك، فإنه لا يكون ناصح بعيداً ولا متهم قريباً. اسمع من نصحائك من غير أن تري منهم أحداً أنك اخذت بقوله أو رددته عليه.

وفي الباب التاسع: في العيون والجواسيس يقول: احكم أمر جواسيسك فإنه رأس أمر الحرب وتدبير مكايدة العدو، لتكن عيونك وجواسيسك ممن تثق بصدقه ونصيحته، فإن الظنين لا ينفعك خبره وإن كان صادقاً، والمتهم عين عليك لا لك.

وقد ذكروا عن بعض أهل التجربة في الحرب أنه كان يستدعي صدق الجواسيس بأن يعطي من أتاه منهم بما يكره أكثر ممن يأتيه بما يحبب.

وفي الباب العاشر: في الأمر بتعجيل الأهبة والتعبئة يقول: كان أهل الحزم والتجربة يرون لصاحب الحرب أن يكون نزوله ومسيره بالتعبئة في الأمن كما يرونه في الخوف إلا أن يدع ذلك عن ضرورة ويرون ألا يخلو مما تيسر من التعبئة في الأمن على كل حال.

وفي الثالث عشر في التحرز عند الترحل وفي المسير وفيه يقول: إذا أردت الرحيل من منزل إلى منزل فقدم بعض طلائعك ونوافضك وصاحب مقدمتك ومر بعض من توجه من الطلائع أن ينصرف إليك من المنزل يتلقاك بنزول صاحب مقدمتك، ولا تتمم إلى المنزل حتى يتلقاك بذلك: واجعل رجلاً من أهل الصرامة في قوة من أصحابك أمام عسكرك دون طلائعك مع الفعلة لإصلاح الطرق وقطع الشجر وإقامة الجسور والمعابر وحفر الآبار وتنقيتها وما أشبه ذلك.

وفي الباب الرابع عشر: في التعبئة عند وقوع الخوف في المسير، قالوا: إذا كان الخوف في المسير أمام العسكر فليسر نصف الميسرة أمام الصفوف ونصف الميمنة بالأثر، ثم القلب بالأثر ثم نصف الميسرة بالأثر، ثم نصف الميمنة بالأثر.

وفي الخامس عشر في التحرز عند النزول والمقام، قالوا: لا تنزلن من عدوك منزلاً أبداً حتى تعرفه وارتده ذا ماء ومحتطب وكلأ ومرتفق، بحيث إن أردت أن تتقدم منه إلى عدوك قدرت على ذلك وإن أردت التأخر عنه أمكنك ذلك، وتحرَّ أن تسند ظهور أصحابك إلى الجبال والتلول والأنهار وما أشبهها من كل موضع تأمن من الكمين والبيات.

ولا تغفل عن ضرب الخنادق في موضع الحاجة إليها، وبثِّ الطلائع والنوافض وأقم السرايا بالنهار.

وفي السادس عشر في اختبار موضع المصافّ للقاء الزحف قالوا: احرص على أن تسند ظهور أصحابك في مصافّ اللقاء إلى الموضع الذي تأمن أخذ العدو منه وخروج الكمين عليه. احرص أن يكون موضع القلب على جبل أو شرف، وتوخ أن تكون الريح والشمس

من وراء ظهرك.

وفي الباب الرابع والعشرين: في العمل عند التقاء الزحفين ما نصه: قالوا إن لم يكن من اللقاء بدّ فأخره ما استطعت إلى آخر النهار، إلا أن ترى فرصة قبل ذلك فتنتهزها، واعلم إنك إنما ترى أمرك وأمر أصحابك ما لم تلتف الخيل بالخيل، ليكن أول من يلقى أهل التجارب والمراس، فإنهم يلقون بجد وصبر ومعرفة، وهم قبل اللقاء أشد هيبة وأبعد من التسرع والخفة ممن لا تجربة له.

وفي الباب الحادي والثلاثين في معرفة الرئيس مقادير أصحابه في الحرب يقول: قالوا: كان أهل المعرفة بالحرب يحبون أن يعرف الرئيس من استطاع معرفته من أصحابه وجنده رجلاً رجلاً بخاصته في الشجاعة والجبن مع سائر أحواله ليضع كل رجل منهم موضعه، وقد ذكروا عن بعض الرؤساء أنه كان يعرف أصحابه وهم أربعة آلاف رجل كل منهم باسمه ونسبه وبلده وهيئته حتى يعرف سيفه ومنطقته ودابته ورفيقه مع مقدار عمله في الحرب.

وفي الباب الثاني والثلاثين فيما يحتاج الرئيس إلى معرفته من مذاهب أصحابه قالوا: أن صاحب الحرب قد يحتاج فيما يعاني منها إلى أكثر أصناف الناس، وهو إلى بعضهم أحوج منه إلى بعض، فينبغي له أن يعرف ثقاته وخاصته وأعوانه بخواصهم وحالاتهم ليستعين بكل رجل منهم فيما يصلح له ويضعه بالموضع الذي يستحقه.

وفي الباب السادس والثلاثين: في أمور شتى في الحرب يقول: قالوا: إن سبقك عدوك إلى الماء واحتجت إلى قتالهم عليه، فاعرف الساعة التي يكونون فيها قد سقوا دوابهم وأخذوا حاجاتهم منه فواقعهم فيها ودافعهم عنه، وإن سبقت عدوك إلى الماء فلا تحوجهم إلى

قتالك عليه ما وجدت إلى الحيلة سبيلاً.

مرهم في التعبئة بالتراصف وانضمام بعضهم إلى بعض وجنبهم المبارزة فإنها من فعل أهل الذعارة والمخارجة، وليعودوا أنفسهم حمل السلاح وليمهروا في التيامن والتياسر والتقدم والتأخر.

وفي الباب التاسع والثلاثون في التنبيه على اشتباه الخطأ والصواب وخلافها يقول: ليس على صاحب الحرب إلا الاجتهاد في اجتناب الخطأ الذي يقع منه الذم كيف كانت عاقبته والتعمد للصواب الذي يقع منه الحمد كيف كانت عاقبته وأن يلجأ في ذلك كله وفي جميع أموره إلى الله والتوكل عليه ومسألته التوفيق والتسديد والنصر والتأييد بمنه وقدرته.

وفي الباب الأربعين: في الاعتذار من التقصير في بلوغ موافقة الجميع يقول: وقال آخرون كل من يقصد الحرب يتتبعها على ما ينبغي أن يعمل به في وقت الحاجة إليها، فالضرورة والبأس فيه سواء، إلا بقدر تفاضل العقول، وهذا خلاف الوجود.

وقال آخرون: قد نرى كثيراً ممن يندب للحرب لا تجربة له ولا معرفة بما يبلغ حاجته منها، وكثير من القادة المدعين معرفتها لا ينجحون بطلب المعرفة وليس لهم مع هذا فضل، إنما هو البحث والاتفاق، ولعمري إن ذلك ليكون وأكثر، بل يكون مع الرئيس أعوان الحرب وأهلها، وإن لم يكن هو من أهلها، إما بحسن الاختيار منه لهم والتدبير، أو بالاختيار من غيره له أو ببعض الأسباب في كونهم معه على أن النصر والتأييد كله من الله تعالى.

هذا إلى الكثير من الأبواب القيمة التي لم أذكرها، كذكر تسمية فصول التعبئة والجيوش وأشكال الصفوف والتعبئة في العدد القليل في الحرب، وتسمية الأحيان الخمسة،

وفيمن يوضع من الفرسان في كل حين، وفي وضع الخيل مواضعها، وفي الحركة عند ترائي العدو، وعند التقاء الزحفين، وعند استعلاء العدو في الزحف، وعند انهزامه، وفي ذكر الطلائع والكمائن والبيات وتدبير كل ذلك، وفي التأهب لخوف البيات والدفع له، وفي الذنوب والجرائم التي يستوجب بها الأدب والعقوبة، وفي ممارسة الحصون والمدافعة عنها، واختلاف مذاهب الناس وشيمهم في الحرب.

وقد ذكر ابن المقفع في الأدب الكبير[1]: في مطلب فيمن ينبغي للوالي أن ينال رضاه، قال: لتكن حاجتك في الولاية، إلى ثلاث خصال: رضى ربك ورضى سلطان إن كان فوقك "ورضى صالح من تلي عليه، ولا عليك أن تلهو عن المال والذكر، فسيأتيك منهما ما يحسن ويطيب ويكتفى به"، واجعل الخصال الثلاث منك بمكان ما لا بدّ لك منه، واجعل المال والذكر بمكان ما أنت واجد منه بداً، وقبل ذلك قال إن صاحب الإمارة لا ينبغي له أن يعنى إلا بأعمالها وإياك – إن كنت والياً– أن يكون من شأنك حبّ المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك، فتكون ثلمة من الثلم يقتحمون منها عليك وباب يفتتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منك لها.

وأخيراً وليس آخراً فإنني أرجو أن ينال عملي هذا قبولاً.

والحمد لله رب العالمين

---

(1) الأدب الكبير لابن المقفع، ص10.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكاتب العربي 1967 مصورة.
3. فتح القدير، الجمع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
4. تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي، دار إحياء الكتب العربية1957.
5. في ظلال القرآن: سيد قطب.
6. صحيح الإمام البخاري.
7. صحيح الإمام مسلم: مطبعة محمد علي صبيح وأولاده.
8. نيل الأوطار- شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار: محمد بن علي الشوكاني –مطبعة الحلبي 1952 .
9. سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام: محمد بن اسماعيل الصنعاني، مطبعة مصطفى الحلبي 1960م.
10. كتاب الجهاد: لعبد الله بن المبارك المروزي تحقيق نزيه حماد، العراق.

11. موطأ الإمام مالك: دار إحياء التراث العربي.

12. السيرة النبوية لابن هشام: دار إحياء التراث العربي1971 تحقيق مصطفى السقا ورفقاه.

13. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي، مطبوعات شقرون.

14. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس.

15. إنسان العيون في سيرة الأمين العام المعروفة بالسيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي، المكتبة الإسلامية، بيروت.

16. السيرة النبوية والآثار المحمدية: أحمد بن زيني دحلان.

17. نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية: عبد الحي الكتاني دار إحياء التراث العربي، بيروت.

18. زاد المعاد في هدي خير العباد: لا قيم الجوزية.

19. كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام.

20. تاريخ الأمم والملوك محمد بن جرير الطبري.

21. الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزيري.

22. الإمامة والسياسة: لابن قتيبة الدنيوري. المعروف بتاريخ الخلفاء تحقيق طه محمد الزيني.

23. مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي.

24. تاريخ الخلفاء: للسيوطي.

25. المختصر في أخبار البشر تاريخ أبي الفداء، عماد الدين اسماعيل أبي الفداء، دار المعرفة، بيروت.

26. مقدمة تاريخ ابن خلدون: لعبد الرحمن بن خلدون.

27. الفخري في الآداب السلطانية: لان طباطب، دار صادر.

28. الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني.

29. الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر.

30. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية.

31. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية الحراني.

32. الأحكام السلطانية والولايات الدينية للإمام الماوردي.

33. حجة الله البالغة للدهلوي.

34. العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي.

35. حياة محمد: محمد حسين هيكل.

36. عبقرية محمد: عباس محمود العقاد.

37. محمد المثل الكامل: محمد أحمد جاد المولى.

38. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين: محمد الخضري.

39. الرسول القائد: محمود شيت خطاب.

40. السلام في الاسلام: الشهيد حسن البنا.

41. النظم الإسلامية: الدكتور حسن ابراهيم وشقيقه علي.

42. النظم الإسلامية: الدكتور صبحي الصالح.

43. فجر الإسلام: أحمد أمين.

44. الصديق أبو بكر: محمد حسين هيكل.

45. الفاروق القائد: محمد حسين هيكل.

46. عبقرية عمر: عباس سحموج العقاد.

47. القضايا الكبرى في الإسلام: عبد المتعال الصعيدي.

48. الفن الحربي في صدر الإسلام: عبد الرؤوف عون.

49. نظام الحكم في الإسلام: محمد يوسف موسى.

50. النظريات السياسة الإسلامية: محمد ضياء الدين الريس.

51. أيام العرب في الجاهية: محمد أحمد جاد المولى ورفقاه.

52. مدخل إلى التاريخ العسكري: تأليف إيريك موريز وترجمة الأيوبي وديري.

53. المدخل إلى العقيدة الإستراتيجية العسكرية الإسلامية اللواء محمد جمال الدين محفوظ.

54. المدرسة العسكرية الإسلامية: محمد فرج.

55. شعر الحرب في أدب الصرب: الدكتور زكي المحاسني.

56. الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية: الدكتور اسحق عبيد.

57. الإسلام والنصر: اللواء محمود شيت خطاب.

58. قادة فتح الشام ومصر: اللواء محمود شيت خطاب.

59. قادة فتح بلاد فارس: اللواء محمود شيت خطاب.

60. قادة فتح العراق والجزيرة: اللواء محمود شيت خطاب.

61. قادة فتح المغرب العربي: اللواء محمود شيت خطاب.

62. مختصر سياسة الحروب: للهرثمي تحقيق عبد الرؤوف عون.

63. الأدب الكبير: لابن المقفع.

64. الأحكام السلطانية: للقاضي أبي يعلى الحنبلي، مطبعة الحلبي سنة 1966م.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
كلمة شكر	7
مقدمة والأسباب الموجبة والمخطط	9
مقدمة تاريخية عن إمارة الجيش	14
الباب الأول: إمارة الجيش عبر التاريخ	29
الفصل الأول:التعريف بإمارة الجيش لغة واصطلاحاً	35
الفصل الثاني: إمارة الجيش في الأمم قبل الإسلام	41
إمارة الجيش في بداية التاريخ الإسلامي	57
الفصل الثالث: موازنة وتقدير لقواعد إمارة الجيش فيما قبل الإسلام وبعده	69
المبحث الأول: شروط اختيار القائد	71
المبحث الثاني:الاعتبارات في القيادة ومدى نجاحها	87
المبحث الثالث: القبلية والعشائرية في اختيار قادة الجيش	96
المبحث الرابع: من هم قادة الجيش في الجاهلية التي جاء عليها الإسلام	104
الباب الثاني: إمارة الجيش في عهد الرسول والخلفاء الراشدين	111
الفصل الأول: إمارة النبي صلى الله عليه وسلم للجيش	112

إمارة الرسول الكريم عليه السلام الدينية للجيش	114
إمارة النبي صلى الله عليه وسلم الدنيوية للجيش	123
الفصل الثاني: إمارة الخلفاء الراشدين من بعد الرسول للجيش	151
إمارة الجيش زمن أبي بكر الصديق	155
إمارة الجيش زمن عمر بن الخطاب	170
الفصل الثالث: صلاحيات أمير الجيش كما أصبحت واضحة خلال هذه الفترة	185
الفصل الرابع: مواقف الرسول عليه السلام والخلفاء الرشدين من أمراء الجيش	199
الباب الثالث: المدرسة العسكرية الإسلامية	227
الفصل الأول: ما أضافته العسكرية الإسلامية للتاريخ العسكري في موضوع القيادة	229
الفصل الثاني: بحث تاريخي في كيفية اختيار القادة وما يتعلق بكافة شؤونها	245
الفصل الثالث: أمراء الجيش الإسلامي في السلم والحرب	255
الفصل الرابع: أمراء الجيش الإسلامي وعلاقتهم بالجند	265
الفصل الخامس: صفحات مشرقة وشخصيات نادرة من قادة الجيش الإسلامي	275
الخاتمة	291
المصادر والمراجع	301
فهرس المواضيع	307

تمت بفضل الله وتوفيقه